

الأسلام الدين القيم

دراسة نقدية فكرية للرد على مزاعم و افتراءات الغرب

دكتور

جابر عبد العزيز

2008

دار المطبوعات الجامعية

أمام كلية الحقوق

ت: ٤٨٦٢٨٢٩ - الإسكندرية

الإســـلام

الديــن القيــم

دراسة نقدية فكرية للرد علي مزاعم وافتراءات الغرب

الدكتــور

جــــابـر عبــد العــزيـز

٢٠٠٨

دار المطبـوعات الجامعيـة

أمام كلية الحقوق ت ٤٨٦٣٨٣٩ - اسكـنـدريـة

رقم الإيداع : ١٤٥١٧/ ٢٠٠٨

الاهــداء

إلي أسرتي الكبيرة: كل المؤمنين والمؤمنات في عالمنا الإسلامي.

إلــي أســرتي الصــغيرة: زوجتــي الفاضلة وأولادي.

د. جابر عبد العزيز

الفصـــــل الأول

غالــباً ما يعمد بعض الذين يحاولون أن يطعنوا الإسلام إلي طريقة ماكــرة.. تشــبه تغلــيف السم بقشرة من الحلوي.. لأنهم يعلنون فيما يكتــبون بعــض مزايا الإسلام.. ويمزجون بها أو يضيفون إليها ألواناً مــن التخريــب والتجريح.. كأنما يحسبون أن المسلمين ينخدعون بما يشهد به هؤلاء الخصوم لدينهم.. فيصدقون كثيراً أو قليلاً مما يفترونه علي الإسلام.

علــي أن لهم مأرباً آخر من التظاهر بالإنصاف.. هو التمويه علي غــير المســلمين.. وصــرفهم عــن معرفة الإسلام علي حقيقته.. ما استطاعوا إلي ذلك سبيلاً.

وهــذا مــا حــدث مــع صديقي.. مسيو: شارل سايمون.. الكاتب الصــحفي والمهــتم بالشــئون الإسلامية.. فقد قرأت له مؤخرا مقالاً عنوانه "محمد رجل الصحراء مؤسس الإسلام" هو في حقيقته من ذاك الطــراز الماكر.. إذ أشاد كاتبه ببعض مزايا الإسلام.. أشادة ليست إلا وســيلة لإطلاق السهام المسمومة.. والحق أن ما يطلقه الكاتب أباطيل من السهل أن تكشف مناقشتها عن جهله أو تعصبه أو عنهما معاً.

وقــد أتــاح لي عملي السفر إلي فرنسا.. وكان أول شيء فعلته هو الاتصــال بصــديقي.. مســيو: شارل سايمون وتحديد موعد لقاء معه لمناقشة ما كتبه.

اســتقبلني شــارع الشانزليزيه برحابته واتساعه.. وبدفقات هوائية بــاردة منعشــة.. وبوجــوه باسمة وعيون بارقة.. انطلقت إلي المقهي الــذي اعــتدت الجلــوس فيه كلما جئت إلي باريس.. جلست ارتشف فنجان القهوة الذي أجيد عمله وتقديمه.

دائمـــاً.. دائماً أشعر بالغيرة تحرقني.. فهذا البلد- فرنسا- استطاع أن يضـــع عقد اجتماعي.. يجمع الفرنسيين: حكام ومحكومين.. ويضع لكـــل فـــرد دور معين.. صغير كان أم كبير.. لكنه هام وضروري.. وأصـــبح المجـــتمع في انسجام وتوافق.. يسير إلي الأمام في خطوات واثبة واثقة.. تجد هذا الشعور يملء كل الفرنسيين.

بيـــنما نحـــن فـــي بلداننا الإسلامية مازلنا عاجزين عن وضع عقد اجتماعـــي يرضـــي عنه الجميع.. لذا يلجأ الحكام إلي أساليب البطش والقهـــر لتســـيير أمور الحكم.. وهذا يؤدي إلي تعطيل قوي المجتمع.. ويصبح سيرنا إلي الخلف شيء حتما.

أفقـــت من تأملاتي علي يد صديقي.. مسيو: شارل سايمون توضع علـــي كتفـــي.. رحبـــت بـــه.. وكعادتـــه سحرني بابتسامته الأخاذة.. وأخبرني: أنه متشوق لهذا اللقاء.. ..

وامـــتدت الجلسة إلي الساعات الأولي من الصباح.. وإليك عزيزي القارئ خلاصة ما دار في اللقاء..

١- الدين المحمدي:

فقـــد زعـــم صديقي الكاتب أن محمداً أسس أعظم دين عرفناه: هو الديـــن المحمـــدي.. وأنـــه هـــو الذي سماه الإسلام.. وأنه رأي بعض الـــرؤى.. واعتقد أنها الطريقة التي يكلمه بها الله.. وبدأ يكتب ما تعلمه في كتاب سماه: القرآن.. وهو إنجيل المسلمين..

وليس هذا الإدعاء باطلاً بحسب.. بل أنه يجمع إلي بطلانه: الجرأة علي إنكار الحق.. وإبطال التاريخ.. وإلغاء العقول.

فمـا كـان محمد يدعي النبوة.. فيتحمل في دعواه أقسى المخاطر وأشد الشدائد.. ويصبر علي ما لا يطاق ثلاثة وعشرين عاماً.. لا ينعم فـيها براحة ولا أمن ولا اطمئنان.. ومعه عشرات الألوف من أتباعه يتعرضـون لفقد الأرواح والأموال والقلق الدائم علي الحياة.. وهو لم يجن من وراء دعواه ما يجنيه أصحاب الدعاوى من رغد وثراء وأبهة وسلطان.

ولـو أن محمـداً كـان مدعـياً للنبوة لأثر علي دعواه الرضا بما عرضـه علـيه قومه من المال والملك.. حينما يئسوا من تراجعه عن الدعـوة إلـي الإسـلام.. الذي يسفه عقولهم.. ويلغي أديانهم.. ويبطل كثيرا من عاداتهم ومعتقداتهم.. ويهدد مصالحهم الشخصية بالزوال.

ولـو أن محمـداً كـان مدعياً للنبوة لأقام نفسه ملكاً علي الجزيرة العربـية.. بعـد أن دانت له.. ووافته القبائل لتعلم إسلامها.. وتدين له بـالولاء.. لكـنه لـم يفعل ذلك.. وقد كان ميسوراً عليه.. بل آثر أن يقضي حياته فقيراً .. مبغضاً لمظاهر الجاه والسلطان.

ثـم لمـاذا يـتهم محمـد وحده بادعاء النبوة.. ولا يتهم غيره من الأنبـياء..؟ وإذا كانـت المعجزات هي الفيصل في تصديق دعواهم.. فـإن معجـزة محمـد الكـبرى وهي القرآن الكريم كانت الفيصل في تصديق دعواه.

علـي أن زعماء قريش وصناديدها وكبراءها الذين عاندوا الدعوى حيـناً مـن الزمـن.. لـم يلبثوا أن آمنوا بها.. واقتنعت بها نفوسهم.. وكافحوا دونها بدمائها وأرواحهم وأموالهم.. إذ أيقنوا أن محمداً رسول الله.. ولـيس صـاحب بهتان ولا طالب جاه.. وأيقنوا أنه يوحي إليه.. وأن القرآن الكريم من عند الله.

٢- القرآن من صنع محمد:

ثـم زعـم مسيو: شارل سايمون أن القرآن من عمل محمد.. وهذه كذبـة رددها كثير من أعداء الإسلام.. ولكنها لا تستطيع أن تبقي بعد تفنيدها والكشف عما تتضمنه من زيف وضلال.

بـدأ النبـي بـالدعوة إلـي الإسـلام.. فكذب دعوته أكثر قومه.. وعارضـوه.. ولكـنهم فـي معارضتهم له.. وفي مقاومتهم لدعوته لم يجـرؤوا علـي اتهامـه بالكذب.. إذ لم يعرفوا عنه في حياته إنه من أصـحاب الكـذب والإدعـاء.. بل اتهموه بأنه شاعر.. وبأنه ساحر.. وبأنـه مجـنون.. وليس من المعقول أن يصدق محمد الناس.. ويكذب علي الله.

ولعـل صـديقي الكاتب يتفهم معني الآية الكريمة "**ولو تقول علينا بعـض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم مـن أحـد عنه حاجزين**" سورة الحاقة – ٤٤- ٤٧.. لأن الذي يتفهم الآيـة يتبيـن أن محمـداً عليه الصلاة والسلام ما كان لينفي عن نفسه تهمـة الكذب.. بهذا التصوير المخيف.. الذي يدل علي أن محمداً بشر ضعيف لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ضراً ولا شراً.

ولقـد كانـت تقـع أحداث جسام.. يتطلع فيها النبي إلي الهداية.. ويتشـوق إلـي الحكم الفصل.. فينتظر وهو ملهوف.. حتى ينزل عليه القرآن الكريم بالحكم الحاسم.

حـدث هذا في حالات كثيرة.. منها قصة الإفك.. التي نسجت حول زوجـته: السـيدة عائشـة.. وأبطـأ الوحـي.. والناس في قلق ولغط واضـطراب.. والنبـي نفسـه حائـر لا يقول إلا أنه لا يعلم عنها إلا خيرا.. ثم بعد شهر كامل نزل الوحي ببراءتها مما افتروا عليها.

فلو كان القرآن من صنع محمد لسارع منذ اليوم الأول إلي تبرئة زوجته وحماية عرضه.. ولكان من السهل عليه أن ينسب إلي السماء ما يدعيه.. ليكف المتخرصون عن شكهم.. وليطمئن المسلمون إلي براءة زوجة نبيهم.

وكان المقام لا يحتمل شيئاً من الصبر والانتظار.. لأن الطعنة مصوبة إلي أعز ما يتصل بالإنسان الحر.. وهو العرض.. ولأن هذا العرض موصول بالإسلام.. صلة ترفعه أو تضعه.. فهو عرض النبي نفسه.. وعرض إحدى أمهات المسلمين.. وعرض صديقه أبي بكر.

ولا يصح أن ينسى أحد في هذا المقام أن النبي عربي من أشرف قبيلة من العرب.. والعرب أصحاب غيره علي أعراضهم.. وصيانة لنسائهم لم يكن لها بين الأمم نظير ومثال.. كما يعرف ذلك الدارسون من عرب ومستشرقين.. قدماء ومحدثين.

إذن كانت التهمة سيفاً مشهراً في وجه النبي.. وكانت قنبلة موجهة إلي أمنع حصن.. وكان الإسلام في مستهله لا يحتمل السكوت علي هذه الرجة التي تطيح بنبيه.

ولكن النبي صبر وانتظر.. والأسى يحز في نفسه.. والقلق يجيش في صدره.. حتى نزل عليه الوحي بتبرئة زوجته.. ولم يكن ليستطيع أن يفعل غير ذلك.. لأنه لا يؤلف القرآن.. بل يبلغه عن ربه ذي الجلال والإكرام.

ثم أن الوحي كان ينزل بالقرآن أحياناً مجملاً.. ثم ينزل بيان لهذا المجمل.. وذلك يدل علي أن النبي صلي الله عليه وسلم ليس بمؤلف.. بل وسيط لا أصيل.. ومأمور لا آمر.

.. من الأمثلة علي هذا القول.. قوله تعالي:

"وأن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله".سورة البقرة- ٢٨٤

فقد فهم الصحابة أنهم حاسبون علي كل شيء.. حتى حركات القلوب وخطرات النفوس.. فقالوا: يا رسول الله: أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها.

فقال لهم: أتريدون أن تقولوا كما قال بنو إسرائيل من قبلكم: "سمعنا وعصينا".. بل قولوا سمعنا وأطعنا.. غفرانك ربنا وإليك المصير.

فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات.. حتى أنزل الله بيانها في قوله: **"لا يكلف الله نفساً إلا وسعها"** البقرة- ٢٨٦.

فعلموا أنهم لا يحاسبون إلا على ما يطيقون من النوايا والعزائم لا علي الخواطر والهواجس.

فلو أن القرآن من عمل محمد لبين لهم تأويلها من أول مرة.. ولمحا حيرتهم.. ولكنه كان ينتظر التأويل كما ينتظرونه.

وكثيراً ما كانت تعرض مشكلة.. ويتلمس المسلمون عند النبي خلالها.. فينتظر الحل الذي يوحي إليه.. فلو أنه منشيء القرآن كما زعم مسيو: شارل.. لأسرع باختراع الحل اختراعاً.. ليزيد في عيون أتباعه مهابة فوق مهابته.. ولا غضاضة عليه في أن ينسب الحل إلي ربه.. لأنهم سيصدقونه.. ولا يشكون فيما ينبئهم به.

ومن أمثلة هذا أن خولة بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصامت.. جاءت إلي النبي تشكو زوجها.. لأنها بعد أن ولدت له أولاداً جعلها

علـيه كأمـــه.. أي أنـــه حرمها علي نفسه.. وقالت للنبي أن لي صبية صغاراً أن تركتهم له ضاعوا.. وأن أخذتهم منه جاعوا..

فقال النبي:

ليس عندي في أمرك شيء.. وروي أنه قال لها:

حرمت عليه.

فقالت.. يا رسول الله.. إنه لم يذكر طلاقاً.. وإنما هو أبو أولادي.. وأحب الناس إلي.. فقال الرسول.. حرمت عليه.. فقالت أشكو إلي الله فاقتي ووجدي.

وكلمـــا قال لها النبي: حرمت عليه.. هتفت وشكت إلي الله.. فنزل قولـــه تعالي "**قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها، وتشتكي إلي الله، والله يســـمع تحاوركمـــا، إن الله سميع بصير.. الذين يظاهرون مـــنكم من نسائهم ما هن أمهاتهم، أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم، وأنهم لـــيقولون مـــنكراً مـــن القـــول وزوراً، وأن الله لعفو غفور، والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا، فتحرير رقبة من قبل أن يتماســـا، ذلكـــم توعظون به، والله بما تعملون خبير.. فمن لم يجد فصـــيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا.. فمن لم يستطع فإطعام ســـتين مســـكيناً.. ذلـــك لتؤمـــنوا بـــالله ورسوله، وتلك حدود الله، وللكافرين عذابا أليم**". سورة المجادلة ١-٤

وبهـــذا الحكـــم الإسلامي الذي نزل به الوحي.. قضي النبي في هذه المشكلة.. وألغي تحريم الزوجة علي زوجها بالظهار.. كما كان عرب الجاهلية يفعلون.

ولقد كان الوحي ينزل أحياناً بما لم يكن يتوقعه النبي.. فيخطئه في رأي رآه.. أو يــأذن له فــي شــيء لا يقبل عليه.. أو يلومه في عمل عمله.

ولــيس بمعقــول أن يكــون القــرآن مــن تأليف محمد عليه الصلاة والســلام.. ثــم يخطئ نفسه ويلومها.. ويأمرها بما تركت.. وينهاها عما فعلــت.. لأن هــذا يناقض المكانة التي يريدها المدعي لنفسه بين أتباعه.. ولا يلائم التمويه الذي يموه به علي الناس ليجتذبهم إلي تصديقه.

ومن هذا قوله تعالي: "**يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك، تبتغي مرضات أزواجك، والله غفور رحيم**" سورة التحريم- ١.

وذلــك أن النبــي صــلي الله علــيه وسلم حلف.. ألا يقرب زوجته ماريا.. أو أنه حرم العسل علي نفسه.. إذ كان قد شربه في بيت زوجته زينــب بنت جحش.. فاتفقت عائشة وحفصة علي ادعاء أنهما يشمان من فمــي الرســول رائحة المغافير- شيء ينضح عن الشمام والرمث يشبه العسل- فظن النبي الرائحة الكريهة من العسل.. فحرمه.

ومنه قوله تعالي: "**عبس وتولى أن جاءه الأعمي، وما يدريك لعله يزكي، أو يذكر فتنفعه الذكرى.. أما من استغني فأنت له تصدي، وما عليك ألا يزكي، وأما من جاءك يسعي وهو يخشي فأنت عنه تلهي**". سورة عبس ١-١٠.

وذلــك أن عــبد الله بن شريح الشهير بابن أم مكتوم جاء إلي النبي وعــنده أشــراف قــريش.. يدعوهم إلي الإسلام.. فقال يا رسول الله: أقرئنــي وعلمنــي ممــا علمك الله.. وكرر ذلك وهو لا يعلم أن النبي مشــغول بأشــراف قــريش.. فكره النبي مقاطعة الرجل له.. وعبس وأعــرض عنه.. ثم نزلت الآيات تعاتبه.. فصار النبي يكرمه.. ويقول

إذا رآه: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي.. ويقول له: هل لك من حاجة..؟ واستخلفه علي المدينة مرتين.

ومنه قوله تعالي: "**عفا الله عنك لم أذنت لهم، حتى يتبين لك الذين صدقوا، وتعلم الكاذبين**" سورة التوبة- ٤٣

وسبب نزول هذه الآية أن بعض المسلمين استأذنوا النبي في أن يتخلفوا عن غزوة تبوك.. لأنهم لا يستطيعون السفر البعيد.. أو لأنهم مرضي.. فأذن لهم النبي.. فنزل قوله تعالي: "**لو كان عرضا قريبا وسفراً قاصداً لابتغوك، ولكن بعدت عليهم الشقة، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يهلكون أنفسهم، والله أعلم أنهم لكاذبون.. عفا الله عنك**".

ثم أن الذي يوازن بين أسلوب القرآن وأسلوب النبي يجد لكل منهما طابعه المميز.. في النسق والنظم والتصوير والسمات العامة التي تتسم بها الأساليب الفنية.

وقد أعلن القرآن أنه معجز وتحدي بلغاء العرب جميعاً أن يأتوا بسورة من مثله.. أو بآية من مثله.. فبان عجزهم.. علي حين أن النبي لم يدع أن كلامه معجز.. ولم يدع أحد من المسلمين لأحاديث النبي ضرباً من الإعجاز.

علي أن القرآن حافل بأمور شتى كان النبي صلي الله عليه وسلم لا يعلمها.. وكان العرب يجهلونها.. ففيه أخبار عن الماضيين صحيحة.. كان بعضها مجهولاً للعرب ولغيرهم.. وكان بعضها أساطير.. مثل تاريخ عاد وثمود.. وسد مأرب.. وإبراهيم ونوح..

ويضاف إلي ذلك أن التشريع في القرآن مغاير لما كان في العصر كله في الزواج والطلاق والميراث والبيع والشراء والوصية وغيرها.. وفيه عبادات تغاير العبادات تلك التي كانت معروفة حينذاك.. وفيه أنباء ببعض أحداث ستقع.. ثم وقعت فعلاً.. كانتصار الروم علي الفرس بعد الهزيمة ببضع سنين.

وفي القرآن آيات كثيرة تفسر تفسيراً مطابقاً للحقائق العلمية.. التي لم تكن معروفة من قبل.. بل لم تعرف إلا في الزمن الحديث.. ومعني هذا أن النبي ومعاصريه لم يكونوا علي علم بهذه الحقائق.

..وهذه الأمثلة كثيرة.. منه قوله سبحانه وتعالي:

"ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً.. ثم أنشأناه خلقاً آخر.. فتبارك الله أحسن الخالقين" سورة المؤمنون ١٢- ١٤

ولقد أيد العلم أخيراً ما جاء في الآيات تأييداً مجمعا عليه.. من حيث نشأة الخلق وأطواره.. وتتابع هذه الأطوار تتابعاً يجعل العطف بالفاء دقيقاً غاية الدقة إلي أن يكسوا اللحم العظام.. وكذلك أيد العلم الحديث ما ذكرته الآيات الكريمة من أن العظام تخلق في الجنين قبل اللحم.

فمن أين لمحمد أن يعرف شيئا من هذا الذي لم يعرفه العلماء إلا منذ زمن قصير.

وكذلك قوله تعالي: **"فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعد في السماء"**. سورة الأنعام- ١٢٥.

فإن هذه الآية تنطبق علي ما عرفه العلم الحديث من وجود الهواء في طبقة معينة محدودة في الجو.. ينعدم بعدها.. فلا يستطيع الإنسان أن يتنفس.. ولا يستطيع أن يعيش.. والذي يصعد في الجو إلي مسافة معينة يبدأ يشعر بالضيق شيئا فشيئا حتى يبلغ منطقة الفراغ.. فلا يستطيع الحياة.

وهذه الحقيقة العلمية التي كشف عنها العلم لم يكن النبي محمد ولا أحد من معاصريه يعلم منها شيئاً.. وهكذا تتكرر في القرآن الكريم آيات تنطبق علي الحقائق العلمية.. وفي هذا ما يقطع باليقين أن القرآن من عند الله.. بارئ الأرض والسماء.. لأن النبي صلي الله عليه وسلم لم يكن هو ومعاصروه.. يعرفون من هذه الحقائق شيئا..

وأنه لعجيب أمر هؤلاء الذين ينكرون أن يكون القرآن من عند الله.. وفيهم اليهودي الذي يدين بأن التوراة وحي من الله.. وفيهم المسيحي الذي يدين بأن الإنجيل كتاب من الله.

فلماذا يؤمنون بذلك وينكرون أن يكون القرآن من عند الله..؟ لقد كان المنطق السليم يقتضيهم أن يرفضوا التوراة والإنجيل كما يرفضون القرآن.. أو أن يصدقوا بالقرآن كما يصدقون بالتوراة والإنجيل.

أما أن يؤمنوا ببعض الوحي ويكفروا ببعضه.. فذلك هو الضلال والتضليل.

٣- من التوراة والإنجيل استقي محمد أفكاره:

ثم تمادي مسيو: شارل سايمون في ضلاله.. فزعم أن محمداً تعرف في سفره علي اليهودية والنصرانية.. وعلي كتبهما.. وأنه

ســـمي الـــيهود والنصـــاري أهل كتاب.. واستقي من التوراة والإنجيل كثيراً من أفكاره.

وهـــذه كذبة متداعية الأركان.. واهية كسابقتها.. لأن مسيو: شارل يتجاهل حقائق كثيرة أو يجهلها.. ولكنه يتهجم ويتعالم.

أ- فالنبـــي علـــيه الصـــلاة والســـلام لـــم يكن يعزف من اليهودية والنصرانية.. إلا ما يعرفه قومه من ظواهر لا تكفل الدراية والعمق.

ب- وســـفر النبـــي إلـــي الشام كان في المرة الأولي وهو صبي.. وهـــي المرة التي لقيه فيها الراهب المسيحي- بحيرا- وكان معه عمه أبو طالب وغيره.. ثم سافر إلي الشام مرة أخري وهو شاب.. ولم يلق أحـــداً من اليهود أو النصاري.. علي أن السفر التجاري العابر لا يتيح المعرفة والتأثر والإطلاع.

ج- ولـــو أن النبـــي تلقي من اليهود والنصاري شيئاً.. أو نقل من كتـــبهم بعـــض المعارف لسارع اليهود والنصاري إلي الجهر بأنه نقل مـــن كتـــبهم واصطنع ديناً نسبه إلي نفسه.. ولاعتمد علي هذا مشركو مكـــة فـــي تكذيـــب النبي حينما جهر بدعوته.. وأصروا علي مخالفته ومعارضته وحربه.

د- ثـــم أن الإســـلام يخـــالف الـــيهودية والنصرانية في كثير من الأصـــول والعقـــائد والعـــبادات.. فالـــيهود يدعـــون عزيراً ابن الله.. والإسلام ينكر عليهم هذا.. لأنه دين التوحيد الخالص..

والـــيهود يحرمون العمل في يوم السبت.. والإسلام لا يحرم العمل فـــي يـــوم مـــن الأيـــام.. واليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار.. والإسلام قائم علي أن الناس جميعاً أخوة.. واليهود يحرمون البنت من

الـــميراث إذا كان لها أخ.. فإذا لم يكن لها أخ ورثت أباها.. بشرط أن تتزوج رجلاً من عشيرتها.

أما الزوجة فلا نصيب لها من تركة زوجها.. وبعضهم يورث الرجل مـــن زوجـــته.. وبعضهم لا يورثه.. والإسلام يخالف هذا كله.. واليهود يحلـــون الـــربا والإسلام يحرمه.. واليهود يحرمون لحوم الإبل والإسلام يحلها.. ويحرمون أكل الشحم ما عدا شحم الظهر.. والإسلام يحله.

ولـلـــيهود صــــيام وصلاة.. وللمسلمين صيام وصلاة يغايران صيام الـــيهود وصــــلاتهم.. كذلك يغاير الإسلام النصرانية من عدة وجوه.. فالنصـــاري يعـــتقدون أن المسيح صلب.. ويؤثرون الرهبنة.. ويدعون أن المســـيح ابن الله.. ويعبدون السيدة مريم.. ويحرمون تعدد الزوجات ويحرمون الطلاق.. والإسلام يناقض هذا كله.

علـــي أن الإســـلام يغايـــر المسيحية مغايرة جوهرية في أنه عقيدة وتشـــريع.. أمـــا المســـيحية فعقيدة.. وتشريعها قائم علي اليهودية في أصوله.

هـــــ- وإذا كـــان القـــرآن يـــتفق مع اليهودية في بعض القصص والتشـــريع.. فلـــيس في هذا ما يدعو إلي الدهشة والاستسلام للفروض الـــباطلة.. لأن الأديـــان الـــثلاثة سماوية.. يكمل اللاحق منها سابقة.. والقرآن يقرر هذه الحقيقة مرات عدة.

قـــال تعالي: "قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلي إبراهيم وإســـماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسي وعيسي، ومـــا أوتـــي النبـــيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون". سورة البقرة- ١٣٥.

وقال تعالي في شأن عيسي: "**وآتيناه الإنجيل فيه هدي ونور، ومصدقا لما بين يديه من التوراه، وهدي وموعظة للمتقين**". سورة المائدة- ٤٧.

وقال تعالي في شأن موسى: "**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله، وكانوا عليه شهداء**". سورة المائدة- ٤٣.

س- علي أن الذي يقرأ القرآن يجد فيه مجادلات لليهود النصاري.. وتسفيهاً لعقائدهم وأحكامهم وضلالهم.. فكيف يستمد النبي من التوراة والإنجيل.. ثم يسفه اليهود والنصارى.. نجد ذلك في قوله تعالي.

"**وقالت اليهود يد الله مغلولة، غلت أيديهم، ولعنوا بما قالوا**". سورة المائدة- ٦٤.

وفي قوله تعالي: "**لقد سمع الله قول اللذين قالوا إن الله فقيراً ونحن أغنياء.. سنكتب ما قالوا، وقتلهم الأنبياء بغير حق، ونقول ذوقوا عذاب الحريق**". سورة آل عمران- ١٨١.

وفي قوله تعالي: "**لقد كفر الذين قالوا أن الله هو المسيح ابن مريم**". سورة المائدة- ١٧.

وقوله: "**لقد كفر الذين قالوا أن الله ثالث ثلاثة**". سورة المائدة- ٧٣

٤- الحماسة الدينية والطموح الحربي وراء انتشار الإسلام:

زعم مسيو: شارل أن السبب في انتشار الإسلام هو ارتباط الحماسة الدينية بالطموح الحربي.. بعد موت النبي بعامين.. وادعي أن النبي علم العرب أن محاربة أعداء المسلمين حرب مقدسة.. وأن

المسلم الذي يقتل في الحرب ثوابه الجنة.. كما كان يفعل الصليبيون فيما بعد حينما حاربوا المسلمين.

وهاتان الدعوتان باطلتان..

أ- أما بطلان الدعوى الأولى فلأن مسيو.. شارل يتجاهل تاريخ المسلمين.. فيزعم أنهم لم ينتصروا إلا بعد وفاة رسول الله.. علي حين أن نصرهم بدا واضحاً منذ موقعة بدر.. واستمر في مواقع عدة بعدها ورسول الله حي ليشهد المواقع بنفسه.. حتى دانت له الجزيرة كلها بالإسلام.

ثم أنه يتغافل عن حقيقة لا مجال للشك فيها.. وهي أن الإسلام انتشر بقوته الذاتية الجاذبة.. لا بالقسر والإكراه والإغراء.. لأن القرآن يقرر صراحة أنه لا إكراه في الدين.. ولأن تاريخ الفتوح الإسلامية يسجل: أن المسلمين لم يجبروا أحداً علي أن يسلم.. بل كانوا يتركون الناس أحراراً في عقائدهم وعباداتهم.. حتى لقد شجعوا المسيحيين واليهود علي إقامة الكنائس.

ولا يصح أن يتغافل باحث عن هذه الحقيقة.. وهي أن الإسلام كان ينتشر في أوقات فقد فيها المسلمون نفوذهم الحربي والسياسي.. وما زال ينتشر إلي اليوم بقوته الذاتية.. ويعتنقه كثير من المفكرين الذين يعرفون حقيقته.

يقول السير توماس أرنولد:

لقد تصدعت أركان الإمبراطورية الإسلامية العظمي.. وتضعضعت قوة الإسلام السياسية.. لكن غزواته الروحية ظلت مستمرة دون انقطاع.. وعندما ضربت جموع المغول بغداد سنة

١٢٥٨ م.. وأغـرقوا فـي الدماء مجد الدولة العباسية.. وعندما طرد فرديناد ملك قشتالة وليون المسلمين من قرطبة سنة ١٢٣٦م.. ودفعت غـرناطة- آخر معاقل المسلمين في أسبانيا- الجزية للملك المسيحي.. فـي هذا الوقت كان الإسلام قد استقرت دعائمه.. وتوطدت أركانه في جزيرة سومطرة.. وكان يشق طريقه في تقدم ناجح في جزر الملايو.

ويذكر أن الإسلام اجتذب إلي اعتناقه عدداً كبيراً من الصليبيين في القـرن الثانـي عشر.. وكان هؤلاء الذين أسلموا قواد وأمراء انضموا إلي المسلمين في أوقات انتصر فيها المسيحيون.

ويقـول السـير توماس: "أن ستة من أمراء مملكة المقدس اعتنقوا الإسلام بغير أن يضطرهم أحد إلي ذلك.

وعلـي الذيـن يـتهجمون علـي الإسـلام زاعمين أنه انتشر بحد السـيف.. أن يـتذكروا أن الإسـلام قد شق طريقه إلي قلوب الغالبين المسـيطرين مـن خصومه.. وهم أصحاب الحول والقوة.. أولئك هم: الأتـراك السلاجقة في القرن الحادي عشر.. والمغول في القرن الثالث عشـر.. إذ سـارع الفـاتحون الغالـبون إلـي اعتناق الإسلام.. دين المغلوبين.

كذلـك نجد دعاة الإسلام الذين لا سلطان لهم قد حملوا عقيدتهم إلي أفريقيا الوسطي والصين وجزائر الهند الشرقية وغيرها.. فنشروها في يسـر وحسن.. وإذن فلا صحة لما أدعاه مسيو: شارل من أن انتشار الإسلام بالقوة.. أو انتشاره كان مصحوباً بحماسة حربية.

وعلـي مسـيو: شـارل أن يقـرأ ما قاله.. هوبيرد يشان.. حاكم المسـتعمرات الفرنسـية فـي أفريقية إلي سنة ١٩٥٠م.. وهو فرنسي مسيحي:

"لم تقم دعوة الإسلام علي القسر والإكراه.. بل قامت علي الإقناع الذي كان يتولاه دعاة متفرقون.. لا حول لهم ولا قوة.. إلا إيمانهم العميق بالله.. وكثيراً ما انتشر الإسلام بتسرب سلمي بطئ من قوم إلي قوم.. فإذا ما اعتنقه السادة وهم هدف الدعاة الأول تبعتهم القبيلة كلها".

ويقول:

"ولقد يسر انتشار الإسلام أمر آخر.. هو أنه دين فطرة.. سهل التناول.. لا لبس فيه ولا تعقيد.. سهل التكييف والتطبيق في جميع الظروف".

ب- أما الدعوى الثانية فبينة البطلان.

لأن النبي لم يكن داعية حرب.. بل كان داعية سلام.. وكان يؤثر السلام ما وسعته الدعوة والإيثار.. فإذا لم يجد بداً من الحرب لحماية العقيدة وصيانة الأرواح والدفاع المشروع عن حق الحياة.. اضطر اضطراراً.. فحروبه كلها حروب دفاع لا حروب عدوان.

ومع هذا فقد ضرب النبي للناس أروع المثل فيما سنه من قوانين شريفة في إعلان الحرب.. وفي مقدماتها.. وفي سيرها.. وفي نتائجها.. وفي معاملة الأسري.. وفي معاملة المغلوبين.

أما مساواة مسيو: شارل بين المسلمين الأولين وبين الصليبيين.. فإنها مساواة باطلة.. لأنه أقامها علي أن الصليبيين كانوا يعتبرون المسلمين كفارا.. كما كان المسلمون الأولون يعتبرون مخالفيهم كفاراً.. وزعم أن المسلمين الأولين والصليبيين.. كانوا يتهافتون علي قتال خصومهم وعلي الموت المقدس في حربهم.

هـــناك فرق كبير بين المسلمين الأولين والصليبيين.. لأن المسلمين إذا كانوا يحاربون المشركين.. كانوا يضحون بأرواحهم في الدفاع عن عقيدتهم وعن حريتهم وعن وطنهم.. فيدفعون عن أنفسهم شراً واقعاً.. أو شراً يوشك أن يقع.

أمـــا الصليبيون فقد كانوا معتدين مستعمرين.. مخربين حانقين علي الإســـلام والمســـلمين.. ومـــا مـــن أحد يجهل الفرق الكبير بين حرب همجـــية مبعـــثها الجشـــع والحقد والطغيان.. وحرب مشروعة مبعثها الدفاع عن العقيدة والنفس والحرية والوطن.

فلـــيرجع مســـيو: شـــارل إلي التاريخ ليتبين أن المسلمين كانوا في حـــروبهم ذوي مروءة وشرف ورحمة ورعاية للقيم الإنسانية.. وليتبين أن الصليبيين كانوا يمثلون الوحشية والطغيان والهمجية.

ولـــن يســـتطيع بعد الموازنة المستندة إلي الوقائع الصحيحة إلا إن يكـــف عـــن هذه المساواة.. ويشهد للحروب الإسلامية بأنها سنت من الـــنظم الســـامية والمثل العليا.. ما لم تستطع أمة أن تأخذ نفسها به في القديم ولا في الحديث.

وهنا أنصح مسيو: شارل أن يقرأ قول العلامة جوستاف لوبون:

" لـــم يكـــتف قومـــنا الصـــليبيون الأتقياء بأنواع التعسف والتدمير والتنكـــيل التى أتبعوها فى معاملة المسلمين.. بل عقدوا مؤتمراً اتفقوا فـــيه بالإجماع على إبادة سكان القدس جميعاً من مسلمين ويهود.. وقد بلغ عدد الذين أبادوهم فى ثمانية أيام ستين ألفا.. لم يستثنوا منهم امرأة ولا شيخاً ولا طفلا.

وقولـه:" يدل سلوك الصليبين فى جميع المعارك على أنهم من أشد الوحـوش حماقـة.. فكـانوا لا يفرقون بين الحلفاء والأعداء والأهالي العـزل والمحاربين.. والنساء والشيوخ والأطفال.. بل يقتلون وينهبون على غير هدى.

ثـم يـنقل جوستاف لوبون عن مؤرخين ورهبان شاهدوا بعيونهم فـيذكر أن الصليبيين كانوا يجوبون الشوارع.. ويصعدون إلى سطوح البـيوت لـيرووا غلـيلهم من التقتيل.. فكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشـيوخ ويقطعونهـم أرباً أرباً... وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة.. وكانوا يبقرون بطون الموتي ليخرجوا منها قطعاً ذهبـية.. وكانـت الدمـاء تسـيل كالأنهار فى طرق المدينة المغطاة بالجثث.. وقد ذبحوا عشرة آلاف مسلم فى مسجد عمر بالقدس.

وهكـذا يعـدد جوستاف لوبون مخازى الصليبيين- كتاب حضارة العرب- ص - ٣٩٧.

٥- تصعيب الحياة أمام غير المسلمين:

ثـم أدعى مسيو: شارل أن حكام المسلمين جعلوا الحياة صعبة أمام غـير المسلمين.. إذ أوجبوا عليهم أن يدفعوا كل الضرائب.. على حين سهلوا الأمر على الذين يعتنقون الأسلام.

ولـو أن مسيو: شارل عرف حقيقة الضرائب فى الإسلام لما تورط هـذا الادعـاء.. بل لشهد للإسلام بمحاباة غير المسلمين. لأن فرض على اتباعه ضرائب أكثر مما فرض على غيرهم.

أ- فقـد فـرض على كل مسلم يمتلك عشرين ريالاً من الفضة أو عشرة جنيهات ذهبية.. اثنين ونصف فى المائة كل عام. وفرض عليه

فـــى عـــروض التجارة ما يعادل ذلك.. وفرض عليه فى الأبل والغنم والماعـــز ضـــريبة تخـــتلف نسبتها باختلاف العدد.. وفرض عليه فى الأرض الزراعـــية عشر المحصول.. أو نصفه تبعاً لطريقة الرى.. إذا ما بلغ المحصول خمسين كيلة.

وفرض عليه زكاة الفطر فى كل رمضان عن نفسه وعمن يعولهم.

ب- ولـــم يفـــرض علـــى أهـــل الذمة إلا ضريبة على الرؤوس.. مقدارها فى المتوسط العام: نحو أربعة دنانير عن الغني فى كل عام.. ودنـــياران عن متوسط الحال.. ودنيار واحد عن الفقير.. وأعفي منها الشـــيوخ والأطفـــال والنساء والعاجزين عن الكسب والمنقطعين للعبادة الأرقاء والمجانين.

ومعني هذا أنه فرضها على الرجال الأحرار العقلاء القادرين على العمـــل وكســـب المـــال.. وهـــم فـــى الحقـــيقة القادرين على الحرب والاشتراك فى الجندية.. فلو أنهم كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد.

وهذه الضريبة لقاء الخدمات العامة التى تكفلها الدولة لرعاياها من المســـلمين وغيرهم.. مثل الدفاع وإقامة الجسور وشق الترع ومرتبات القضـــاة والجـــنود.. وفـــى الوقت نفسه نظير الأعفاء من الجندية.. إذ كانـــت الجندية والدفاع عن الوطن واجب المسلمين وحدهم .. أما أهل الذمة فمعفون من هذا الواجب.

وكذلـــك فرض الإسلام على الأرض الزراعية خراجاً ضئيلاً.. لقاء مـــرافقها العامة.. والذى يدرس الضرائب فى الإسلام يتبين أن المسلمين كـــانوا أرحـــم الأمم فى فرض الضرائب وفى جبايتها.. وقد شهد بذلك غـــير المســـلمين مثل: منتسكيو والكونت هنرى دى كاسترى وجوستاف

لوبون والسير توماس ارنولد ونورمان بينز وغيرهم.. ممن لا يصح لمسيو: شارل سايمون أن يشك فيهم.. أو يتهمهم بمحاباة الإسلام.

٦- الحضارة المعاصرة والإسلام:

وفي ادعاءات أخرى لمسيو: شارل .. حشد من الأكاذيب والأباطيل.. بعضها مقنع بقناع من الحياد وبعضها سافر مكشوف.

فقد ذكر أن المقارنة بين العالم الإسلامي والعالم الغربي.. تظهر العالم الغربي متفوقاً فى الثروة المادية والصحة والتعليم والقوة الحربية.. واستنبط من هذا: أن الدين الإسلامي هو المسئول عن تأخر شعوبه.

ومعني هذا أن مسيو: شارل سايمون خلط بين الإسلام وحالة المسلمين اليوم.. فجره هذا الخلط إلى إتهام الإسلام بما يبرأ منه الإسلام.. والحق أن الإسلام ليس مسئولا عن تخلف بعض المسلمين عن المدى الذى بلغته بعض الأمم الغربية.. بل المسئول.. هم المسلمون أنفسهم.. والدول الغربية المستعمرة.. وذلك لأن الإسلام فى القرون الأولى.. حينما كان الدستور العام للمسلمين كفل لهم القوة والسيادة والحضارة وجعلهم رواد العالم.. فى العلم والفكر والمدنية.. وما زالت الدراسات الغربية المنصفة تشيد بفضل المسلمين الذى لا يمكن انكاره.

ويكفي أن أشير هنا إلى عدة إشارات.. إلى بعض فنون العلم الذى برع فيه المسلمون..

ففى العلوم الرياضية- الحساب والجبر والهندسة- برع المسلمون وأضافوا حقائق كانت عظيمة التأثير فى تقدم العلم ورقي العمران.. فنقلوا الأرقام الهندية وهذبوها.. وعنهم أخذتها أوربا.. وابتكروا طريقة الأحصاء العشرى.. واخترعوا الصفر.

ولا ينكر أحد أن الخوارزمي هو الذى اخترع الجبر.. وأورد فيه ثمانمائة مثال فى كتابه- الجبر والمقابلة- وقد نقله إلى اللاتينية: جرارد الكرموني فى القرن الثاني عشر الميلادى- فاعتمدت عليه جامعات أوربا إلى القرن السادس عشر.. وعرفت علم الجبر باسمه العربي.

وتوالت ترجمة كتاب الخوارزمي كله.. أو ترجمة فصول منه إلى عدة لغات.. ونشر بحثا عنه- ج. روسكا- بالألمانية بمجلة المجمع العلمي بمدينة هيدنبرج سنة ١٩١٧م.

ثم ألف عمر الخيام كتاباً فى الجبر يحتوى على حلول هندسية فى بعض الأعمال الهندسية.. فوضعوا أساس الهندسة التحليلية التى تبدأ الرياضة الحديثة بها.

وليسأل مسيو: شارل علماء الرياضيات عن ابن الهيثم.. العبقرى ليعلم إعجابهم به.. وتقديرهم له.. وكيف بحث فى الهندسة بنوعيها المستوية والفراغية.. وكيف حل المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط.. وكيف ابتكر قوانين صحيحة لمساحة الكرة والهرم والاسطوانة المائلة.. والقطاع الدائرى.. وكيف ابتكر الأسس فى انكسار الضوء.. وتشريح العين وتكوين الصور على شبكية العين.

وفى الفلك كان للمسلمين فضل عظيم.. إذ أنهم فى عهد الخليفة المأمون ١٩٨- ٢١٨هـ: ٨١٣- ٨٣٣م... قاسوا طول الدرجة الأرضية.. وحددوا محيط الأرض وحجمها على أنها كرة.. ووجدوا درجة الطول ٢/٣ ٦٦ ميلا عربيا.. وهذا التقدير قريب جدا من القياس الصحيح الذى انتهي إليه العلماء.. وصححوا كثيراً من أخطاء بطليموس فى كتابه المحيطي.

وبنوا عدة مراصد.. وجهزوها بأدوات شتي مثل مقياس الارتفاع والاسطرلاب والمزولة- الساعة الشمسية- وكان محمد بن إبراهيم الغزارى أول من صنع اسطرلاباً.. وليرجع مسيو: شارل إلى آراء المستشرقين ليعرف تقديرهم العظيم لعلماء الفلك المسلمين مثل:

- أبي العباس يوحنا الاسبيلي سنة ١١٣٥م.

- أبي محمد بن جابر البتاني الذى صحح أخطاء.

بطليموس وضبط حساب الأفلاك التى يدور فيها القمر وبعض الكواكب. ومثل أبي الريحان البيروني: ٩٧٣- ١٠٤٨م

والذى قال فيه المستشرق سخاو:

أن عقليته الفلكية الرياضية أعظم عقلية عرفها العالم فى جميع عصوره.. ومثل الخوارزمي مؤلف تقويم البلدان.

أما براعة المسلمين فى الطب والصيدلة.. فإن علماء الغرب يعلمونها ويشيدون بها.. ويكفي فى هذا المجال أن أذكر لمسيو: شارل أن جامعة برستون الأمريكية خصصت جناحاً بها أطلقت عليه اسم الرازى: ٢٥٠- ٣٢٠هـ وجمعت به مؤلفاته.. وأذكر له أيضاً أن كتاب القانون لابن سينا: ٢٧٠- ٤٢٨ هـ كان ينبوعاً للطب فى أوربا.. وكان يدرس بجامعاتها إلى آخر القرن السابع عشر الميلادى.. ولا يزال مصدراً من مصادرهم.. حتى أنهم طبعوه أكثر من خمس عشرة مرة.. كذلك تتلمذت أوربا على كتاب - الكليات فى الطب- لابن رشد ٥٢٦-٥٩٥.. وأطلقت على هذه الكليات - كوكيجت- وهو تحريف للكلمة العربية.

وأمـــا فـــى الكيمـــياء فقد استكشف المسلمون ماء الفضة- حامض النـــتريك- وزيـــت الزاج- حامض الكبريتيك- وماء الذهب- حامض النيترو هـــيدروكلوريك- وحجر جهنم- نترات الفضة.. وملح البارود- نترات البوتاس- وغيرها...

وإن علـــم الكيمـــياء لـــيفاخر بجابر بن حيان ١٢٠- ٢٠٠هـــ هذه إشـــارة سريعة جداً إلى أطراف من ابتكار المسلمين وسبقهم كافية فى التدلـــيل على أن الإسلام برئ مما افتراه ذلك الكاتب.. وأني احيله إلى شهادات كثير من الغربيين للعرب مثل - رينان- فى قوله: أن العلوم والحضـــارة والآداب مدينة بازدهارها وانتشارها للعرب وحدهم طوال ســـتة قرون.. وقولا - سيديور: أن العرب هم أساتذة أوربا حقاً فى كل ضروب المعرفة.

فلـــو أن الإسلام كان معوقاً عن التقدم.. لعجز اتباعه عن أن يبلغوا الشـــأن الذى بلغوه .. وما استطاع أن يخرج من أبناء الصحراء ساسة العالم وأساتذة فى أقل من قرن واحد.

والـــذى يـــدرس تـــاريخ المســـلمين.. ويتعرف أحوال المجتمعات الإســـلامية بعد القرون الثلاثة الأولي.. يجدهم قد تحللوا من مثل عالية كثـــيرة نصـــبها لهم دينهم.. فتفرقوا بعد الوحدة.. وضعفوا بعد القوة.. وتقسمت دولتهم الكبرى إلى دويلات وإمارات يحارب بعضها بعضاً.. ويستعين بعضها على بعض بأعداء الإسلام والمسلمين.

وقـــد كـــان هـــذا الانقســـام المغرق المضعف هو الذى أطمع فيهم المغيرين من التتار الوثنيين.. والروم المسيحيين.. والقوط النصارى.. فهجموا على ديارهم.. وخربوا ما إقامه المسلمون وعوقوا تقدمهم.

ثـم كانت الحروب الصليبية التى شنها الغرب المسيحي على المسلمين قرنيـن مـن الـزمان فى ضراوة ووحشية.. وحنق ضج منها كثير من مؤرخي الغرب النصارى.. فزادت المسلمين ضعفاً على ضعف.

ولـم يكـد المسلمون يفيقون حتى جاء الاستعمار الغربي.. فأعمل معاولـه الهدامة فى كيان المسلمين من دين وأخلاق واقتصاد وثقافة.. فلم يتوقف المسلمون عن التقدم فحسب.. بل رجعوا إلى الخلف.. على حين أن الأمم الغربية كانت تشق طريقها إلى الأمام.

فالتبعية إذن تقع على الاستعمار وعلى المسلمين لا على الإسلام.

علـى أن الموازنـة بيـن المسـلمين والغربيين اليوم موازنة غير دقـيقة.. ولا منصـفة.. وذلك أن أمماً شرقية كثيرة متخلفة عن الأمم الغربية.. وليس الإسلام دينها السائد.

ولـو أن الإسلام هو المسئول عن ضعف أتباعه لما تقدم المسلمون إذ كـانوا مستمسـكين بدينهم.. ولما تأخروا حينما تهانوا فى الاهتداء بتعالـيمه.. وكـيف يصـدق منصـف أن الإسـلام عامل من عوامل الـتخلف.. وهو يدعو إلى كل ما ينهض الأفراد والأمم.. من تفكيرها.. وعلـم نافع.. وخلق كريم.. ونصرة للحق.. وتعاون على الخير.. وبر بالفقـراء.. وحمايـة للضـعفاء.. وسـعي جـاد فى استغلال خيرات الأرض.. وشغف بالتفكير والعلم.. واستعداد حربي يقظ لصدا العدوان وحماية العقيدة وصيانة الوطن.

ثـم لماذا بقيت أوروبا المسيحية تخبط فى ظلمات الجهل والفوضي إلـى القرن الثالث عشر.. فلم تبصر نور الحضارة إلا بعد أن أشرقت عليها شمس الحضارة الإسلامية من سورية وصقلية والأندلس؟

أليس من حقنا أن نسأل على طريقة مسيو: شارل فنقول: لماذا بقيت أوروبا المسيحية جامدة متأخرة إلى القرن الثالث عشر؟ ألا يصح الادعاء بأن الذى وقف بها وعوقها عن التقدم هو دينها المسيحي...؟

٧- الزهد والاستغراق فى العبادة:

زعم الكاتب أن المسلمين استمسكوا بناحية واحدة من دينهم وهي: الزهد والاستغراق فى العبادة.. وهذا سبب من أسباب تأخرهم.. لأنه يقول:

يمكن تشبيه الإسلام بحبل به عدة جدائل.. تمثل الاعتقادات والآراء المختلفة.. ومن الخطأ فصل جديلة معينة.. والاعتقاد بأنها هي الحبل.. ومن المحتمل أن يقارن المرء هذا بالحال الذى يحدث لو أن كل المسيحيين أصبحوا نساكاً ومتبتلين..".

وليس هذا من الصواب فى شئ.. لأن الإسلام عقيدة عمل.. دين وسياسة.. فهو يدعو إلى العمل للدنيا.. ويدعو إلى العمل للآخرة.. فلا يعرف التواكل ولا التقاعد ولا الرهبنة.

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تحض على العمل للدارين..

كقوله تعالي:

" فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله".
سورة الجمعة- ١٠

وقوله تعالي:

" قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق".
سورة الأعراف- ٣٢

وقوله تعالي:

" **إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً**" سورة الكهف – ٣٠

وقوله تعالي:

وقـــل اعملـــوا فســـيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون" سورة التوبة– ١٠٥

وقوله تعالي:

" **وأعـــدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**". سورة الانفال– ٦٠

والأحاديث النبوية تحث على العمل.. **كقوله صلى الله عليه وسلم:**

أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

وقوـــلـه: لأن يحمـــل أحدكم حبلاً فيحتطب به خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه.

وقوله: ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده

وقوله: اليد العليا خير من اليد السفلي.

وقوله: المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف.

ولقـــد فهـــم صـــحابة رســـول الله صلي الله عليه وسلم هذا كله.. وحضـــوا علـــى العمـــل.. كقول عمر بن الخطاب: لا يقعد أحدكم عن طلـــب الـــرزق وهو يقول اللهم أرزقني.. وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.

٨- الحماسة الدينية والحربية والفلسفية:

وأدعي الكاتب أن المسلمين تفوقوا فى العلوم والفلسفة حينما انصرفوا عن الفتوح.. فإذا كان يريد بذلك أنهم تفرقوا فى العلوم حينما ضعفت حماستهم الدينية والحربية.. فإن الواقع ينقضي دعواه.. لأن العلاقة بين الحماسة الدينية والتفوق الفكرى.. أقوى من العلاقة بين الفتور الديني والتقدم الفكرى.

فلقد ترجم المسلمون وألفوا وابتكروا وصححوا كثيرا من أخطاء اليونان فى علوم مختلفة فى العصر العباسي بالشرق وفى العصر الأموى بالأندلس.. وهم فى تلك الأوقات يجاهدون أعداءهم.. وينتصرون عليهم.. مدفوعين بحماستهم الدينية.. وحميتهم السياسية.. حتى لقد عرفوا فى تاريخهم المشرف بأن علومهم كانت تساير سيوفهم المظفرة.. وبأنهم كانوا لا يلبثون أن يفتحوا بلداً حتى يقيموا فيه المساجد والمدارس معاً.

ثم ضعف المسلمون سياسياً.. وفترت حماستهم الدينية.. ولكنهم مازالوا يؤلفون ويبتكرون مدفوعين بنشاطهم العلمي السابق.. فلما اشتد ضعفهم.. وازدادت حماستهم الدينية جمعاً وتلخيصاً وشرحاً للمؤلفات السابقة.. وتعليقاً عليها. حتى أن تاريخ العلم لا يعرف عالما مبتكراً فى مرحلة الضعف هذه على طولها.

ومعني هذا أن فتور الحماسة الدينية لم يصحبه تفوق فى الإنتاج العلمي والفلسفي.. بل صحبة تعثر وجمود.

أما إن كان مسيو شارل سايمون يريد أن المسلمين تفوقوا فى العلوم حينما اطمأنوا بالأمصار.. وكفل لهم الانتصار جواً ملائماً للإنتاج الفكرى.. إن كان يقصد ذلك.. فإنه طبيعي.. لأن المسلمين

شغلوا في القرن الأول بتفهم دينهم.. وبالدفاع عنه وعن أنفسهم.. وشغلوا بدعم سلطانهم.. والتغلب على المتربصين بهم.. ورد عادية المغيرين عليهم.. ومن شأن هذا أن يصرف عن الإنتاج الفكرى.

ولكنهم مع ذلك جالوا فى ميدان النشاط الفكرى والعلمي والأدبي جولات.. ففى القرن الأول وضعت الأصول الأولى للمذاهب السياسية والفكرية والدينية. فكان المرجئة والمعتزلة والشيعة والخوارج.. وكان نشاط فى التفسير والحديث والفقه واللغة والأدب والتاريخ.. وبدأت طلائع الترجمة والتأليف فى الطب والكيمياء.

وإذن: فإنه من الخطأ أن يتهم الإسلام بأنه يعوق عن الإنتاج العلمي.. لأن الإسلام يدعو إلى العلم ويشجع عليه.. ويرفع أقدار العلماء.. كذلك من الخطأ أن تتهم الحماسة الدينية بمعارضتها للنهضة العلمية.. فلولا الإسلام ما تفوق العرب فى العلوم المختلفة تفوقهم المشهور.. ولما نشأت العلوم التى كان للإسلام الفضل فى نشأتها وازدهارها.

٩- تقبل النبي نظام الرق دون اعتراض:

ولو أن الكاتب مسيو شارل على شئ من العلم لقرر عكس ما زعم.. فقد جاء الإسلام والرق نظام اجتماعي سائد فى العالم كله.. أقرته الفلسفات والأديان.. ولم تحاول علاجه بأى دواء.

ولكن الإسلام تفوق عليها كلها بابتكار الوسائل إلى إلغائه إلغاء تدريجياً.. لا يزلزل النظام الاقتصادى والاجتماعي القائم.

فليعلم مسيو: شارل أن الإسلام ضيق مصادر الرق بعد أن كانت لا تخضع لضابط ولا نظام.

وليعلم أن الإسلام ابتكر وسائل شتى لتحرير الأرقاء..

وأنـــه اعـــترف بأنهم بشر لهم حقوق يجب أن تصان.. وأنه حض علـــى إحسان معاملتهم لأنهم أعضاء فى أسرة الملاك.. وخير لمسيو: شـــارل أن يقـــرأ ما كتب الباحثون فى هذا الموضوع.. ليجد ما يبهره مـــن تشـــريع عظيم سبق الإسلام به ما دعا إليه الغربيون من تحرير الأرقاء بعد دعوة الإسلام بثلا عشر قرناً.

ثـــم ليـــنظر فيما يعانيه الملونون فى أمريكا وفى أفريقيا من مهانة وإجحـــاف واعتداء من البيض عليهم.. وهم دخلاء على ديارهم.. وأن هذا لأشنع من الرق.. وأدعي إلى شن الحملات.

١٠- النساء المسلمات محرومات من الحرية:

ثـــم أدعي مسيو شارل أن النساء المسلمات كن وما زلن محرومات من الحرية فى اختيار أزواجهن.. ومن التصرف فى أموالهن.

وهو مخطئ تماماً:

أ- لأن الإســـلام يقرر أن تختار المرأة الثيب زوجها بنفسها.. وأن يســـتأذن الأب أو ولـــى الأمـــر الفتاة البكر فى زواجها. وللإسلام فى الخطـــبة طـــريقة تكفل للخاطب وللمخطوبة أن يلتقيا ويرى كل منهما الآخـــر.. فيقبله أو يرفضه.. فى نطاق من العفاف وصيانة الأعراض والبعد عن الإشاعات.

ب- ولأن الإســـلام يبيح للمرأة أن تمتلك وأن تتصرف فيما تمتلك كما ينصرف الرجال.

ولعـــل مســـيو شارل يتذكر أن حق الملكية كان محظورا على المرأة العـــبرية واليونانـــية.. ولعله يتذكر أن القانون الانجليزى الذى صدر فى

القــرن الثامـــن عشـــر قد حرم المرأة حقوقها المالية كلها تقريباً.. فكانت ثروتها لأبيها.. ثم لزوجها.. ولم تخول حق التملك إلا منذ سنة ١٨٨٢م.

ولعلــه يــتذكر أيضا أن المرأة الفرنسية المتزوجة مازال محظوراً علــيها أن تتصرف فى مالها إلا بإقرار من زوجها.. ما لم تشترط فى عقد الزواج أن تكون حرة فى تصرفها المالي.

فلــيوازن مسيو شارل بين ما خوله الإسلام للمرأة منذ أربعة عشر قرناً وبين نقيدها بالقوانين الغربية الحديثة.

ثــم أدعــي أن شرف المرأة كان مرهوناً بمحافظة زوجها عليها.. فــإذا قصـــر فـــى حماية شرفه.. واستسلمت زوجته لرجل آخر.. فلا يلومن إلا نفسه.

وهــذا كــلام باطل.. لأنه يريد أن يصور المسلمات متهالكات على الــرجال.. لا يعصمهن من الفحشاء إلا رقابة الأزواج.. ولست أدرى كــيف. أباح مسيو: شارل لنفسه أن ينكر على المرأة المسلمة حرصها علـــى عفـــتها.. وصـــيانتها لرباط الزوجية.. واستنكارها أن يخلو بها شخص آخر غير محرم.؟

ولســـت أدرى كيف ناقض مسيو: شارل نفسه.. لأنه ذكر فيما سبق أن الإســـلام – يهيمـــن على سلوك الفرد فى حياته اليومية.. ثم أدعي عنا أن الزوجة تسارع إلى رجل آخر إذا قصر زوجها فى مراقبتها.

أمـــا إذا كـــان مســـيو: شارل يعيب غيرة المسلمين على زوجاتهم.. ولكـــنه يـــريد أن يشـــوها هـــذا التشويه.. فعليه أن يعلم أن الغيرة من مقتضـــيات الإســـلام.. ومن تقاليد العرب المتوارثة قبل الإسلام.. ومن دلائـــل الرجولة والأنفة والحرص على سلامة الأنساب والأعراض ومن

مظاهـــر تقديـــر الـــرجل للحـــياة الأسرية ورعايتها وإعزازهم للنساء.. والعطف عليهن.. والمبالغة فى صونهن عن الابتذال وعن القيل والقال.

وشتان بين مجتمع يغار فيه الرجال على النساء.. ومجتمع منحل لا غـــيرة فـــيه.. يخادن فيه الرجال النساء متزوجات وغير متزوجات.. وأيهمـــا أليق بالإنسانية الكامله: أن تعف المرأة ويغار عليها الرجال.. أم أن تتمادي فى غوايتها ولا يغار عليها الأقارب والأزواج.

لـــذا فأني أنصح مسيو: شارل أن يراجع نفسه.. وأن يدرس قبل أن يـــتهجم.. فلعل دراسته تهديه إلى كثير من حقائق الإسلام.. وتجنبه ما تورط فيه من اضاليل وأباطيل.. وتهجم هزيل ضعيف.

١١- الإيمان بالقضاء والقدر سبب تخلفنا الأخير:

وهذا زعم باطل.. ولندرك زيف هذه المقولة.. يجب أن أمهد بكلمة عما نعنيه بعلم الله وعلم البشر:

إذا نظـــرنا إلـــى صانعي الأقمار الصناعية والصواريخ والسيارات وســـفن الفضـــاء.. نعلـــم كـــيف يعلمون علم اليقين اتجاهها وسرعتها والمـــناطق الـــتى ســـتمر بها.. ويحددون أزمان مرورها على المدن والـــبلدان.. وكـــيف يعرفون ما يشبه ذلك معرفة دقيقة يندر أن يتخلف شئ منها؟

فكـــيف يـــنكر عـــاقل أن الله ســـبحانه وتعالي وهو الخلاق العظيم والبصـــير العلـــيم يـــبعد عـــن علمـــه مثقال ذرة فى السماوات أو فى الأرض؟ لـــذا فأننا نعتقد اعتقاداً جازماً أن بارئ الكون ورب العالمين يعلم علماً لا يتغير.. ويقدر تقديراً لا يبتذل.

وإذا كان من صفات علم الإنسان أنه محدود قاصر.. فأن من صفات علم الله إنه لا حدود له ولا قصور فيه.. لأنه العلم العام الكامل الشامل.. كذلك يتصف العلم الإنساني بأنه لا يتعلق إلا بالأشياء الموجودة فعلاً.. لأنه نتيجة لها وأثر من آثارها.. على حين أن العلم الإلهي يشمل حاضرها ومستقبلها.. لأنه السبب فى وجودها.. فهو يعلم الأسباب ويعلم نتائجها علماً أزلياً أبدياً خاصا به وحده.. لهذا كان علم الغيب مقصوراً على الخالق سبحانه..

قال تعالي: " قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله" سورة النمل- ٦٥.

وقال تعالي: **"وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين"** سورة الأنعام- ٥٩.

وبديهي أن العقل الإنساني لا يستطيع أن يعرف حقيقة علم الله للأشياء المستقبلة.. لأن هذا العقل عاجز عن معرفة حقيقة الذات الإلهية.. فمن الطبيعي أن يعجز عن معرفة صفات الله تعالي.. بل أن العقل الإنساني عاجز عن معرفة كثير من أحوال الجسم الإنساني والنفس الإنسانية.. وكثير من ظواهر الكون التى يشهدها.. فهو أولى بأن يستبين عجزه عن معرفة ما وراء المادة.. وعن إدراك صفات الله سبحانه وتعالي.

وإذا كان الإنسان يفرق بين علمه الماضي وعلمه للحاضر.. وظنه فى المستقبل.. فإن هذه التفرقة تنطبق على الإنسان وحده.. وليس من الجائز أن تنطبق على علم الله.. لأن علمه أزلى أبدي.. وكل شئ من المستقبل خاضع لعلمه كالحاضر.. وهو تعالي يعلم الأمور المستقبلة علمه للحاضر.

ما معني القضاء والقدر:

أ- لا شـــك إذن فى أن علم الله واسع شامل محيط بما كان ربما سيكون وبمـــا ظهـــر وبما استتر.. لأن الله سبحانه وتعالي هو الخالق.. ولأنه أكمل الموجـــودات.. فلابد أن يكون له من الصفات أكملها وأعلاها ولابد أن يكون علمه أوسع علم وأدق علم.. بحيث لا تتصور العقول علماً يداني علمه.. كما أنها لا تستطيع أن تتصور وجوداً يدنو من وجوده.

ومعنـــي هـــذا أن مـــالك الكـــون عليم بما يحدث فى ملكه علماً سابقاً للأحـــداث والوقائع.. فلا يقع فى ملكه حدث إلا موافقاً لارادته.. وهذا هو المعنـــي المخـــتار للقضـــاء والقـــدر.. فالقضاء الحكم والإرادة .. والقدر الـــتقدير والترتيـــب والتنظيم.. وقد يطلق القدر على القوانين التى أودعها الله فى الكائنات.. لتسير على مقتضاها الأحياء.. وتخضع لها الجمادات.. كرســـوب بعـــض المواد فى الماء.. وطفو بعضها فوقه.. وتمدد المعادن بالحرارة.. وتبخر الماء بالتسخين وتجمد السوائل بالبرودة.

فالمراد من أن كل شئ بقضاء الله وقدره.. أنه يوجد مطابقاً لحكمه وإرادتـــه وترتيبه الأزلى على النحو الذى علمه وأراده.. وهذا المعني يـــترد فى آيات كثيرة.. منها قوله تعالي: " **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد.. وكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال**". سورة الرعد- ٩

وقوله تعالي:

" **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير**". سورة الحديد- ٢٢

وقوله تعالي:

" أنــا نحــن نحــي الموتى، ونكتب ما قدموا وآثارهم، وكل شئ أحصيناه فى إمام مبين". سورة يس- ١٢

والأحاديــث النبوية تجرى على هذا النسق.. كقوله صلى الله عليه وســلم: مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله تعالي: أن الله عنده علم الســاعة، ويــنزل الغيث، ويعلم ما فى الأرحام، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً، وما تدرى نفس بأى أرض تموت، أن الله عليم خبير.

ب- وقضاء الله حتمي لا يتخلف.. قال تعالي:

"ولقد كذبت رسل من قبلك، فصبروا على ما كذبوا، وأوذوا حتى أتاهم نصرنا، ولا مبدل لكلمات الله". سورة الأنعام – ٣٤

وقــال تعالــي: **"ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون".** سورة الصافات ١٧١-١٧٣

وهــذا بديهــي لا يحتاج إلى تعمق فى التفكير. لأن رب الكون لا يمكــن أن يقــع فى ملكوته شئ لم يعلمه ولم يرده أزلاً.. وإلا كان – تعالــي عــن ذلــك علواً كبيراً- غير محيط بما يحدث فى ملكه.. أو مكرها على ما يقع فيه.

لماذا يؤمن المسلمون بالقضاء والقدر؟

إنــه مــن الطبيعــي إذن أن نؤمن نحن المسلمين بقضاء الله وقدره إيماناً لا يتزعزع...

أ- لأنــنا نؤمــن بعلم الله وقدرته وإرادته.. وندين بما يلائم عظمته وجلالــه.. ونصدق بكتابه وبأحاديث رسوله.. وبما تضمناه من قضاء الله وقدره.

ب- ولأن هـذا الإيمـان يعصـمنا من الغرور إذا ما حالفنا نجاح ونصـر.. فقد تسول للمنتصر نفسه أنه بجده وحده انتصر.. فيتمرد ويطغـي.. وينسي أن يشكر ربه.. ويتعامي عن حقوق من حوله.. كما فعـل قـارون إذ أبطـره ثراؤه.. وزعم أنه كسب المال الكثير بعلمه ونسـى حـق الله فيه.. فجسه الله نكالاً وعظة لغيره.. **قال تعالي: "إن قـارون كـان من قوم موسي فبغي عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولى القوة، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنـيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد فى الأرض، إن الله لا يحب المفسدين".** سورة القصص- ٧٦- ٧٧

قـال إنما أوتيته على علم عندى.. أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قـبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً.. ولا يسأل عن ذنوبهـم المجرمون. فخرج على قومه فى زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون، إنه لذو حظ عظيم. وقال الذيـن أوتوا العلم ويلكم، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً، ولا يلقاها إلا الصابرون. فخسفنا به وبداره الأرض، فما كان له من فئة ينصـرونه مـن دون الله ومـا كـان من المنتصرين، إما كان من المنتصـرين. وأصـبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسـط الـرزق لمـن يشاء من عباده ويقدر، لولا أن من الله علينا لخسف بنا، ويكأنه لا يفلح الكافرون". سورة القصص:٧٨- ٨٢

ج- علـى أن هـذا الإيمان إذ يعصمنا من الغرور يبعد عنا الخور والضـعف والـيأس والسخط أن نزلت كارثة.. أو حدث إخفاق.. لأن المؤمـن بالقضـاء ويصبر على ما أنزل به.. ويستمد من صبره قوة

علــى مغالبة عوامل القنوط والاستسلام.. فيستأنف حياه فى جد مثمر.. وبعزيمة قوية.. وأمل متّجدد وقلب متفتح.

د- ثــم أن إيماننا بقضاء الله وقدره يبعث فينا كثيراً من الفضائل.. إذ أن المؤمن بالقضاء شجاع.. لأنه يعلم أنه لن يصيبه إلا ما سبق فى علــم الله مــن مــوت أو حياة.. ومن سلامة أو اضطهاد ومن نفع أو ضــرر.. والمؤمن بالقضاء أبي عزيز النفس إلا يذل لأحد.. ولا يدنس ضــميره أو كرامــته لقاء ثمن.. لأنه يعتقد أن النفع والضرر بيد الله.. وقــد سبق به علمه وقضاؤه.. فلو اجتمع الأنس والجن على أن ينفعوه أو علــى أن يضــروه.. فإنهم لا يستطيعون شيئاً سوى ما سبق به علم الله وقضاؤه.

والمؤمــن بالقضاء راض دائما.. مستبشر دائماً.. متفائل فى جميع حالاته.. لأنه مطمئن إلي رحمة الله ولطفه وعدله.

هــــ- ولا شك أن الإيمان بالقضاء يحفظنا من رذيلة الحقد والحسد والســخط.. لأن الــذي يحسد غيره علي نعمة أنعم الله بها عليه ساخط علــي قضاء الله.. والذي يحقد علي ذي نعمة متبرم بحظه من الحياة.. والذي يسخط نصيبه من الدنيا ضعيف الثقة بقضاء الله.

ك- ونحــن نؤمــن بقضــاء الله.. لأن الله تعالــي إذا أوجب علينا الإيمان به.. أوجب علينا أن نعمل وأن نسعي.. وأن نتخذ من الأسباب والوســائل مــا يحقــق الغايات المشروعة.. فلا كسل ولا تكاسل ولا خمــول ولا تواكــل.. ولهــذا نهانا سبحانه وتعالي عن تعريض أنفسنا للهلاك في قوله:

"ولا تلقوا بأيديكم إلي التهلكة" سورة البقرة- ١٩٥.

وأمــرنا بالدفــاع عن الدين والوطن في قوله تعالي: "يا أيها الذين آمــنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون" سورة آل عمران- ٢٠٠.

وأمرنا بالسعي والعمل والحصول علي الرزق.. قال تعالي:

"فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض، وابتغوا من فضل الله". سورة الجمعة- ١٠.

وهكذا تتكرر الأوامر في آيات كثيرة مؤكدة هذه المعاني وأمثالها.. والأحاديــث النــبوية تتفق مع القرآن الكريم في الحض علي العمل.. كقوــله صلي الله عليه وسلم: تداووا يا عباد الله.. فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاءاً.

ل- ونحــن نؤمــن بالقضاء لأن الأحداث قبل أن تقع سر محجب عــنا.. لا يعلمه إلا الله الذي قضي وقدر.. وليس في استطاعة مخلوق أن يعلــم المقدور.. وكيف يتطلع أحد إلي معرفة.. مع أن النبي صلي الله علــيه وسلم أمره الله أن يقول **"لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير، وما مسني السوء".** سورة الأعراف- ١٨٨.

ولهــذا نعي الله علي المشركين اعتذارهم عن شركهم بأنه قدر من الله.. ونعــي علي ما يعتذرون بالقدر في انصرافهم عن الخير وإقبالهم علي الشر.. قال تعالي: **"سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنــا، ولا حرمنا من شيء.. كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقــوا بأســنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا..؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون".** سورة الأنعام- ١٤٨.

وقد قال سراقة بن مالك لرسول الله صلي الله عليه وسلم: يا رسول الله بين لنا ديننا.. كأننا خلقنا الآن.. فيم العمل؟ أفيما جفت به الأقلام.. وجـرت بـه المقاديـر؟ أم فيما يستقبل؟ قال رسول الله: فيما جفت به الأقلام وجرت المقادير.

قـال: ففـيم العمـل؟ قال: اعملوا.. فكل ميسر لما خلق له.. وكل عـامل بعمله.. وروي عن علي ابن أبي طالب: كنا في جنازة.. فأتانا رسـول الله.. فقعـد وقعدنـا حوله.. ومعه مخصرة.. فنكس.. وجعل ينكـت بمخصـرته.. ثم قال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الـنار ومقعده من الجنة.. فقالوا: يا رسول الله.. أو لا نتكل علي كتابنا ونـدع العمل؟ قال: أعملوا.. فكل ميسر لما خلق له.. أما من كان من أهـل الشـقاوة فيصير لعمل أهل الشقاوة.. ومن كان من أهل السعادة فيصير لعمل أهل السعادة.. ثم قرأ قوله تعالي: "**فأما من أعطي واتقي وصـدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى**". سورة الليل- ٥- ١٠.

والأحاديـث النـبوية كثيرة في تأكيد هذا المعني.. كقوله صلي الله عليه وسلم: إذا سألت فسأل الله.. وإذا استعنت فاستعن بالله.. واعلم أن الأمـة لو اجتمعت علي أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لـك.. وأن اجتمعت علي أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك.

م- لهـذا كلـه كان الإيمان بالقضاء والقدر نعمة علي البشر.. لأنه ظـل مـن الطمأنينة وارف.. ونعمه من السكينة الراضية بقضاء الله.. ولأنـه حافز علي قوة العزائم.. وباعث علي العمل والعزة والشجاعة

والصبر.. ووقاية من الشرور التي تصيب الأفراد والجماعات.. كالحسد والأثرة والشماتة والنفاق والجزع واليأس.

الإيمان بالقضاء والقدر قوة دافعة:

لقد فهم السلف الصالح ن القضاء والقدر أنه لا يثبط عن العمل.. ولا يعوق عن السعي.. ولا يبيح الرضا بذلة أو مهانة أو ضعف.. بل أنه دافع إلي العمل وباعث للحرية.. ورضا بالنتائج في غير ما سخط وبغض للحياة.. ويأس واستسلام.

لهذا كانوا يتخذون لكل أمر أهبته غير متواكلين أو مقصرين.. فقد خرج عمر بن الخطاب إلي الشام.. ولقيه بعض القواد وأخبروه بانتشار وباء بها.. فاستشار المهاجرين والأنصار.. فأجمع المهاجرون علي الرجوع.. واستجاب عمر لمشورتهم.. فقال له أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها.. نعم نفر من قدر الله إلي قدر الله.. ولم يكتف عمر بذلك.. بل ضرب لأبي عبيدة مثالاً محسوساً إذ قال له: أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له جانبان.. أحدهما خصبة والأخرى غير خصبة.. أليس أن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله.. وإن رعيت غير الخصبة رعيتها بقدر الله.؟

ولم يطق عمر أن يتعلل سارق بقضاء الله.. فقد جئ إليه بسارق.. فقال له: ما حملك علي السرقة؟ قال: قضاء الله وقدره.. فضربه ثلاثين سوطاً.. ثم قطع يده.. وقال له: قطعت يدك لسرقتك.. وضربتك لكذبك علي الله.. وسئل ابن عمر عمن يرتكبون الشر.. ويقولون.. كان ذلك في علم الله.. فغضب وقال: كان ذلك في علمه.. ولم يكن علمه يحملهم عليه.

فـــالقدر إذن لا ينافي حرية الإنسان في أفعاله.. ولا يؤدي إلي قهر وإجـــبار.. لأن قضاء الله منوط بعلمه السابق الذي لا يعلم الإنسان شيئا منه حينما يقدم علي عمل أو يحجم.. كما قال ابن عمر.. كان ذلك في علم الله.. ولم يكن علمه يحملهم عليه...

ثـــم أن الإنسان مأمور بفعل الخير وموعود بالثواب عليه.. ومنهي عـــن عمل الشر.. ومهدد بالعقاب عليه.. ولا معني للثواب والعقاب إلا بـــأن يكون عن عمل صادر عن حرية واختيار.. ومن الخطأ أن يحمل أحد علم الله السابق لما يفعل الإنسان علي إنه جبر وإلزام.

فـــإذا مـــا رجعـــنا إلي الآيات الكريمة التي يتضح منها هذا المعني استطعنا أن نقسمها قسمين..

.. **القســـم الأول** آيات تبين أن الإنسان مسئول عن عمله وهي قوله تعالي:

١- "**كل إمرئ بما كسب رهين**". سورة الطور- ٢١.

٢- "**ولا تزر وازرة وزر أخرى**" سورة الأنعام- ١٦٤.

٣- "**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**". سورة البقرة- ٢٨٦.

٤- "**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**". سورة النجم- ٤١.

.. **والقســـم الثانـــي** آيـــات ترتب الجزاء علي العمل.. وهي قوله تعالي:

١- "**ما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيدكم**" سورة الشورى- ٣٠.

٢- "**ووفيـــت كـــل نفـــس ما كسبت، وهم لا يظلمون**". سورة آل عمران- ٢٥.

٣- **"وما تجزون إلا ما كنتم تعملون"**. سورة الصافات- ٣٩.

٤- **"فمــن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره"**. سورة الزلزلة ٧- ٨.

والــذي يفهــم من هذه الآيات.. أن الإنسان مسئول عن أعماله حر فــي أفعالــه.. يــثاب علــي الخــير والطاعــة.. ويعاقب علي الشر والمعصــية.. جــزاء وفاقاً لما عمل وقدم.. وأن الله سبحانه وتعالي لا يظلم أحداً من خلقه.

ومن السهل أن نفهم الآيات الأخرى التي توهم الجبر فهماً بعيداً من فكرة الجبر.. مثل قوله تعالي:

١- **"ولــو شــاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً"**.. سورة يونس- ٩٩.

٢- **"إن هذه تذكرة، فمن شاء اتخذ إلي ربه سبيلاً. وما تشاءون إلا أن يشاء الله"**.. سورة الإنسان ٢٨-٢٩.

٣- **"ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها"**.. سورة السجدة- ١٣.

فــإن الغرض من هذه الآيات أن الله لو أراد أن يكون الناس جميعاً مؤمنيــن لأجبرهم علي الإيمان.. ولكنه تركهم أحراراً بعد أن أنار لهم طــريق الهــدى.. وجبه إليهم.. ورغبهم فيه.. وبعد أن حذرهم طريق الضــلال.. وبغضــه إليهم.. وحذرهم أن يسلكوه.. ليكون حد الثواب والعقاب الحرية والاختيار.

بقيــت آيــات يستدل بها الجبريون ليست متصلة بالمشيئة كالآيات الســابقة مثل قوله تعالي: **"ختم الله علي قلوبهم وعلي سمعهم وعلي أبصارهم غشاوة، ولهم عذاب عظيم"**.. سورة البقرة- ٧.

وقوله علي لسان إبراهيم:

"**لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين**".. سورة الأنعام- ٧٧

وقوله تعالي علي لسان أهل الجنة:

"**الحمـــد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله**".. سورة الأعراف- ٤٣.

وهـــذه الآيات لا تعني الجبر والإلزام.. بل تعني أنه سبق في علم الله تعالـــي أن بعض عباده سيصرون علي الكفر وتكذيب الأنبياء.. فقضي عليهم بما سبق في علمه.. وهو أنهم عمي عن الحق.. صم عن الخير.. وســبق فـــي علمـــه أن بعض عباده سيسارعون إلي الإيمان به.. وإلي تصديق أنبيائه.. فقضي لهم بما سبق في علمه من هداية وتوفيق.

فالخـــتم علـــي القلـــوب والآذان والتغشية علي الأبصار.. والعذاب العظيم في الآية الأولى نتيجة لكفرهم الذي علمه الله من قبل.

والآيـــات التـــي بعدهـــا تبين أن الأغواء والهداية والتوفيق من الله باعتبار أنها سابقة في علمه قبل وقوعها.

وقد جاء هذا المعني واضحاً في آيات أخرى.. كقوله تعالي:

١- "**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين**".. سورة الصف- ٥.

٢- "**ومـــا يضل به إلا الفاسقين، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميـــثاقه، ويقطعـــون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون**".. سورة البقرة- ٢٧.

وتـدل الآية الأولى علي أن الفاسقين ضلوا.. فأضل الله قلوبهم.. فيهم كالسابقين أحـرار فـيما اختاروا.. وأهل لما يستحقون من عقاب.. وأما الآيـة الثانية فإنها تبين أن العصاة الفساق الذين يكفرون بالله.. ويعثون في الأرض فساداً.. هم الذين استحبوا طريق الشر وسلكوه.. ولم يجبرهم الله علي ذلك.. بل أنه علم بما سيفعلون.. وأن علمه لحق ويقين.

علي أن بعض الناس قد يخطئ.. فيستدل بقوله تعالي: "**والله خلقكم ومـا تعملون**" متوهما أن الخطاب من الله تعالي إلي البشر.. والحقيقة أنـه مـن إبراهـيم عليه السلام إلي قومه الذين يعبدون الأصنام التي ينحـتونها بـأيديهم.. فهـم وأصـنامهم مـن خلق الله.. فلا يصح أن يعـبدوها.. لأنهـم صانعوها.. وهم والأحجار والأخشاب التي نحتوها منها مما خلق الله.

ويتبيـن هذا من الآية السابقة لهذه الآية وهي قوله تعالي علي لسان إبراهـيم: قال "**أتعبدون ما تنحتون، والله خلقكم وما تعملون**".. سورة الصافات ٩٥- ٩٦.

وهكذا يتضح زيف وخطأ ما زعمه مسيو: شارل سايمون لذا أعود وأقـول له ناصـحاً: أن يراجع نفسه وأن يدرس قبل أن يتهجم.. فلعل دراسـته تهديه إلي كثير من حقائق الإسلام.. وتجنبه ما تورط فيه من أضاليل وأباطيل وتهجم هزيل ضعيف.

١٢- لباس المرأة المسلمة يعيقها علي الحياة:

وهـذا تجنـي وافـتراء.. فمسيو: شارل ينظر إلي المرأة المسلمة نظـرته إلي المرأة في المجتمع الغربي.. الذي جعل العلاقة بين المرأة والرجل: علاقة متعة وإشباع رغبة.. لذلك أصبح جمال المرأة وإبراز مفاتـنها غـير مقـيد بالجوانب الأخلاقية والضوابط السلوكية.. وهكذا

يجـيء الـزي والملبس مبرزاً ومظهرها لذلك الاتجاه.. ويكون إبداء الزيـنة وإظهـار المفاتـن والاختلاط المطلق متمماً ومكملاً لما قصده الغربيون.. ولما بنوا حياتهم علي أساسه.

بيـنما المجـتمع الإسلامي ينظر للمرأة علي أساس الدور الذي تقوم بـه.. مشـاركة للرجل.. وقدسية هذا الدور وأهميته في بناء المجتمع.. وأنـه يرتكـز أساسـاً علي الجانب العقيدي والخلقي ومنهج الحياة التي ينبغـي أن تتبـناه وفـق ذلـك.. ومن هنا يكون لباسها وزيها وهندامها انعكاسـاً وتـرجماناً للأخلاق والقيم الفاضلة التي آمنت بها.. ويتبع ذلك إبداء الزينة ومجالات الاختلاط والعمل والأسلوب الصحيح لممارستهم.

ويجـب أن ندرك أن الملابس تعبير عن قيم.. فتطور الملابس في المجـتمع الغربـي قـد انطلق من نقطة معينة هو إبراز جمال المرأة ومفاتـنها بكل ما يمكن أن يوضح مظهرها.. لماذا.. ؟ لأنهم ارتضوا الإباحـية الجنسـية أن تكون الأساس في العلاقة بين الرجل والمرأة.. لذلك يجب علي المرأة أن تكون في حالة إغراء وإغواء للرجل دائماً.. وحيـنما يكون التحلل الجنسي هو عقيدة المجتمع.. فالخاسر الوحيد فيه هـو المـرأة.. لأن التنافس علي جذب الرجل مفتوح.. بلا سقف وبلا حـدود.. وتصبح المرأة القادرة علي عرض زينتها ومفاتنها أكثر حظاً ونصيباً من المرأة غير القادرة.

بيـنما نجد أن تطور الملابس في المجتمع الإسلامي قد اتخذ اتجاهاً مخالفـاً تمـام الاختلاف.. فالتواصل الجنسي بين الرجل والمرأة محدد ومؤطـر بقـيم وأخلاق ومبادئ فاضلة.. والزواج هو الوسيلة الوحيدة ليأتـي الرجل المرأة.. لذا كان لباس المرأة ساتر.. لا يصف ولا يشف ولا يحـدد.. لأنهـا مدركـة أن الزواج وبالتالي الجنس وسيلة وليس

غايــة.. وسيلة لإفراغ لهيب الشهوة ولإطفاء نار الرغبة.. والغاية هي التفرغ لعبادة الله.. فبعد التخلص من شواغل الشهوة والرغبة.. تصفوا النفس لفعل ما يرضي الله من رعاية للأسرة وحسن المعاملة في الحياة اليومية.. وأداء ما كلف به الإنسان من عمل وعبادات.

لــذا عــند ينحصر الحجاب ويمسي فقط غطاء للرأس.. بينما باقي الجســد والذي تكمن فيه مصادر الزينة والمفاتن والجمال قد تم تجريده مــن الســتر والإخفــاء.. وأصــبح التصريح وليس التلميح هو اللغة المرسلة إلي الرجل..

فحيــنما تــرتدي المــرأة المسلمة البدي والبنطلون الأسترتش الذي يجعلهــا تــبدو وكأنها عارية.. فكل تفاصيل جسدها ظاهرة وواضحة للعيــن.. وحيــنما ترتدي المرأة المسلمة المايوه البكيني علي البلاج- الشــاطئ- العمومي.. فإن هذا لا يعني أن المجتمع الإسلامي قد غير ملبســه.. بــل إنه قد بدأ يغير اتجاهه الأصيل.. مستعيراً دوافع التعبير من مجتمع آخر دون أن يشعر.

وهذا ما يدفعني إلي الاستغراب والاندهاش بل إلي الغضب أحياناً.. عــندما أجد في الشارع أم تلبس الحجاب الشرعي بينما بناتها يرتدون غطــاء الــرأس المشابه لغطاء رأس الأم.. ويرتدون البدي والبنطلون والاســترتش.. تــري في الأسرة الواحدة هذا التناقض.. والذي إن دل علــي شــيء فإنما يدل علي أن ما يتعرض له المجتمع الإسلامي من موجــات التغريب وتشويه مفاهيم وقيم ومبادئ الدين الإسلامي شديدة التأثير.. وعظيمة الأثر.

واقفــاً كنــت أتفصــح عناوين الجرائد والكتب.. والبائع يأتيني بما أختاره.. وفجأة سمعت صوت استغاثة:

يا أستاذ.. يا أستاذ.. لو سمحت..

التفت.. وجدت فتاة.. ترتدي غطاء رأس- طرحة أو إيشارب- محكم وساتر.. بينما البدي والبنطلون الاسترتش يشرح ويصف ويحدد أعضاءها الجنسية.. استفسرت منها ماذا تريد..؟

قالت فزعة وهي تشير إلي شاب يقف خلفها.

الشاب ده.. يتحرش بي.. ويدعوني إلي ممارسة الجنس معه.

نظرت إلي الشاب نظرة محذرة.. فتراجع إلي أقصى الرصيف ولكنه لم ينصرف..

قلت:

لماذا تستنكرين دعوته..؟

قالت وحروف كلماتها تحمل دهشة من تساؤلي..

إزاي لا أستنكر.. هذا لا يصح.. هذا حرام.

قلت ساخراً:

لا يصح وحرام.. كيف..؟ وما ترتدينه هو دعوة إلي هذا اللايصح وإلي الحرام.. حينما تلبس المرأة مثل ملابسك التي تحدد وتصف العورة.. فهي دعوى منها إلي كل رجل يرغب في ممارسة الجنس.. المرأة الغربية التي تقلدينها لا تجد غضاضة في ممارسة الجنس مع أي رجل في أي زمان وأي مكان.. فهي حينما ترتدي هذه الملابس.. تريد أن تعلن الرجل بموافقتها المسبقة للممارسة الجنسية.. لذلك حينما طلب الدين الإسلامي من المرأة أن تحتجب في ملابسها أي لا تظهر تفاصيل جسدها.. لأنه يدرك طبيعة المرأة.. فطرتها التي تأبي أن

تكـــون مطية.. سلعة رخيصة الثمن لكل من هب ودب.. ففطرة المرأة مبنـــية علـــي الاختـــيار.. اختـــيار الرجل الأفضل والأقوى والأحسن والأجمل.. لمن؟ لها ولمن تنجبهم منه.. أي لها كإمرأة ولأطفالها.

المـــرأة الداعرة.. العاهرة فقط هي التي تقبل أن تمارس الجنس مع رجـــل التقته لتوها.. وفقط لتمارس الجنس دونما اختيار ودونما رغبة في تواصل مستمر يثمر عن أطفال وحياة مستقرة.

المرأة الغربية ارتضت العهر والتحلل الجنسي.. فماذا عنك؟

قالت وكلماتها تخرج متعثرة.

- طبعا أرفض.. أنا فقط ألبس ما يساير الموضة.. و قاطعتها..

- يا ابنتي.. الموضة ابتكار غربي.. يهودي المنشأ.. المقصود منه نشـــر الفحـــش والـــرذيلة والغواية بالإضافة إلي جمع ملايين الدولارات.

انتشرت حمرة الخجل في وجهها.. استأذنت في الانصراف.قلت لها:

- انتظري.. سأقوم بتوصيلك إلي المنزل.

وفـــي الطـــريق حادثتها.. يجب يا أبنتي أن يتفق ما بداخلك مع ما تـــرتديه.. فالباس يعبر عن قيم الشخص الذي يلبسه.. فتخيري ما يتفق مع أنظومة قيمك وقيم مجتمعك الإسلامي..

واعـــتقد أن صديقي مسيو: شارل سايمون سعيد جدا بما هو حاصل فـــي بلداننا الإسلامية من كسر وتحطيم لأنظومة القيم الإسلامية.. ومن اســـتعارة لأنظومـــة وقيم المجتمع الغربي.. ففي أحد مناقشتنا.. تساءل والفرحة تكاد تصرخ في عينيه..

- أليس ما ترتديه بعض النساء الآن من غطاء الرأس والبدي والبنطلون تطور للحجاب.. أو بمعني أدق تمدن الحجاب.. فأصبحت حركتها الآن أيسر.. كما أن ما ترتديه يتوافق مع الموضة العالمية والفكر والمتحرر.

العورة يجب سترها ويستحي من إبدائها:

وقد قصي الله علينا قصة أبوينا أدم وحواء.. حين أغراهما الشيطان بالأكل من الشجرة المحرمة.. فبدت لهما سوآتهما.. فأسرعا بقطف ورق الجنة ليسترا عوريتهما.. فكان ذلك أول إلهام من الفطرة في أن العورة يجب سترها ويستحي من إبدائها.. بل ويستقذر أظهارها.. أنهما حالما نزلا علي الأرض.. اتخذ اللباس والزينة.. وظل اتخاذ اللباس الساتر والهندام الجميل دليل التحضر والاحتشام والعفاف.. وعلي العكس من ذلك كان العري والتخفف من اللباس وإبداء العورات دليل الحياة البدائية.. وذلك واضح في حياة القبائل الهمجية.. وهو أيضا دليل الانحدار والانحطاط في الحضارات السابقة.. ونذير الفناء والضياع.

وقد حدث هذا في حياة اليونان.. حين أصبح للمومسات مكانتهن في المجتمع.. وأصبحت بيوتهن قبلة لسائر طبقات المجتمع.. مما حملهم أن يتفننوا في صنع التماثيل العارية للمرأة.. مما أوقد فيهم الغرائز والشهوات.. ولم يخطر ببالهم أن الاستسلام للشهوات شيء ذميم في قانون الشهوات.. وتبدلت مقاييس الأخلاق عندهم إلي حد جعل كبار فلاسفتهم وعلماء أخلاقهم.. لا يرون في الزني غضاضة يعاب عليه مرتكبه.. وأصبح عامتهم ينظرون إلي عقد الزواج نظرة من لا يهتم به.. ولا يري حاجة إليه.. وكانت النتيجة أن خضعت ديانتهم لشهواتهم.. فانتشرت فيهم عبادة "افروديت" التي تواصلت

جنسيا مع ثلاثة آلهة.. مع كونها زوجة أحدهم.. وكان من اتخاذها رجلاً من العامة.. عامة البشر- عشيقاً.. أن ولدت "كيوبيد" إله الحب.. واتخذت هذه الرموز.. رمزاً للكمال بل إلهاً يعبد.. ثم انتشرت فيهم سوءة قوم لوط.. ويشهد التاريخ بأن اليونان لم يكن من نصيبه المجد مرة أخرى.

وما يحدث الآن في المجتمع الغربي في هذا الجانب ليس ببعيد عن المجتمع اليوناني القديم.

مخالفات العرب قبل الإسلام:

١- **مخالفة في كيفية أداء العبادة..** فقد جنح بهم الفهم الخاطئ لتقديس البيت والطواف حوله.. أن جعل بعضهم يطوف بالبيت عريانا واضعاً ثيابه التي كانت عليه قبل الوصول للبيت ابتغاء التطهر.. في صحيح مسلم عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانه.. وتقول من يعيرني تطوافاً؟ تجعله علي فرجها.. وتقول: "اليوم يبدو بعضه أو كله.. وما بدا منه فلا أحله".

وفي حديث آخر رواه مسلم.. "كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس.. والحمس: قريش وما ولدت.. كانوا يطوفون بالبيت عراة إلا أن تعطيهم الحمس ثيابا .. فكانوا علي تلك الجهالة والبدعة والضلالة حتى بعث الله نبيه محمد صلي الله عليه وسلم.. فأنزل الله "يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد". وأذن مؤذن الرسول.. "ألا يطوف بالبيت عريانا".

فجاء خطاب القرآن مبطلاً ذلك.. ناهياً عنه.. مبيناً نعمة الله عز وجل علي بني آدم باللباس والزينة.. محذراً إياهم من فتنة الشيطان لهم عن ذلك.. بأن يردهم إلي العري وإبداء العورات.. كما أراد أن يفعل بأبويهم آدم وحواء.. مؤكداً أهمية لباس التقوى.

يقول الله سبحانه وتعالي: "**يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم، وريشاً، ولباس التقوى ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون، يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون**" سورة الأعراف ٢٦- ٢٧.

إلي قال الله تعالي: "**يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين**".. الأعراف- ٣١.

إن لباس التقوى الذي أكدته الآية ونعتته بالخير.. وأنه من آيات الله يشير إلي أهمية الإيمان ودوره.. وما يغرسه في النفس من تقوي الله وخشيته.. وأن به تتحقق في الفرد أخلاق العفة والحياء والطهر.. فيكون ما يلبس مصدقاً لما وقر في قلبه.. وكانت العرب تكني عن الفضل والعفاف بالثياب كما قال شاعرهم: "**ثياب بني عوف طهاري نقية**".

٢- المخالفة الثانية هي التبرج: قال الله تعالي مخاطباً أزواج النبي صلي الله عليه وسلم ونساء المؤمنين تبعاً لهن:

"**وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأقمن الصلاة وءاتين الزكاة وأطعن الله ورسوله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، ويطهركم**".. الأحزاب- ٣٣.

التبرج.. التكشف والظهور للعيون:

اختلف الناس في الجاهلية الأولى.. قيل كانت فيما بين نوح وإدريس أو بين آدم ونوح.. أو في الزمن الذي ولد فيه إبراهيم.. حيث كانت المرأة تخرج تمشي بين الرجال.. وكانت لهن مشية وتكسر

وتغـــنج.. وكانت تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين.. وتلبس الثياب الرقاق ولا تواري جسدها.

قـــال أبـــو العـــباس المـــبرد: والجاهلية الأولى كما تقول الجاهلية الجهـــلاء: قـــال: وكـــان النساء في الجاهلية الجهلاء يظهرن ما يقبح إظهـــاره حـــتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وعشيقها.. فينفر دخلها بمـــا فـــوق الإزار إلـــي الأعلي.. وينفرد زوجها بما دون الإزار إلي الأسفل.. وربما سأل أحدهما صاحبه البدل.

وقد ورد في السنة ما يحذر من التبرج.. وما يعتبر دليلاً من دلائل النـــبوة.. إذ أخبر صلي الله عليه وسلم.. بصفة هيئة بعض النساء كأنه يراهـــن فـــي الوقـــت الحاضر.. ففي الصحيح عن أبي هريرة.. يقول الرســـول: "صـــنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سباط كأذناب الـــبقر.. يضربون بها الناس.. ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن.. كأسنمة البخت المائلة.. لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها.. وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا.

٣- **تحـــريم الخلـــوة بأجنبـــي**: وإذا وضح لنا تحريم الإسلام للتبرج وأمـــره الـــناس باللـــباس الســـاتر أدركنا أنه يريد أن يسد أبواب الفساد.. ويحفظ علي عفتها وكرامتها.. وعلي المجتمع طهره ونظافته ويقي أجياله الناشـــئة شـــر التحلل والفساد.. ويمضي خطوة أخرى فيحرم خلوة المرأة بأجنبـــي عنها.. إلا إذا كان معها محرم لها.. كما يحدث عند الحاجة إلي الطبيب أو غيره.. فتذهب إليه مع زوجها أو أخيها أو أحد محارمها.

يقـــول رســـول الله صلي الله وسلم: "لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما".

والإســلام بهــذه الأمور الثلاثة: اللباس الساتر.. وتحريم التبرج.. والخلــوة.. مــع بذل الجهد الأساسي في غرس تقوي الله وخشيته في نفسية الرجل والمرأة.. وقيام المجتمع ووسائل تثقيفه علي تنمية ذلك.. والعــناية بــه.. وإعطاء الفتاة المسلمة حقها الكامل في التربية والتعليم المتكامليــن.. أقــول بهذه الأمور يكون وضع المرأة في مكانها اللائق والمناسب والذي يقيها شر الفساد والانحراف.

من أبواب الفساد.. التبرج وإتاحة الخلوة:

طــبعاً.. لسنا في حاجة إلي إيضاح أن التبرج وإتاحة الخلوة قد فتحا كثــيراً مــن أبــواب الشــر.. وقد أعان علي ذلك التقليد الأعمي لنظام التوظــيف الغربــي بالنسبة للمرأة.. وفتح باب الأعمال لها فيما يناسبها ولا يناسبها.. وقبولها الأعمال التي تجعلها في حاجة للخضوع لغيرها.. كأعمــال الســكرتارية الخاصــة.. ومــا يجري مجراها.. ثم ما تعكسه الصــحافة الرخيصــة من محاكاة للحياة الغربية.. في هذا الجانب.. وما تروج له من أدب الجنس.. ومسابقات الجمال وعبث مصممي الأزياء.. كــل ذلــك وغــيره جعل المرأة معرضة للتأثر بهذا التيار الخادع.. ولا يمكــن لهــا مقاومــته إلا بأن تعي رسالتها وتفهم دينا.. وتكشف الزيف والخــداع الــذي يــنطوي عليه التيار الغربي.. وحينذاك تثق في نفسها وخلقها.. وتنقاد لتيار الإيمان والطهر والإصلاح.

حدود زينة المرأة المسلمة:

أوضــحنا فــيما سبق أن الإسلام يعتبر اللباس انعكاساً للقيم والأخلاق الفاضلة التي يؤمن بها المجتمع المسلم.. ورأينا كيف أن أبوينا آدم وحواء عــبرا عــن الفطرة الخيرة.. التي أودعها الله في آدم وذريته حينما سترا نفســيهما.. عندما بدت لهما عوراتهما.. وأن الله تبارك وتعالي أمتن علينا

معشــر بني آدم باللباس.. نستر به أجسادنا.. وطلب إلينا أن يتعاون لباس الــتقوى من الإيمان والعفة والحياء والطهر مع اللباس الظاهر الذي يستر أجسادنا في أن نكون صورة حية للتكريم الذي كرمنا الله به.

وقد جاء تحريم الإسلام لتبرج المرأة وإظهار مفاتنها.. ووصفه أنه تــبرج الجاهلــية الأولــى.. تدعيما لمكارم الأخلاق التي جاء لاتمامها وسداً لأبواب الفساد التي يفتحها.. وتنفيذاً لهدفه الأصيل من إقامة حياة اجتماعــية نظــيفة مثالية.. تنمو فيها الأخلاق الفاضلة.. وتتحقق فيها الحياة السعيدة الطيبة.

ومــن هــنا اهتم الإسلام بزي المرأة وهندامها.. وأوجب أن يكون بعــيداً عن الإغراء والفتنة.. معبراً عن ما يدعو إليه وينشده.. علي أن الإســلام لا يعتنــي بالظاهر ويترك الباطن.. كما لا يشدد في ملابس الخــروج ويحــرم المرأة حقها في إبداء زينتها أمام زوجها في داخل بيــتها.. كــلا.. أنه يهتم أولاً بأن يستقر الإيمان وشعائره بين الجوانح والقلــوب.. وهــذا ما عناه القرآن الكريم بقوله تعالي: "**ولباس التقوى خير**" ثم يتيح لها بحبوحة الزوجية الكريمة تبدي فيها زينتها لزوجها ما تشــاء مــن غــير حــرج ولا تضييق.. فإذا خرجت عن دائرة بيتها ومحارمهــا.. طالــبها أن تخرج مستترة.. محتسمة فهذه درجات ثلاث تكون فيه المرأة من حيث اللباس.

الأولي: بينها وبين زوجها فيما تلبسه.. فإن ذلك يرجع إليها.

الثانــية: لمحارمها وأقاربها القريبين والنساء المسلمات وهو جواز إبداء الزينة الظاهرة لهم.

الثالــثة: وهو ما تقصد به كلمة الحجاب.. وهي الثياب التي للخروج.. والتي تباشر بها الحياة العامة.. وتلتقي بها الناس.. وشرطها:

أ- أن يكون الثوب ساتراً لجميع الجسد.

ب- أن يكون واسعاً غير ضيق ولا محدد للجسد.

ج- أن يكون سميكاً لا رقيقاً.

د- ألا يكون ثوب زينة ولا مطيباً ولا مبخراً.

والأصل في ذلك آيتا النور والأحزاب وأحاديث نبوية وردت تتميما وشرحاً لهما.

قال تعالي: **"وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن علي جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني إخواتهن أو نساءهن أو ما ملكت أيمانهن أو النابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا علي عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وتوبوا إلي الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون"**. سورة النور- ٣١.

وقد بينت الآية في صدرها الأمرين الرئيسيين الذين يجب الحرص عليهما وهما:

الأول: غض البصر الذي هو يريد النفس والقلب.. ومن هنا نهينا عن اتباع النظرة فإن لنا الأولى.. وعلينا الثانية.

الثاني: حفظ الفرج.. والإسلام يؤمن بالوقاية ويهتم بسد الذرائع ودرء المفاسد..

ثم اتبعت الآية ذلك بأمر ثالث.. وهو النهي عن إبداء الزينة عموماً.. لما فيه من الإغراء للنظر وجذب الانتباه.. واستثنت من ذلك

مــا يظهــر بحكم الضرورة.. ولذلك فإن المرأة مأمورة بألا تبدي وأن تجــتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة.. ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة.. حركة فيما لابد منه أو إصلاح شأن فهو المعفو عنه.

وقوله تعالي: "**وليضربن بخمرهن علي جيوبهن**".

الخمــر: جمــع خمــار وهو ما يغطي به الرأس.. والجيوب: جمع جيب وهو موضع العنق والصدر فدل علي وجوب سترهما.

روي الــبخاري عــن عائشة أنها قالت: "رحم الله نساء المهاجرات الأول.. لمــا نزل: "وليضربن بخمرهن علي جيوبهن".. شققن أزرهن فاختمرن بها.

ثــم إن الله تعالي بعد أن بين في الآية السابقة- آية النور- ما يجب علــي المرأة أن تخفي من زينتها أمام الأجانب.. ومن يجوز أن تظهر أمامهم.. أمرها في آية الأحزاب إذا خرجت من دارها أن تلتحف فوق ثيابها بالجلباب أو الملاءة.. لأنه أستر لها وأشرف لكرامتها.

قــال تعالي: "**يا أيها النبي قل لأزواجك، وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدني أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً**" سور الأحزاب- ٥٩.

والجلــباب: هــو الملاءة التي تلتحف به المرأة فوق ثيابها علي أصح الأقوال.. وقال ابن كثير: هو الرداء فوق الخمار.. وهو بمنزلة الإزار".

يقول ابن حزم: أن علي المرأة أن تستر جميع بدنها ما عدا وجهها وكفــيها.. مســتدل بأن الأمر بستر الوجه لم تتضمنه آية "النور" التي أمــرت بلــي الخمــار علي العنق والصدر.. وكذلك لم تنص عليه آية الأحــزاب.. قــال ابن حزم: في آية النور من أمرهن تعالي بالضرب

بالخمار علي الجيوب.. وهذا نص علي ستر العورة والعنق والصدر.. وفيه نص علي إباحة كشف الوجه.. والجلباب في لغة العرب التي خاطبنا بها رسول الله: هو ما غطي جميع الجسم.

إنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة في العبادة وفي الصلاة والحج فيصلح أن يكون الاستثناء راجع إليهما في "إلا ما ظهر منها".

وقد ثبت أن الوجه ليس بعورة يجب ستره وهو مذهب أكثر العلماء.. لكن ينبغي تقييد هذا بما إذا لم يكن علي الوجه وكذا الكفين شيء من الزينة لعموم قوله تعالي: **"ولا يبدين زينتهن"**.

وإلا وجب ستر ذلك.. لا سيما في هذا العصر الذي تفنن فيه النساء بتزيين وجههن وأيديهن بأنواع من الزينة والأصبغة.. مما لا يشك مسلم بل عاقل ذو غيرة في حريمه.

الجهاد.. تحريض للمسلم للاعتداء علي غير المسلم:

وهذا ادعاء آخر من صديقي مسيو: شارل سايمون.. وهو ادعاء يلتقي مع ادعاءات وافتراءات كثير من المستشرقين والمبشرين حينما يتصدون لقضية الجهاد.

والجهاد في الإسلام.. إنما شرع دفاعاً عن الدين.. وعن أذي المعتدين علي المؤمنين.. فالجهاد إذن: شرع للحرب وليس من أجل الكفر.. وهذا هو الذي يدل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية.. لماذا..؟

لأنه لو كان الكفر هو الموجب للجهاد.. فلماذا يتم قبول الكافر في المجتمع الإسلامي إذا دفع الجزية.. ولماذا تواجد الكفار قديماً وحديثاً في المجتمع الإسلامي.. إذا كان الكفر موجب للجهاد ضدهم.

سبل الجهاد المشروعة:

الجهــاد: تعنــي لغويــاً.. المشــقة.. فيقال جهدت جهاداً أي بلغت المشــقة.. وجاهد العدو مجاهدة وجهاداً: قاتله.. والجهاد: يعني المبالغة واستفراغ ما يستطيعه في الحرب أو اللسان أو ما أطاق من الشيء.

وشــرعا هــو بذل الجهد في الدفاع عن الإسلام وعقيدته وعالمه.. ويطلق الجهاد في الشرع أيضاً مجاهدة النفس والشيطان والفساق.

وللجهــاد ســبل كثــيرة يــتحقق بكل واحد منها معني من معاني الجهاد.. أهمها:

١- الجهاد بالنفس:

أي أن يذهــب المؤمــن بنفســه ويقــاتل أعداء العقيدة وأعداء الدين المعتديــن.. والجهاد بالنفس أعلي مراتب الجهاد وأعظمها قدراً.. وأعلاها شأنا.. وهل يملك الإنسان أغلي من روحه.. فيجود بها في سبيل.

٢- الجهاد بالمال:

فالمسلم القادر يجهز نفسه ويجاهد.. فيكون قد جمع بين فضيلتين.. الجهــاد بالــنفس والجهــاد بالمال.. وقد يكون غير قادر جسمياً علي القتال.. ولكنه قادر مالياً.. فينفق من ماله لمساعدة المجاهدين بالنفس.

وكان كثيراً من الفقراء المسلمين الراغبين في الجهاد.. والذود عن مــنهج الله.. وراية العقيدة.. لا يجدون ما يزودون به أنفسهم.. ولا ما يــتجهزون به.. فيلجأون إلي النبي صلي الله عليه وسلم.. يطلبون منه الوســيلة التي تحملهم إلي ميدان المعركة البعيد الذي لا يمكن الوصول إليه علي الأقدام.

٣- المساعدة علي الجهاد:

وذلـــك بالإســـهام في كل عمل من شأنه التمكين من أسباب النصر.. ويـــتحقق هـــذا بمضـــاعفة الجهـــد في الإنتاج الحربي.. سواء كان ذلك بالصناعة أو الزراعة أو التجارة.. وبالمساهمة في جلب المعدات الحربية أو العمل علي إنتاجها وترقية مستواها لتضارع أرقي الأسلحة وأقواها.

سبب تشريع الجهاد:

قد يظن كثير من الناس أن سبب تشريع الجهاد في الإسلام.. يرجع إلـــي اخـــتلاف العقـــيدة والدين.. والشريعة والمنهج مع أصل الديانات الأخـــرى.. وهـــذا الظن باطل وغير صحيح.. إذ أن الإسلام هو الدين الوحـــيد الـــذي يقبل أن يهادن أهل الديانات الأخرى.. وأن يعيش معها معايشة سلمية.

والإســـلام ديـــن حجة وبرهان.. وإحقاق للحق.. دين اقتناع عقلي وتـــذوق وجدانـــي.. لـــم يكن ليلزم أحداً علي الدخول فيه إلزاماً.. ولم يـــرغم أحداً علي قبوله.. فكيف يتهم هذا الاتهام.. وهو الدين الإلهي.. الذي جاء ليحرر العقل والوجدان.

قال الله تعالي: "**لا إكراه في الدين**" سورة البقرة- ٢٥٦.

الإســـلام ديـــن عزة وقوة ومنعة.. وليس بدين استسلام واستكانة.. ورضا بالهوان وطلب معيشة ذليلة.. وهو لا يرضي للمسلمين الخنوع والجبـــن وقـــبول واقـــع مرير وحياة وضيعة.. والفضيلة كل الفضيلة تتجلـــي فـــي رد الاعـــتداء.. ومنع الخضوع للأقوياء المشركين.. ولو ترك الأشرار وشأنهم يعيثون فساداً من غير رادع يردعهم.. ولا مانع يمـــنع طغـــيانهم وبغيهم.. لعم الفساد.. قال الله تعالي: "**ولولا دفع الله**

الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل علي العالمين".. سورة البقرة- ٢٥١

..الحكمة من مشروعية الجهاد في الإسلام تتمثل في:

١- الدفاع عن النفس.

٢- رد العدوان.

٣- تأمين حرية العقيدة وإقامة الشعائر الدينية.

أهمية الجهاد:

هو أفضل الأعمال علي الإطلاق عند الله تبارك وتعالي.. وثوابه يربو عن ثواب الحج والعمرة والصيام والقيام.. ويكفيه فضيلة أن سبحانه وتعالي قد تكفل للمجاهد إما بالنصر أو بالجنة والعاقبة الحسني.. ولم يرد في ثواب الأعمال وفضلها.. مثل ما ورد في الجهاد.. والجهاد يشتمل علي جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة.. فإنه يشتمل علي محبة الله تعالي والإخلاص له.. والتوكل عليه.. وتسليم النفس والمال له.. والصبر والزهد.. وذكر الله وسائر أنواع الأعمال علي ما لا يشتمل عليه عمل آخر.

يقول تعالي: **"لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله"**. سورة النساء- ٩٥.

وقال: **"يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم علي تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم"**. سورة الصف- ١٠-١١.

أجر المجاهدين:

للمجاهد منزلة رفيعة في مقياس الناس وفي مقياس العدالة الإلهية.. وإن الشـــهيد في مقام كريم عند رب العزة.. وليس أحداً من أهل الجنة يتمنـــي أن يـــرجع إلي الدنيا إلا الشهيد.. فإنه يود أن يقاتل ويقتل مرة ثانـــية.. ليحظـــي بما حظي به في المرة الأولى من روعة الاستقبال.. وبهجـــة اللقاء.. قال الله تعالي: "**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون**". سورة آل عمران ١٦٩.

من هو الشهيد:

يظـــن بعض الناس أن كل من يقاتل فيقتل في المعركة فهو شهيد.. وهذا الظن غير صحيح.. ذلك لأن أغراض الحروب متباينة.. وأن الدوافع للقتال مخـــتلفة.. وكل من قاتل علي منافع شخصية أو مصلحة دنيوية أو من أجل مركـــز أو منصب.. أو رياء وسمعة.. فلا يعتبر قتاله في سبيل الله.. وإنما الـــذي يقـــاتل لإعـــلاء كلمـــة الله.. ولرفع راية الإسلام.. والذود عن حمي المسلمين وأرضهم وإقامة شرع الله وحدوده.. مخلصاً لله في قتاله.. فهو في سبيل الله.. وهاهو ذا رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول:

"من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو سبيل الله".

كما أن الشهادة في سبيل الله لها مدلول عام: وهو أن كل من يموت في حالة دفاع عن دينه وعرضه وشرفه وماله يعتبر شهيداً عند الله تعالي.

ما هي شروط المجاهدين في الإسلام؟

قـــد يكـــون الجهاد فرض عين في حالة الدفاع عن النفس والأرض والحـــرمات.. ففي هذه الحالة يجب القتال علي المسلمين جميعاً رجالاً ونساء وشباباً وشيباً.

وقــد يكون فرض كفاية في حالة بدء المسلمين بالقتال.. أي إذا قام بـــه بعض أفراد المسلمين.. سقط الإثم عن الباقي.. بتوفر هذه الحالة.. يتعين تحديد الشروط التي يجب توافرها في المجاهدين.. أهمها:

١- الإسلام.

٢- البلوغ.

٣- الذكورة.

كيفية الإعداد للجهاد:

للأعداء أثرا كبيرا في رفع معنويات الجيش وفي إنزال السكينة في نفوســـهم وقلوبهـــم.. بل إن للإعداد أثره الذي لا يخفي في توجيه دفة الحـــرب وفـــي تحديـــد النـــتائج.. وللإعداد محيطان.. محيط تربوي: روحي ونفسي.. ومحيط مادي- تكتيكي- وسلامي.

الإعداد الروحي:

أهم مظاهره:

١- الشجاعة والإقدام.

٢- الـــتقوى وتتمثل في: الصلاة.. والتوجه إلي الله تعالي بالإكثار من الدعاء.

٣- توطيد العلاقة بين القائد والجنود.

٤- التوكل علي الله والثقة بالنفس.

الإعداد المادي:

له جوانب كثيرة منها:

١- تربية الأجسام.

٢- اختيار القيادة الواعية وتطبيق مبدأ الشورى.

٣- وحدة الصف.

٤- التخطيط للحرب.

٥- اقتناء الأسلحة العصرية والتدريب عليها.

ما هي أخلاق المسلمين في القتال:

لم يعرف التاريخ قديماً أو حديثاً فاتحاً أرحم ولا أرأف ولا أعد من المسلمين.. وهذه شهادة نطق بها العدو كما نطق بها الصديق.. وقالها المبغض كما قالها المحب.. وإنها لشهادة حق وعدل.

وكلما تصور الإنسان سماحة الإسلام.. وثبت إلي ذهنه صورة الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم.. وهو داخل منتصر.. عزيز الجانب إلي مكة.. وأهلها خائفون.. مذعورون من انتقام المنتصر.. ولكنه ضرب مثلاً أعلي للعفو والصفح عند المقدرة.. وعلي هذه السنة سار الخلفاء.. قال أبو بكر رضي الله عنه موصياً أحد قواده:

"لا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً.. ولا تقطعن شجراً مثمرا.. ولا تخربن عامراً.. ولا تعقرن شاة.. ولا بعيراً إلا لمأكل ولا تحرقن نخلاً.. ولا تفرقنه ولا تغلل ولا تجبن.

مظاهر رأفة الإسلام في الحرب:

١- النهي عن قتل من لا يقاتل من النساء والأطفال والشيوخ والعجزة.

٢- النهي عن الاعتداء علي البيع والصوامع وهي معابد اليهود والنصاري.

٣- أن لا يـــبدأ المســـلمون بمقاتلـــة الأعـــداء إلا بعد الإعلان عن الحرب بمدة تكفي لوصول خبرها إليهم.

٤- مـــن المـــبادئ الهامـــة التي يلتزم بها المسلمون.. التوقف عن القـــتال إذا طلـــب العـــدو ذلك.. أو كف شره وأزاه عن المسلمين أو انسحب طالباً توقيع المعاهدة..

٥- معاملـــة الأســـري: إن موقـــف الإســـلام من الأسرى موقف إنســـاني.. يتسم بالعدل والرحمة وحسن المعاملة.. فقد أوصي الرسول صـــلي الله عليه وسلم بالأسير خيراً.. وأمر ألا يفرق بين صبي وأمه.. وأن يقدم له الطعام والشراب والكساء.. وأن يداوي إن أصابه جرح.

إنشاء المعاهدات مع الأعداء:

يشـــرع الإســـلام للمسلمين أن ينشئوا معاهدات سلمية مع من شاؤا.. رجوعـــاً إلـــي الســـلم الأصلي الذي يحكم العلاقات بين الدول.. ولهم أن يقـــرروا وقـــف القـــتال حســـب ما يحقق مصلحة الإسلام وإعزاز كلمة المســـلمين.. ولهم الحق كذلك أن ينشئوا معاهدات بقصد التحالف الحربي والـــتعاون علـــي عدو مشترك.. إذا كان في هذا الأمر ما يحقق مصلحة الأمـــة الإسلامية.. إذ أن الحرب في نظر الإسلام ما هي إلا علاج مؤقت لـــبعض الحالات الناشزة.. ولبعض الأوضاع غير المستقرة.. فإذا استتب الأمـــن واســـتقر الوضـــع وأمن شر العدو.. وارتفعت راية الإسلام عالية خفاقة كريمة.. فليس ثمة داع إلي القتال أو حاجة للحرب.

المعاهدات.. والشروط التي يجب أن تحققها:

١- أن لا تكون المعاهدة مخالفة للقرآن الكريم أو سنة رسوله.

٢- أن تكـــون المعـــاهدة قائمة علي التراضي من الطرفين.. قياساً علـــي عقـــود الشـــراء والبيع والمعاوضات المالية.. أما إذا كان هناك إلـــزام مـــن أحد الطرفين أو كانت المعاهدة نتيجة لضغوط دولية.. فلا قيمة حقيقية لهذه المعاهدة.

٣- أن تكـــون المعـــاهدة بيـــنة الأهداف.. واضحة العبارة لا تحتمل الـــتأويل أو التفســـير.. أمـــا إذا كانـــت غامضة العبارة.. غير واضحة الهدف.. تمكن من التلاعب بألفاظها.. فلا قيمة لها شرعاً.. لأنها من باب الغش الذي يفسد كل عقد.. فضلاً عن معاهدة يتوقف عليها أمن البلاد.

هل يجب الوفاء بالمعاهدات؟

إذا اســـتكملت المعـــاهدة شروطها من وضوح.. وعدم مخالفة لشرع الله وســـنة رســـوله.. وعدم إخلال بأمن الدولة المسلمة.. كان الوفاء بها واجباً دينـــياً.. يسأل عنه المسلمون أمام الله.. وكان عدم الوفاء والنكوث بها غدراً وخيانة.. أما إذا أخل العدو بها.. فعندئذ لا عهد لهم علي المسلمين.. بل كان علي المسلمين أن يهبوا متكاتفين متعاونين علي دفع قوى الشر والعدوان.

إذن..

فـــتلك هي أهم مبادئ الجهاد في الشريعة الإسلامية.. وإنها لمبادئ رائعـــة.. تظهـــر سماحة الدين الإسلامي وإنسانيته وعدله.. كما تظهر حزمه وقوته وأنه لا يقبل الهزيمة ولا الضيم وإلا الاستكانة ولا الهوان ولا الجبن ولا الضعف.

الزواج والتعدد والطلاق وسائل قهر واستلاب للمرأة المسلمة:

يعـــود مـــرة أخرى مسيو: شارل سايمون إلى مزاعمه الخالية من الحق.. وهو يريد هنا أن يمس جانباً هاماً فى حياة الإنسان المسلم....

الزواج فى الإسلام:

أقام الله نظام الكون على الزوجية فقال: " **ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون**" سورة الذاريات – ٤٩

وشارك الإنسان الحيوان فى هذه الخاصية فقال الله تعالي: " **فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الانعام أزواجاً يذرؤكم فيه**" سورة الشورى – ١١

وبينت هذه الآية أن الغاية من الزواج التكاثر وبقاء الأنواع.. وقد تميز الإنسان عن الحيوان بعقله وفكره وروحه.. وأن الزواج يدعم الأمن النفسي والاستقرار الروحي.. ويجلب له السعادة والسرور.

قال الله تعالي: " **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون**". سورة الروم.

فالزواج رابطة يتم بها سكن النوعين وقيام المودة والرحمة والحب بينهما... وسبيلاً لتحقيق المتعة الجنسية واللذة الجسدية فى جو من الطهر والكرامة.. فيكون منه بعون الله البذرة الصالحة.. إن الشهوة الجنسية فى الإنسان أقوى منها فى الحيوان وإنها لو تركت بغير ضابط.. كانت حرباً على الجماعة.. فهي تنزع إلى الأثرة والفردية والفوضي.. وليس لها ثبات والاستقرار... وهي لا تحرك المرء إلا للتمتع باللذة العارضة.. ولذا كان لابد من ضبط هذا النزوع والجموح.

وقد هيأ الله الفطرة البشرية لهذا الانضباط.. فخلق فى المرأة ميزة الجمال وصفة الإمتاع والتسلية.. وملكة الإيثار والتضحية فى سبيل الحب.. لكى تنتصر على الأنانية التى فى الرجل.. فتمتلك قلبه... ثم

الطفل فيجتذب العاطفة والحنان والرعاية.. فيقضي على الأنانية والفردية..

كيف تختار الزوجة:

يهتم الإسلام باختيار الزوجة.. فيرشد الرسول الكريم إلى الأوصاف التى تطلبها الفطرة.. ويتمناها المسلم الراشد.. فيفضل الرسول الكريم اختيار ذات الدين.. لما له من أثر فى التوجيه وغرس لخشية الله فى القلب ومعرفة للحدود والواجبات.

الأوصاف التى يجب توافرها:

١- **الجميلة:** لأنها أسكن لنفسه.. وأغض لبصره وأكمل لمودته..

٢- **البكر** : لأنه يكون الأول من حيث التجربة والمشاعر.

٣- **الودود الولود:** لقدرتها على الإنجاب بالإضافة لحنانها وعطفها.

٤- **ذات الدين:** لورعها وتقواها.

ما يجب أن يكون الزوج عليه:

وكما طلب الإسلام أوصافاً فى الزوجة تعين على دوام العشرة وتوفير السعادة كما طلب فى الزوج القدرة والكفاءة.. ومعني القدرة: أن يكون الزوج قادراً على تكاليف الزواج مهيئاً له.. مقدراً تبعاته.. ومعني الكفاءة: الدين والخلق الحسن والتقارب النفسي والفكرى.. فإذا صح عزم الزوجين.. كان كلاهما مكملاً للآخر وعوناً له..

عقـد الـزواج:

يهـتم الإسـلام بعقد الزواج اهتماماً كبيراً.. وينعته القرآن الكريم بالميـثاق الغليظ.. وهو وصف لم يوصف به إلا عقد النبوة بين الأنبياء عليهم السلام وربهم جل جلاله:

" وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسي وعيسي ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظاً". سورة الأحزاب- ٧

ويقـول تعالـي: " وكيف تأخذونه وقد أفضي بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً". سورة النساء – ٢١

وهـو عقـد أبـدى لا يجوز فيه التأقيت.. ولهذا انتهي الإسلام إلى تحـريم زواج المـتعة.. ذلـك لأن الآثار المترتبة عليه آثار خطيرة.. فبالزواج تباح متعة الرجل بالمرأة.. ويترتب عليه حقوق الزوجة وهى الـرعاية الكريمة والنفقة والسكن.. وحقوق للزوج على الزوجة وهى: الطاعـة فـى المعـروف ورعايـة البيت والأولاد.. ويثبت به النسب والتحاق الولد بأبيه.. ويتم على أساسه التوارث.

ولصحة الزواج لابد من توافر أمرين:

١- الـتأكد مـن خلوهما من الموانع الشرعية.. بألا يكون بهما أو بأحدهمـا ما يمنع التزويج من نسب أو سبب كرضاع أو مصاهرة أو اختلاف دين.. ويقاس على هذه.. الموانع الصحية.

٢- أن يؤخـذ رأي المخطوبة.. وتصرح برضاها وقبولها.. ويقوم بذلك وليها وهو الأب أو من يقوم مقامه.

لماذا شرع التعدد..؟

شــرع الإسلام التعدد علاجاً لتفاوت الناس فى قدراتهم وأرزاقهم.. وســبيلا للإحصــان والعفــاف بفــتح باب الحلال وإغلاق باب الزني والمخادنة.. وقد تم تقييده بأمرين:

١- العــدل.

٢- عدم تجاوز الأربعة.

التعدد فى المجتمعات الأخرى:

قــد جاء الإسلام والتعدد أمر قائم فى المجتمعات والأديان السابقة.. فقــد عــدد: إبراهــيم ويعقــوب وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء والمرسلين.. وأباحت التعدد الديانتان: اليهودية والمسيحية.. وبقي تعدد الــزوجات مــباحاً فــى العــالم المســيحي إلى القرن السادس عشر الميلادى.. كما جاء فى تواريخ الزواج بين الأوروبيين.

إن الــتعدد يلبــي رغبة فطرية عند الرجل.. تلجئه إليه حاجته إلى الاســتمتاع بالجــنس الآخر.. الذى تطرأ عليه عادات الدورة الشهرية ومــا يعقب الولادة من الحاجة إلى النقاهة وغير ذلك.. وما دام الهدف هــو الإحصــان والعفاف فى المجتمع المسلم فلا سبيل إليه إلا بالتعدد بشروطه.

ثم إن الإسلام يشرع لجميع المجتمعات والبيئات.. ولابد أن يراعي حاجــة العامل الذى يرغب في وجود أيدى عاملة معه تعينه فى رعيه أو كدحــه وجهده.. وكذلك حاجة الغني المتيسر الذى يجد عنده الطاقة والقــدرة.. فــإن لم تشبع حاجة العامل والغني فى الحلال.. مضياً إلى الطرق المنحرفة.. وهذا ما لا يرضاه الإسلام ولا يقره.. ولا يجب أن

نهمـــل رعايـــة جانب الفطرة فى كل من الرجل والمرأة بالنسبة للطاقة الجنســـية.. فالمـــرأة تتوقف عند العقد السادس.. بينما الرجل لا يتوقف مـــثلها.. ثم ماذا نفعل إذا حدثت عاديات المرض على المرأة من قعود أو عاهـــة أو عقـــم.. أو مع ما تأتي به الحروب من كثرة عدد النساء وقلة الرجال.

درس وعبرة فى المجتمع الغربي:

إن عدم إباحة التعدد فى المجتمع الغربي إصابة فى نفسيته.. وخلقه بالتحلل والانحلال الجنسي.. حينما أباح الزني تحت شعار التحرر من قـــيود الكنيســـة... وإصابه فى نسله بارتفاع نسبة اللقطاء والمولودين غـــير الشـــرعيين.. إن الذيـــن يصيحون بتقييد التعدد إنما يريدون أن يخـــرجوا مجتمعاتـــنا ويجـــروها إلـــى الفساد الغربي.. ويهدموا نظام الزواج الإسلامي بإباحة الزني.

الطـــلاق:

الطلاق فى الشريعتين اليهودية والمسيحية:

كـــان الطلاق شائعاً قبل الإسلام..فاليهودية تقرر الطلاق.. وتطلب إلـــى الرجل أن يعطي امرأته المطلقة وثيقة بالتسريح.. ولها أن تتزوج بغـــيره بعـــد ذلك.. ولكنها لا تعود إلى الأول إذا طلقت من الثاني أو توفي عنها ذلك الزوج.

أمـــا المســـيحية فتروى الأناجيل على لسان السيد المسيح أنه حرم الطـــلاق.. كمـــا حرم زواج المطلقة وقال: " إن من طلق امرأته لغير الزنـــي جعلهـــا تزني" وقال: " من يتزوج مطلقة فإنه يزني". ويبدو أن هـــذا كـــان علاجاً مؤقتاً للحرية التى مارسها اليهود فى أمر الطلاق..

وتختلف مواقف المذاهب المسيحية من الطلاق.. فالمذهب الكاثوليكي يحرم الطلاق تحريماً باتاً.. ولا يبيح إلغاء الزواج لأى سبب مهما عظم شأنه.. وحتى الخيانة الزوجية لا تعد مبرراً للطلاق.. وكل ما يبيحه فى حالة الخيانة الزوجية هو التفرقة الجسمية.. وحجة المذهب فى ذلك هو: ما جاء فى انجيل متي: " لا يصح أن يفرق الإنسان ما جمعه الله"...

والمذهب الأرثوذكسي لا يبيح الطلاق إلا فى حالة الخيانة الزوجية من الزوج أو الزوجة.. ويحرم على المطلق والمطلقة الزواج بعد ذلك.

والمذهب البروتستانتي.. يبيح الطلاق فى حالات محدودة أهمها: الخيانة الزوجية.. ولكنه يحرم على الرجل والمرأة كليهما أن يتزوجا بعد ذلك.

تعنت يصادم قانون الفطرة:

ونتيجة لهذا التعنت الذى ارتكبته المذاهب المسيحية إزاء الطلاق.. انطلق المجتمع يبحث عن حلول لها.. فوجدها فى محاولة التوفيق بين الدين المسيحي والتشريع الوضعي تارة.. والخروج عليه تارة أخرى بإباحة الطلاق عن طريق قانون خاص.. وهكذا أحدث التزمت آثاره كما أحدثت النظرة الشاذة إلى الجنس آثارها فى ممارسة الإباحية التى نشهدها اليوم.. لقد رفضت الكنيسة زواج ملك إنجلترا كما هو معروف من مسز سمبسون المطلقة.. واضطر للتنازل عن ملكه ليتزوج المطلقة.. واضطر آخر وهو كابتن تأرنسند ومارجريت أخت ملكة بريطانيا أن يتفاديا خطيئة الزنا.. باستمرارهما فى العلاقة غير الشرعية.. فهما زانيان لو تزوجا.. لأن تار نسند طلق زوجته.

الطلاق فى الجاهلية:

والطــلاق فـــى الجاهلية كان سهلاً كعقد الزواج أو أكثر سهولة.. وكـــان بيد الرجل يوقعه متي شاء من غير سبب موجب لذلك. وكانت المرأة إذا كانت ذات مال كثيراً أو جمال رائع أو شرف نبيل.. تشترط أحـــيانا أن يكون لها حق الطلاق متى شاءت هى على أن ذلك لم يكن يحميها من تطليق زوجها متى شاء هو.

الضرر الذى يصيب المرأة فى الجاهلية من ممارسة الرجل حرية الطلاق:

١- امساكها إضراراً بها.

٢- تعليقها بجعلها على ذمته مع حرمانها من حقوقها الزوجية.

٣- الحلف بعدم الاقتراب منها وهو ما يسمي بالإيلاء.

٤- الظهـــار.. بـــالحلف علـــيها بـــتحريمها على نفسه كأنها إحدى محارمه.

الطلاق فى الشريعة الإسلامية:

جـــاء الإســـلام فســـلك بالناس مسلكاً وسطاً.. جنبهم الشطط والتزمت اللذيـــن وقعـــت فـــيهما المســـيحية والإسراف والإجحاف اللذين صنعهما العـــرب فـــى الجاهلية.. فأقام أولاً: العلاقة الزوجية على حرية الاختيار والرضـــا من كل من الزوجين.. وأحاطها بكل رعاية ممكنة.. وعالج ما يطـــرأ علـــى هذه العلاقة من شوائب أو منغصات.. بكل طريق وسبيل.. فـــإذا جاء الطلاق بعد ذلك فإنما هى الضرورة التى لا هروب منها.. ومع ذلـــك لـــم يـــتركه دون ضوابط.. بل اتاح فيه فرصة العلاج ووضعه فى صـــورة نفســـية وتـــربوية رائعـــة.. استعمل فيه وازع الإيمان ومحاسن الأخلاق.. مع التحديد القانوني والتشريعي له.. صيانة لهذه العلاقة.

متى يجوز الطلاق وكيف يقع:

جعـــل الإسلام حق الطلاق للرجل.. وهذا ما تقتضيه الفطرة.. وما توجبه طبائع الأشياء.. فالرجل هو الذى يسعي للزواج ويعقده ويتحمل تــبعاته.. وهـــو ربـــان سفينة الأسرة ومسير أمورها.. فإذا تعرضت العلاقـــة بينه وبين زوجته للخلاف والنزاع وغدت شقاقاً يصعب حله.. كـــان العلاج الأمثل الفرقة والفصال.. وكان عليه أن يتخذ القرار.. إذ أن للقـــراره ثمـــن ســـيدفعه.. فسيهدم عشه- بيته- الذى جهد فى بنائه وســـيتحمل نفقات أولاده.. وسيرد باقي صداق الزوجة مع تحمل نفقات العـــدة.. كل ذلك يجعله جديرا.. بأن يفكر ويقدر الأمر حق قدره.. ثم إن الـــرجل بطبيعة تكوينه أقل انفعالاً وإنسياقاً مع غضبه وعاطفته من المـــرأة.. ومـــع أن الإسلام قرر له هذا الحق وجعله في يده.. إلا أنه وضـــع له من القيود ذو الضوابط ما يمنعه من إساءة استعماله.. وهذه القـــيود والضوابط منها ما يعود إلى الزوج.. ومنها ما يعود إلى الحالة التى تكون عليها الزوجة.

فبالنســـبة إلـــى الزوج لابد أن يكون فى حالة يملك إرادته ويسيطر علي تفكيره.. بأن يكون: عاقلاً مختاراً.. وهذا ما يقتضيه معني العزم فـــى قولـــه تعالـــي: **" وإن عـــزموا الطـــلاق فإن الله سميع عليم".** سورة البقرة- ٢٢٧

أمـــا الحالة التى تكون عليها الزوجة.. فينبغي أن تكون طاهرة.. لم يقـــربها زوجها حتى تدخل فى العدة ولا تطول عليها.. **لقوله تعالي:" يـــا أيهـــا النبـــي إذا طلقـــتم النســـاء فطلقوهـــن لعدتهـــن".** سورة الطلاق- ١-٦

الطلاق الرجعي- فرص متاحة للعلاج:

وإذا وقـع الطـلاق.. فقـد منح الزوج فرصتين للمراجعة.. وهيأ الإسـلام الظروف لجمع الشمل ورأب الصدع.. فأمر أن تبقي المطلقة فـي بيـت الزوج طيلة فترة العدة.. استبراء للرحم من جهة.. وطريقاً لأن تهـدأ النفوس.. ويعود إليها صفاؤها.. فتعود المياه إلى مجاريها.. فيراجع الرجل زوجته اثناء العدة.. وتعود سيرتها الأولى.

المخالعة.. حق أصيل للمرأة:

إذا أحسـت المـرأة عدم قدرتها على الحياة مع زوجها.. وأصبحت له كارهـة.. فلهـا أن تفـتدى نفسها.. بأن ترد ما قدمه لها زوجها وتنفصل عـنه.. وهـذا مـا يسـمي فـى الفقه: الخلع.. وكما أعطاها الإسلام حق المخالعـة.. أعطاها حق التضرر من أى ظلم يلحق بها بسبب تجاوز حدود الطلاق.. وجعل فى يد القضاء سلطة رد المتجاوزين حدود الله وشرعه.

منهج الإسلام فى علاج النشوز:

إذا تطـورت المشـاعر إلـى الكراهية وتجاوزت الطور النفسي إلى إسـاءة العشرة والتمرد والشقاق والعصيان.. فإما أن يكون ذلك من الزوج أو الـزوجة.. وهـذا مـا عبر عنه القرآن الكريم بالنشوز.. فإن كان من جانـب الزوج.. طولبت المرأة بعلاج زوجها.. والبحث عن الأسباب التى جعلـته يسلك هذا المسلك.. ولها من وسائل الترغيب والعطف والحنان ما يمكـنها مـن القضـاء على أسباب جموحه وتمرده.. وفى ذلك **يقول الله تعالـي" وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصـلحا بيـنهما صلحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا".** سورة النساء – ١٢٨

فإذا نجحت فيها.. وإلا وجب التدخل بالإصلاح بينهما.. فلا تستقيم الحـياة على شقاق وخلاف.. وأما إذا كان النشوز من المرأة فقد شرع الله عزو وجل لعلاجها ثلاث مراحل على التوالي:

قـال تعالـي:" **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بمـا حفـظ الله واللاتـي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان عليا كبيراً".** سورة النساء- ٣٤

فقرر سبحانه وتعالي أولا أوصاف الزوجات الصالحات بأنهن قانتات.. يعنـي المطيعات لأزوجهن.. حافظات للغيب.. أى تحفظ زوجها فى غيبته فـى نفسـها وماله.. ثم أعقب ذلك بعلاج الناشزات.. أى المسيئات للعشرة الطيبة.. فأرشد إلى العظة والهجر فى المضجع.. والضرب.

١- العظـة:

وقـد كـان تعبير القرآن دقيقاً ورقيقاً.. حين لفت نظر الأزواج إلى أنـه ينبغـي إذا شعروا ببداية النشوز أن يسارعوا إلى علاج الداء قبل اسـتفحاله.. فيبدؤوا بالكلمة الجانية وهذا ما تقتضيه العظة.. إذ العظة هى القول المؤثر فى الوجدان والمشاعر.

٢- الهجـر فى المضجع: وهذا أمر قاس على النساء.. فإن أهم شـئ تدلل به على جمالها وأنوثتها هو إقبال زوجها .. فإذا وجدت منه إعراضاً.. رجعت لنفسها.. وربما ترجع عن عصيانها.

٣- الضـرب غـير المـبرح: سـمح الإسلام بقليل من الإيذاء البدنـي.. لعلـه يرد هذه المتمردة إلى رشدها ورعاية بيتها وزوجها..

وقــد حــدد: بــأن يكون غير مبرح وغير مهين.. لا يكسر عظماً ولا ينشــز لحماً.. وأن يتقي فيه الوجه والمواضع المخوفة.. لأن المقصود التأديــب لا الإتــلاف ويجــب أن يكــون من النوع الذى هدد به عليه الصلاة والسلام خادمته حين قال:" لولا القصاص يوم القيامة لأوجعتك بهــذا الســواك". ويفضل الضرب الخفيف على المؤخرة - والسواك قطعة خشبية صغيرة مثل القلم الرصاص... ينظف به الأسنان-

الفصــــل الثانــى



جاءتني أمس دعوة لحضور لقاء ثقافي فى أحد قاعات مكتبة الإسكندرية.. واليوم تلقيت اتصال تليفوني من صديقي مسيو: شارل سايمون.. يخبرنى بأنه مدعو إلى مكتبة الإسكندرية لحضور نفس اللقاء الذى دعيت إليه.. واتفقنا على اللقاء.

حرصت على الخروج قبل الميعاد بساعة.. فقد قررت الذهاب بدون سيارة.. فالسير فى هذا الوقت من السنة شديد الأمتاع.. ففصل الخريف شارف على الانتهاء..

دخلت القاعة.. بحثت بعيني.. وجدته جالساً فى الصف الأول.. ما أن لمحني حتى أشار إليّ.. توجهت إليه.. وكعادته سحرني بابتسامته الأخاذة.. وأخبرني: أنه متشوق لهذا اللقاء..

جلسنا ننصت باهتمام إلى المتحدثين.. وفى فترة الاستراحة التى تسبق الجزء الأخير من اللقاء الثقافي.. ذهبنا لتناول القهوة.. واخترنا مقعدين وثيرين.. نظر إليّ نظرة متسائلة عما أحمله فى يدى.. فقلت مبتسماً:

- هذا بحث...

قاطعني:

- ما موضوعه...؟

قلت:

- الإسلام أول من وضع أسس الدولة المدنية بمعناها المعاصر.

تردد صدى صوت جرس يعلن بدأ الجزء الأخير من اللقاء الثقافي.. وقفت ناظراً المسيو: شارل.. ولكنه لم يقف.

فقلت له:

- ألن تحضر

قال وابتسامته الساحرة الأخاذة تقتحمني:

- لا .. سأقرأ البحث.. وسوف انتظرك هنا.

تركـــته .. وقبل أن أخرج.. نظرت إليه.. وجدته قد أخرج نظارته وراح يقرأ... ...

وإلـــيك عزيزى القارئ مادة البحث الذى أثر مسيو: شارل سايمون قرأته على حضور الجزء الأخير من اللقاء الثقافي... ....

الإسلام دين عبقرى.. فهو شريعة ونظام سياسي واجتماعي.. يكفل للبشـــر الخـــير والسعادة جميعاً أفراداً وجماعات.. ومن عبقريته أنه لم يـــتغافل عـــن الغرائـــز البشرية.. فيتغاضى عن آثارها.. أو يفترض محوهـــا.. بـــل عرفها وعرف آثارها.. فسن لها من الوسائل ما يكفل تهذيبها.. والتسامي بها.. ودرء أضرارها.

عقيدة التوحيد وليدة الفطرة التى فطر الله الناس عليها..

قـــال تعالي: " فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم. سورة الروم- ٣٠

والله ســـبحانه وتعالـــي كان ينزل من الأحكام والشرائع على لسان الرســـل بقدر وبحسب حاجة من أرسل إليهم هؤلاء الرسل من طوائف البشـــرية.. وكـــل الأديان التى سبقت الإسلام لم تكن عامة.. بل كانت مخصصـــة بالمكـــان وبـــالقوم الذيـــن نزلت عليهم.. كقوم هود ولوط ويونـــس الـــذى أرســـل إلى مائة ألف أو يزيدون.. وشاركت كلها فى الدعـــوة إلـــى الوحدانـــية كأســـاس لكل عبادة.. ثم إلى قواعد أخلاقية

وإصلاحية لمعالجة عيوب القوم الذين خصتهم بالخطاب.. إلى أن كان القرن السابع الميلادى.. حيث بلغت البشرية مبلغاً من التقدم والرقي وحسن الإدراك.. أهلها لتلقي خاتم الرسالات السماوية.. فكانت رسالة محمد بن عبد الله جامعة لخيرى الدين والدنيا.. موجهة إلى جميع العوالم.. قال تعالي: " **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون".**

سورة سبأ– ٢٨

والمسيحية على ما ورد فى كتابها المنزل وهو الانجيل.. لم تتضمن تشريع أمور الدنيا.. ولا تنظيم المعاملات والعقود والعهود بين الأفراد والدول.. ولا تعداد ما فى الكون من آيات طبيعية وعلمية.. والمسيحية وإن كانت قد وحدت بين دول أوربا فى العصور الوسطي.. وقربت بينها وحسنت علاقاتها.. مما دعا إلى التعاطف إلا أنها انتهت بطغيان سلطان الكنيسة على سيادة الدول.. والمفروض أن يكون روحياً فحسب.. الأمر الذى اضطر شعوب هذه الدول إلى القول بفصل أمور الدنيا عن أمور الدين.

أما فى الإسلام.. فالأمر على عكس ذلك.. فهو نظام متكامل.. لا يمكن فصل قواعده بعضها عن البعض.. فهو دين ودنيا ولا يصح فى حق الإيمان الأخذ ببعض الكتاب– القرآن– دون البعض.

إذن فقد أتي الإسلام بنظام كامل لما يجب أن تكون عليه الدولة المدنية فى حالتي السلم والحرب.. ولكن القرآن الكريم على نهجه فيما يختص بأمور الدنيا يكتفي بذكر الأصول العامة.. ثم يدع التفاصيل لاجتهاد العقل البشرى.. احتراماً لهذه المنحة الإلهية.. ومسايرة لظروف الزمان والمكان.. وما تقتضيه من خلاف فى الفروع.

كيفية تكوين الحكومة فى الإسلام:

١- اختيار الحاكم:

الإنسان مدني بطبعه.. أو هو حيوان اجتماعي كما عبر أرسطو.. فليس من المستطاع أن ن إنسان بمفرده.. منقطعاً تمام الانقطاع عن بني جنسه.. بل لابد من أن يعيش بين جماعة كبيرة أو صغيرة.

وهذه الحياة الاجتماعية من شأنها أن توجد بين الأفراد تنازعاً على المنافع.. واختلافاً فى الآراء التى تكفل الخير للجماعة.. أو تدفع الضر عنها.. وإذن فلابد للجماعة من إشراف يدير شئونها وينظم أمورها.. وتتمثل فيه سلطتها العامة.

وقد كان العرب يحيون قبل الإسلام حياة قبلية فى وسط الجزيرة.. فكان الرئيس شيخ القبيلة.. فلما أنعم الله عليهم بالإسلام والوحدة كان الرئيس هو النبي صلى الله عليه وسلم.. ثم الخلفاء من بعده.. وكان العرب فى اليمن والحيرة والشام.. وكان غيرهم من الأمم القديمة كالفرس والروم والفراعنة يجرون على نظام ملكي متوارث.. فليس للشعوب صوت فى اختيار الحكام.. وليس من حقها التبرم بظلمهم وانحرافهم عن الصالح العام.

أما الإسلام فقد أوجب على المسلمين أن يختاروا الحاكم اختياراً تراعي فيه مصلحتهم ومصلحة الإسلام.. وإنما يتحقق ذلك بأن تتوفر فى الحاكم صفات ومميزات تؤهله لسياسة الشعب.. وتدبير شئونه على خير الوجوه.

ولا شك أن مؤهلات الحاكم تختلف باختلاف العصور.. فلكل عصر حاجاته ومقتضياته..فإذا ما اختار الشعب حاكمه.. كان هذا

الاختيار هو البيعة.. وهي فى رأى ابن حزم من قبيل التعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وهي عقد بين الحاكم والمحكوم.. عقد موثوق بالإيمان يلقي على كل منهما واجبات ويكفل له حقوقاً.

٢- واجبات الحاكم:

الحاكم رئيس اختاره الشعب ليخدم مصالحه وليدبر أموره.. فهو نائب الشعب فى رعاية الصالح العام.. وليس مسلطاً على الشعب ليحقق أغراضه الخاصة.. والأصل فى الحكم أنه تكليف لا تشريف.. وإن شئت فقل إنه تشريف بالتكليف.. وليس الحاكم فى نظر الإسلام معصوماً من الخطأ.. ولا مسلطاً من حقه الاستئثار بالحكم.. لأن الدين لا يخصه بمزية فى الفهم والعلم بالأحكام والدراية بالقانون.. بل هو وطلاب الفهم سواء.

لهذا كان واجباً على الحاكم أن يحقق لشعبه ما يأتي:

أ- العدالة والتسوية بين الرعية:

الإسلام دين العدل والمساواة... **قال تعالي" إن أكرمكم عند الله اتقاكم"** . سورة الحجرات - ١٣

وقال صلى الله عليه وسلم: " الناس سواسية كأسنان المشط الواحد.. لا فضل لأحمر على أسود، ولا لعربي على عجمي".

وإذا ما أنس الشعب من حاكمه أنه يعدل بين الناس جميعاً.. فلا يؤثر غنياً على فقير.. ولا قريباً على غريب.. ولا صديقه على خصمه.. اطمأنت نفسه.. وأيقن كل فرد أنه لابد أن ينال حقه- فلا تجد فى الأمة ساخطاً.. لأنه حرم حقه.. أو لأنه ظلم لفقره أو ضعفه أو بعده عن ذوى السلطان.

وقـــد أمـــر الله تعالـــي بالعدل فى قوله: " **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**". سورة النساء - ٥٨

وحذر من أن يخضع الحاكم لهواه فيظلم من يبغضه..

قال تعالي: " **ولا يجرمنكم شنأن قوم على ألا تعدلوا.. اعدلوا هو أقرب للتقوى**". سورة المائدة- ٨

وحـــث النبـــي مراراً على العدل فى الحكم.. كقوله صلى الله عليه وســـلم: " أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه فجار فى حكمه".

وقـــال : كلكم راع ومسئول عن رعيته... الأمير راع على رعيته، وهـــو مســـئول عنهم، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، والمرأة راعية علي بيت زوجها، وهى مسئولة عنه".

وكـــان النبي والخلفاء الراشدون مثلاً عاليه فى رعاية العدالة.. فقد كـــانوا يقسطون- يعدلون- فى معاملة الناس حتى منع أنفسهم.. حدث أن تقاضي رجل دينه من الرسول فأغلظ عليه.. فهم عمر بن الخطاب أن يضـــرب الـــرجل لغلظـــته على الرسول.. فقال له صلى الله عليه وسلم: " مه يا عمر، وكنت أحوج إلى أن تأمرني بالوفاء، وكان أحوج أن تأمره بالصبر".

وخـــرج فـــى مرضـــه الأخير بين الفضل بن عباس وعلى بن أبي طالـــب.. حـــتى أجلـــس على المنبر.. ثم قال:" يا أيها الناس من كنت جلـــدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقدمنه، ومن كنت شتمت له عرضاً

فهـذا عرضـي فليستقدمنه، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخشي الشحناء من قبلي، فإنها ليست من شأني. ألا وأن أحبكم إلى من أخذ منى حقاً إن كان له، أو حللنى فلقيت ربي وأنا طيب النفس".

وكـان صلى الله عليه وسلم يكره أن يمتاز من الناس.. من ذلك أنه كـان يطـوف بالبيـت.. فقال: اسقوني.. فقالوا أن هذا الماء يخوضه الناس.. ولكننا نأتيك بماء من البيت.. فقال: لا حاجة لي فيه.. اسقوني مما شرب منه الناس.

وكـان يقول لأهل بيته: " يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أغني عـنكم مـن الله شـيئاً، يابن عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عـباس ابـن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسـول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً".

ثـم جـاء مـن بعده أبو بكر فسار على نهجه.. وأعلن للناس فى صـراحة وجلاء فى أول خطبة خطبها بعد بيعته أنه يدين بالمساواة.. وأنـه لا يمـيز نفسـه من أحد.. **قال " يا أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني، وأن أسأت فقوموني".**

أمـا عمر بن الخطاب فقد ذاع فى العالم كله صبته فى العدل حتى صار مضرب المثل عند كثير من المسلمين وغير المسلمين.. فكان لا يميز أحداً من الشعب على أحد.. مهما اتسع بينهما الفارق الاجتماعي.

فقـد شـكا إليه مصرى من الشعب أن فرسه سبقت فرس محمد بن عمـرو ابـن العاص وإلى مصـر.. فاغتاظ فضربه بالسوط.. وقال له: خذهـا وأنـا ابـن الاكرميـن.. ولما علم عمرو بذلك خشي أن يشكو المصـرى إلـى عمر فحبسه زمناً.. ثم أفلت من حبسه.. وشخص إلى

الخليفة ليشكو.. فاستدعى عمر عمراً وابنه من مصر.. وأمر المصرى أن يضرب ابن عمرو.. فضربه حتى أدماه.. وأنب عمراً لأن ابنه لم يفعل ما فعل إلا اعتماداً على سلطة أبيه.. وقال له كلمته الذائعة العظيمة : " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"؟

وأعطي عمر الناس الحق فى أن يأخذوا حقوقهم منه.. وكان إذا أمر بشئ أو نهي عنه.. جمع أهله وقال لهم: إنى نهيت عن كذا وكذا.. وأن الناس ينظرون إليكم.. وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا ضاعفت عليه العقوبة.

وهذه النزعة العادلة التى يلتزمها الحاكم العام تصير ينبوعاً.. تسرى منه العدالة إلى ولاته وقضائه وموظفيه.. فيحيا الناس فى الديمقراطية الصحيحة قولاً وفعلاً.. لا فى ديمقراطية خادعة.. للشعب منها اسمها لا رسمها.

هذه الديمقراطية الإسلامية هى التى جعلت الشعب يحاسب الخلفاء والحكام.. وهى التى مكنت للقضاة أن يسووا بين الخليفة وفرد من رعيته.. فقد اختصم الخليفة المأمون مع رجل من العامة إلى قاضي بغداد يحي بن اكثم.. فدخل المأمون إلى مجلس يحي.. وخلفه خادم يحمل بساط ليجلس عليها الخليفة المأمون.. فلم يرض القاضي أن يخص الخليفة بجلسة لا يجلس مثلها خصمه.. وقال يا أمير المؤمنين لا تأخذ على صاحبك شرف المجلس دونه.. فدعا المأمون للرجل بساط أخرى.. أرأيت كيف أطاع المأمون القاضي.. وقبل أن يساويه خصمه فى المجلس؟

ولقد أنصف المأمون نفسه امرأة من الشعب على ابنه.. ذلك بأن امرأة شكت إليه ابنة العباس.. فأمره أن يجلس معها مجلس الخصوم

فجعلـت تتكلم بصوت يعلو صوت العباس.. فقال لها أحمد بن خالد: يا أمـة الله... إنـك بيـن يـدى أمير المؤمنين.. وأنك تكلمين الأمير.. اخفضـي صـوتك.. فقـال المأمون: دعها يا أحمد.. فإن الحق أنطقها وأخرسـه.. ثـم قضـي لها برد ضيعتها.. وعاقب العباس على ظلمه لهـا.. وأمـر لها بنفقة.. وكتب إلى عامله ببلدها أن يعفي ضيعتها من الخراج.. ويحسن معاملتها.

هذه العدالة هى التى يعيش الحاكم فى ظلالها آمناً على نفسه وعلى سمعته.. وعلى تعلق الشعب به.. وحبه له.

وحسـبك أن تعلم أن بعض المسلمين جاءوا بالهرمزان إلى عمر.. يسـألون عنه فيقال: مر من هنا... فيصغر فى قلب الهرمزان.. إذ رآه فـرداً من الرعية.. حتى انتهي إليه وهو نائم فى ناحية المسجد.. فقال الهرمـزان" هـذا والله الملـك الهنيء.. عدلت فأمنت" لأنه وجده غير محتاج إلى حراس.. وغير معتز بالمظاهر كما يفعل الفرس.

ب- رعاية مصالح الشعب:

يجب على الحاكم أن يتوخى مصالح الشعب قدر ما يستطيع.. فينفذ القـانون.. ويكفـل للـناس الأمن على حياتهم وأموالهم وأعراضهم.. ويقـوى الشعب مادياً ونفسياً وعقلياً.. فيعد الجيش أحسن إعداد للدفاع عـن الوطـن.. وينشـر العلم بين الناس.. وينشئ المستشفيات لعلاج المرضـى.. ويشـق الـترع لإرواء الأرض.. ويدبر الوسائل لترويج الـتجارة وإنهـاض الصـناعة والـزراعة.. ويحافظ على الأمن العام و....و....

وعليه أن يفسح للناس مجال العمل.

فإذا عجز فرد عن العمل لشيوخة أو عاهة فعلى الدولة أن تعوله.. وقد فرض عمر بن الخطاب للمولود مائة درهم.. فإذا ترعرع زاده إلى مائتين.. فإذا بلغ زاده.. وكان يفرض للقيط مائة ولكافله مرتباً شهرياً يعينه به.. وجعل نفقة إرضاعه من بيت المال.. فإذا كبر سواه بغيره من الأطفال.. وكذلك جعل للعاجزين عن الكسب من اليهود والنصارى مقداراً من بيت المال.

ج- الدقة فى اختيار الوزراء والموظفين:

على الحاكم أن يحسن اختيار وزرائه وأعوانه وموظفيه.. لأنهم نواب عنه فى الحكم.. فيجب أن يكونوا من ذوى الدراية والأمانة والإخلاص فى العمل والغيرة على مصالح الشعب.. ولا سبيل إلى ذلك إلا بتوخى العدالة والكفاية والمصلحة العامة فى اختيارهم وفى ترقيتهم.. ومكافأة المجدين الممتازين منهم.

أما الاعتماد على الوساطة والقرابة والرشوة وغيرها من الوسائل الذميمة فى تعيين الموظفين وترقيتهم.. فإنه أس البلاء.. ومكمن الداء.. لأنه يزعزع الثقة بالحكومة.. ويذهب بجلال العدالة.. فيسرى الظلم من طبقة إلى ما دونها.. وينشأ عن ذلك أن توكل الأمور إلى من لا يحسنونها.. وأن تحرم الدولة جهود بينها الإكفاء.

كذلك من الخطأ أن يتخذ وزراء أو بطانته من المتملقين الخونة.. الذين يتخذون الزلفي إليه وسيلة للجاه والسيطرة وجمع المال.. لأنهم يزينون له الباطل.. ويخفون عليه الحقائق.. يمتدحون أقواله وأفعاله.. وأن كانت خاطئة فاسدة.. خوفاً على مكانتهم وعلى منافعهم.. فتكون العاقبة سوء الحكم.. وسخط الشعب.. وبغضه للحاكم.

لذلـــك قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من ولى منكم عملاً فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً.. إن نسي ذكره وأن ذكر أعانه".

ولقــد كـــان رســـول الله صــــلى الله علـــيه وسلم يتخير عماله من المتدينيـــن الكفـــاة لإحسان العمل.. وكذلك فعل أبو بكر وعمر.. وكان عمـــر إذا استعمل عاملاً أوصاه بتقوى الله.. وإصلاح الرعية.. وكتب علـــيه كـــتاباً.. وأشهد عليه جماعة من المسلمين ألا يظلم.. وألا يغلق بابه دون حاجات الناس.

وعلـــيه أن يراقبهم فى أعمالهم.. ويستمع إلى الشكوى منهم حتى لا يســـتبدوا بالـــناس ولا يغتروا بالسلطة.. فرسول الله كان يتتبع عماله.. ويســـمع الأخـــبار عنهم.. وقد عزل العلاء بن الحضرمي عامله على البحريـــن.. لأن وفـــد عبد القيس شكوه .. وولى بدله أبان بن سعيد.. وقال له: استوصي بعبد القيس خيراً.. وأكرم أهله.

وكان عمر شديداً على ولاته.. يخشي أن يستبدوا بالناس فيذلوهم.. ويعودوهـــم الجبـــن.. لذلك كان يبين للولاة أنه ولاهم ليصلحوا أحوال الـــناس.. لا ليضـــربوهم ويظلموهـــم.. قـــال لبعض عماله: " إني لم اســـتعملكم علـــى أمـــة محمـــد.. على إشعارهم ولا على ابشارهم – الجلـــود– وإنمـــا استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة.. وتقضوا بينهم بـــالحق.. وتقســـموا بينهم بالعدل.. لا تجلدوا المسلمين فتذلوهم.. ولا تضيعوا حقوقهم فتفتنوهم.

وكان يصارح الشعب بمثل هذا.. ليكون على بينة من حقوقه.. قال فـــى إحـــدى خطبه : " يا أيها الناس.. إني والله ما أرسل إليكم عمالاً ليضـــربوا ابشـــاركم– جلودكم– ولا ليأخذوا أعشاركم– عشر ما تغله

الأرض- ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنتكم.. فمن فعل به شئ سوى ذلك.. فليرفعه إلى.. فو الذى نفس عمر بيده لأقصنه منه".

وقد جعل الحج موسماً لمراجعة عماله ومحاسبتهم.. وتعرف آراء الشعب فيهم.. إذ كان يفد إليه الولاة من أقصي الدولة ليعرضوا شئون ولاياتهم.. ويفد إليه الشاكون لعرض شكاياتهم.. ويقدم إليه المراقبون الذى كان يثبهم فى الولايات لمراقبة الحكام والولاة.. ليبلغوه أحوالهم.. فكان الولاة يتوخون العدل وحسن السياسة.. لأنهم يعلمون أن الخليفة سيعلم بانحرافهم إذا انحرفوا.

ج- كرم الأخلاق:

الحاكم أمام الناس قدوة.. يحاكونه فى أخلاقه وأعماله وزيه وعاداته.. وسائر أحواله ما استطاعوا إلى محاكاته سبيلاً.. فيجب عليه أن يكون القدوة الصالحة لهم.. والمثل الطيب فى التدين وفى الخضوع لأوامر الدين.. والاعتزاز بالشريعة.. والتحلى بمكارم الأخلاق.. ليقتدى به الشعب.. فتسمو أخلاقه.. وتشيع فيه الفضيلة والخير.. وليعجب به ويخلص له ويحبه.

والحكمة التى تقول" الناس على دين ملوكهم " تلفت إلى أثر الحاكم الصالح فى القدوة.. لأن الشعب يحاكى حكامه تارة عن شعور.. وتارة عن غير شعور.

وقد كان الخلفاء الراشدون خير قدوة للشعب.. وكانوا حراصاً على تنبيه الناس إلى تقويمهم إذا اعوجوا.. لذلك أوصى أبو بكر عمر بن الخطاب حينما عهد إليه بالخلافة بقوله:" أعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله" وقال فى خطبته التى خطبها بعد البيعة: " إن

أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني.. أطيعوني ما أطعت الله فيكم.. فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم".

وقال عمر فى خطبته بعد توليته: " من رأى فى اعوجاجاً فليقومه".

فقال له اعرابي:" والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا"

فسر عمر.. وقال الحمد الله الذى جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر.

وكان عثمان يقول:" إن وجدتم فى كتاب الله أن تضعوا رجلى فى القيد فضعوا رجلى فى القيد".

وقال على فى أول خطبة بعد الخلافة: " إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم.. ألا أنه ليس لى أمر دونكم.

د- الحرص على أموال الدولة:

الحاكم راع لشعبه.. حفيظ على ماله.. مشرف على شئون الإدارة والسياسة والقضاء.. فيجب أن يكون عفيف اليد.. طاهر النفس.. أميناً.. حريصاً أشد الحرص على مال الأمة وعلى حقوقها.

فعليه أن يحافظ على مال الدولة.. لأنه أمانة فى يده لا يستبيح منه مالا حق له فيه.. ولا يبيح لأحد أن يتوسل بنفوذه إلى الاستغلال والاستئثار بالمنافع والتسلط على الناس.. فقد كان عمر بن الخطاب شديد الخوف من سؤال الله له عن مال المسلمين يوم القيامة.. وكان يقول: لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة لظننت أن الله سائلي عنها يوم القيامة.

ورآه على بن أبي طالب على ظهر بعير يعدو.. فقال له: يا أمير المؤمنين أين تذهب؟ فقال: بعير هرب من أبل الصدقة أطلبه.. ولما

سئل عما يحل له من مال المسلمين نظير انقطاعه للخلافة.. قال: يحل لــى حلتان.. حلة فى الشتاء وحلة فى الصيف.. وما أحج عليه واعتمر مــن الــركوبة.. وقوتــي وقوت أهلى كقوت رجل من المسلمين ليس بأغناهم ولا بأفقرهم .. ثم أنا بعد رجل من المسلمين.

وفى عام المجاعة ضرب للشعب أعظم مثل فى تعاطف الحاكم مع شــعبه ومشــاركته فــى ألمه.. إذ اشتد الأذى بالمسلمين فى الحجاز.. ونــدرت أقواتهم.. ورأى عمر ما أصابهم من الجهد.. فأكر على نفسه ألا يــذوف ســمناً ولا لحمــاً حتى يذوق الناس... وصبر على خشونة العيش حتى أسود جلده من أكل الزيت.

ثــم خفت المجاعة.. ووفدت المطاعم على أسواق المدينة.. فاشترى غــلام عمــر إنــاء سمن صغير.. ولبن بأربعين درهماً.. ومضي إلى عمــر مبتهجاً.. ليبشره أن الله قد أحله من يمينه.. لكن عمر لما عرف الثمــن قال له: ليس كل مسلم بقادر على أن يشترى سمناً ولبناً بأربعين درهمــا.. إنى أكره أن آكل إسرافاً.. أو أذوق طعاماً ليس فى بيت كل مســلم.. أذهب فتصدق بما اشتريت.. كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسني ما يمسهم.؟

يــا للعظمــة.. لقــد كان عمر يستطيع أن ينفق ما لا ينفق الناس.. ويعــيش فــى سعة والناس فى ضنك.. وكان يستطيع أن ينتحل الأعذار لنفســه.. بأنه ينفق من ماله.. فلا لوم عليه.. أو بأنه مجهد فى تصريف شــئون الدولة.. فلا غني له عن طعام يقويه ويعينه.. ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك.. بل عاش يحس ما يحسه شعبه.. ويقاسي ما يقاسيه الناس.

وفــى مرة أرسل إليه عامله على أذربيجان سفطين من التمر.. فلما ذاقــه وجــده حلــواً.. فقــال لحامله: أكل المسلمين يشبع من هذا فى

رحلـــه؟.. قـــال: لا.. إذن فارددهما.. ثم كتب إلى عامله: أما بعد فأنه ليس من كد أبيك.. ولا من كد أمك.. أشبع المسلمين مما تشبع منه فى رحلك.

ورأى ابـــل ابـــنه قد سمنت.. فأخذ منه نصف أرباحها وضمه إلى بيت المال.. لأنه خاف أن يكون قد أرعاها فى خير المراعي.. وتخلى عـــنها الـــناس له.. لأنـــه ابن الخليفة.. وهذا على بن أبى طالب يؤنب خازنـــة على بيت المال.. لأنه أعار بنت على عقد لؤلؤ من بيت المال لتتزيـــن به فى يوم العيد وترده بعد ثلاثة أيام.. ويقول له: كيف أعرتها العقـــد بغير أذني ورضاى؟ إياك أن تعود لمثل هذا فتنال عقوبتي.. ثم يصل الخبر إلى بنته فتقول له: أنا بنتك وبصعة منك.. فمن أحق بلبسه منـــي؟ فـــيرد علـــيها بقولـــه : لا تذهبي بنفسك عن الحق.. أكل بنات المهاجرين والأنصار يتزين فى مثل هذا العيد بمثل هذا العقد..؟

وعلـــى الحاكم أن يحاسب وزراءه وموظفيه حتى لا يتخذوا الحكم ســـبيلاً إلـــى جمـــع المال من طرق غير مشروعة.. ومن طرق فيها شبهة.

وهكذا كان يفعل الرسول وخلفاؤه..

فقـــد استعمل الرسول رجلاً على الصدقات فلما رجع حاسبه.. فقال الـــرجل هـــذا لكم وهذا أهدى إلى.. فقال النبي: ما بال الرجل نستعمله علـــى العمـــل فـــيقول: هذا لكم وهذا أهدى إلى؟ أفلا قعد فى بيت أبيه وأمـــه فـــنظر أيهدى إليه أم لا...؟ يريد الرسول أن الهدية لم تقدم لهذا الـــرجل إلا لأنـــه عامل من عمال الدولة.. فلو لم يكن عاملاً ما قدمت إلـــيه.. فهـــي إذن حـــق الدولة.. وقال أيضاً: من استعملناه على عمل ورزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو باطل.

وكـــان عمر بن الخطاب يولى الرجل.. فإذا ماغتني بالولاية غني غـــير معقـــول صادر ثروته كلها.. ولم يقبل من بعض عماله دعواهم أنهـــم ربحـــوا مـــن التجارة.. وقال لهم: " إنما بعثناكم ولاة ولم نبعثكم تجاراً".

فمـــثلا علـــم عمـــر أن عامله على مصر عمرو بن العاص كثرت أموالـــه ومـــتاعه وعبـــيده وخـــيله.. ولم تكن له هذه الثروة حين ولاه مصـــر.. فســـأله فى ذلك.. فادعي أن ثروته من التجارة بمصر.. فلم يقتنع عمر بذلك وقاسمه ماله.. وكذلك فعل مع أبي هريرة عامله على البحرين.. ومع عمال آخرين.

ولعمـــر فـــى ذلك أخبار شتي.. منها أنه سمع بعودة أبي سفيان من عـــند ولـــده معاوية وإلى الشام. فوقع فى نفسه أن معاوية قد زود أباه بمـــال.. وجاء أبو سفيان ليسلم على عمر.. فقال له: أعطنا هدية يا أبا ســـفيان.. قال: ما أصبنا شيئاً فنجيزك.. فلجأ عمر إلى حيلة بارعة فى الكشـــف عـــن الحقـــيقة.. ذلك أنه مديده إلى خاتم فى يد أبي سفيان.. فـــأخذه وبعـــثه إلـــى زوجـــته هند.. وأمر الرسول أن يقول لها باسم زوجهـــا: ابعثـــي الخرجيـــن اللذيـــن جئت بهما.. فبعثتهما.. فما لبث الرسول أن عاد بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم.. فطرحها عمر فى بيت المال.

هـــ- الاستشارة وطلب النصح:

الحـــاكم بشر يصيب ويخطئ.. وليس من المستطاع أن يكون رأيه صـــواباً فـــى كل شئ.. لذلك فهو محتاج إلى المشورة وإلى النصيحة الـــتى يتقدم بها الأمناء الأكفاء المخلصون.. فعليه أن يتقبل نصائحهم.. ويرحب لآرائهم.. ويختبرها معهم.. فإذا استبان له صوابها عمل بها.

وعليه أن يستمع إلى ما يوجه إليه من نقد عن أى طريق كالصحافة اليوم مثلاً.. وإذا كانت الشورى أساس الحكم فى الإسلام كان الحاكم مضطراً إلى أن يستشير وإلى أن يشار عليه.. وإلى أن ينصح إذا نصح.. وغني عن البيان أن النظام البرلماني فى الصحيح يكفل للشعب توجيه الحاكم ونقده ومراقبته.. وكذلك الصحافة والرأى العام.

وقد أقام الإسلام الحكم على أنه من الشعب وللشعب.. فجعل الشورى أساسه.. وإذا كان الإسلام لم يحدد طريقة معينة للشورى.. فإنه ترك الطريقة للناس حسب تجاربهم فى حياتهم.. واختبارهم لشئونها..

قال تعالي" وأمرهم شورى بينهم" سورة الشورى- ٣٨

وقال سبحانه وتعالي للرسول: " فأعف عنهم.. واستغفرلهم.. وشاورهم فى الأمر". سورة آل عمران- ١٥٩

وقد نزلت هذه الآية بعد غزوة أحد.. وكان بعض المسلمين قد أشاروا على النبي بالخروج لقتال قريش وحلفائها فى الوقت الذى كان النبي لا يريد أن يخرج فيه بجيشه ليقاتل بعيداً عن المدينة.. بل كان يؤثر أن يقف موقف المدافع.. ولكنه استجاب لمشورتهم.. وخرج للقتال.. فانهزم المسلمون.. ولكن الله سبحانه وتعالي أمر النبي أن يعفو عمن أشاروا عليه بالخروج فلا يقرعهم.. ولا يلغي التبعة عليهم.. وأمره أن يستغفر لهم.. دلالة على أنه قد صفح ورضي... ثم أمره أن ستشيرهم فى المستقبل فلا تبغض إليه الهزيمة التى نشأت عن مشورتهم أن يستشير وأن يشار عليه.

ونلاحـــظ أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أمره الله بأن يستشير مـــع ما اتصف به رجاحة العقل.. وسمو الأخلاق.. وصواب التدبير.. ومع أنه يوحي إليه.

وقـــد صدع الرسول بأمر ربه.. واقتدى به خلفاؤه من بعده.. لأنهم فهمـــوا أن الأمـــر بالشـــورى ليس موجهاً إلى الرسول وحده.. ولأنهم عـــرفوا أن الله تعالـــي رفع من قدر الشورى.. إذ أمر بها نبيهم.. وإذ قرنها بركنين من أركان الإسلام: هما الصلاة والزكاة فى قوله تعالي: " والذيـــن اســـتجابوا لربهم.. واقاموا الصلاة.. وأمرهم شورى بينهم، ومما رزقناهم ينفقون".

وإذن فـــإن الحكـــام أشد حاجة من النبي وخلفائه إلى أن يستشيروا وإلـــى أن يشـــار علـــيهم.. لأن هـــذه الاستشـــارة مظهر من مظاهر الديمقراطـــية الصـــحيحة.. وللحكـــام فى رسول الله أسوة حسنة.. فقد طالما استشار أصحابه واستمع إليهم.

ففـــى غـــزوة بدر قال الحباب بن المنذر للرسول: يا رسول الله أهذا مـــنزل أنزله الله... ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخره.. أم هو الرأى والحرب والمكـــيدة؟ قـــال الرســـول: بـــل هو الرأى والحرب والمكيدة.. قال: يا رســـول الله.. فإن هذا ليس لك بمنزل.. فانهض بالناس حتى تأتي أدنى مـــاء مـــن القـــوم فتنزله.. ونردم الآبار.. ونبني لنا حوضاً نملؤه بالماء فنشرب ولا يشربون.. ففعل رسول الله ما أشار به الحباب.

وفـــى غزوة الخندق أشار عليه سلمان الفارسي أن يبني خندقاً حول المدينة ليدرأ عنها المغيرين.. فاستمع إلى مشورته.

وفـــى عهـــد أبي بكر كثر القتلي من حفظة القرآن الكريم.. فأشار علـــيه عمر بن الخطاب أن يكتب القرآن الكريم مخافة أن يضيع بموت

الحفـــاظ.. فاستجاب له.. وقد حدث عمر بن سوادة قال: صليت الصبح مـــع عمـــر.. ثم انصرف وقمت معه.. فقال: أحاجة؟.. قلت: حاجة.. قـــال: فالحق بى.. فلحقت به.. فلما دخل منزله أذن لي.. فإذا هو على ســـرير لـــيس فوقه شئ.. فقلت: نصيحة.. فقال: مرحبا بالناصح غدواً وعشياً.. وأخذ عمر يناقشه فى بعض أمور.. وفى إحدى خطبه قال: " أعينونـــي علـــى نفســـي بالأمـــر المعـــروف.. والنهي عن المنكر.. واحضارى النصيحة فيما ولاني الله من أمركم".

وكان عمر يستشير فى كل شئون السياسة حتى فى اختيار العمال.. قـــال يوماً لأصحابه: أشيروا على ودلوني على رجل استعمله فى أمر قد دهمني.. فقولوا ما عندكم.. فإني أريد رجلاً إذا كان فى القوم وليس أمـــيرهم كـــان كأنه أميرهم.. وإذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم.. قـــالوا: نرشح لهذه الصفة الربيع بن زياد الحارثي... فنشير على أمير المؤمنيـــن بـــه.. فاســـتدعاه وولاه .. فوفق فى عمله.. وحقق ما أراده عمر منه وأكثر.. فشكر عمر من أشاروا عليه بتوليته.

وتتلخص واجبات الحاكم فى عشر قواعد:

١- المشاورة فى كل ما ليس فيه نص قرآني.

٢- حفـــظ الدين على أموره المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة.. ورد الزائغين والمبتدعين.

٣- تنفيذ الأحكام وإقامة الحدود.. لتصان محارم الله من الانتهاك.. وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

٤- حماية الأمن.

٥- تحصين الثغور وتقوية الجيوش.

٦- جباية الضرائب والزكاة علي ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً من غير جور أو تعسف.

٧- صرف الأرزاق للناس.. وتدبير الأموال لهم.. وحمايتهم من الأمراض والمجاعات.

٨- استخدام الأكفاء وتقبل النصح من الأمناء.

٩- نشر الدعوى الإسلامية وتبليغها.

١٠- أن يباشر بنفسه أمور الناس.. وأن ينهض بسياسة الأمة وألا تشغله لذة أو عبادة عن مصالح الناس.

٣- واجبات الشعب:

الحاكم والمحكوم يدان تتعاونان علي الخير.. ودفع الضر.. فإذا صلح الحاكم وفسد الشعب.. أو صلح الشعب وفسد الحاكم كانت العواقب وخيمة ذميمة.. لذلك لابد لخير الأمة من صلاح الحاكم وصلاح الشعب.. فإذا كان للشعب علي الحاكم حقوق فإن للحاكم علي الشعب حقوقا أيضاً.

أ- الطاعة:

أولى الواجبات التي علي الشعب أن يطبع القوانين والنظم.. ويساعد علي تنفيذها.. تحقيقاً لقوله تعالي: "**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**". سورة النساء- ٥٩.

ولقوله صلي الله عليه وسلم: "من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه ونخيلة صدره.. فليعطه ما استطاع.

ولــيس الغــرض أن يطيع الشعب علي الرهبة وحدها.. لأن الذي يطــيع علي الرهبة وحدها.. يتحين الفرص الخروج علي القانون.. إذا ما اطمأن إلي نجاته من يد القصاص.. وإنما نريد من الشعب، أن يطيع علــي الرغبة أيضاً.. يطيع القانون لأنه مقتنع بما في طاعته من خير وحق.. نريد الشعب أن يحتكم إلي ضميره.. فلا يتحين أحد أية فرصة للإفلات من حدود القانون والتهرب من العقاب وخداع الحكام والتحايل بالخبث والمكر والدهاء.

حينــئذ لا يغــش التاجر لأنه مطمئن إلي اختفاء أمره.. ولا يسرق الســارق لأنــه بمــنجاة من القبض عليه.. ولا يقتل القاتل لأن أحداً لا يــراه.. ولا يختلس الموظف من مال الدولة لأن حيلته لن تنكشف.. بل يطــيع كــل واحــد من هؤلاء القانون بوازع نفسه.. ورغبة في طاعة القانون.. ونفرة من عصيانه.

وعلي الشعب أن يعص الحاكم إذا حاد عن الحق والعدل.. فيخالف أمــره لــيقومه.. لأن الرســول عليه الصلاة والسلام يقول: "لا طاعة لمخلــوق فــي معصــية الخالق" ويقول: "السمع والطاعة علي المرء المســلم فــيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية.. فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة".

فــإذا خــالف الحاكم أصول الحق والعدل والخير.. واتبع شهواته.. وجب علي الشعب خلعه وتولية غيره.. لأن الشعب مصدر السلطات.. وهــو الذي نصب الحاكم.. وهو الذي يثبته أو يقومه أو يخلصه.. قال أبــو بكــر: "أطيعونــي ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم".

وقال علي بن أبي طالب: "قد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي وإمام المسلمين البخيل ولا الجاهل ولا الجافي ولا المرتشي ولا المعطل للسنة.. فيهلك الأمة".

قال ابن حزم: إنه إذا وقع شيء من الجور.. وإن كان قليلاً.. وجب علي المسلمين أن يكلموا الحاكم فيه.. يمنعوه منه.. فإن اقتنع وراجع الحق وأقام الحدود فلا يخلع ولا يحل خلعه.. وإن امتنع عن إقامة الحدود وأصر علي فعله.. وجب خلعه وإقامة غيره ممن يقوم بالحق.. لقوله تعالي:

"**وتعاونوا علي البر والتقوى ولا تعاونوا علي الإثم والعدوان**" ولا يجوز تضييع شيء من واجبات الشريعة.

ب- نصح الحاكم:

وعلي الشعب أن يسدي النصائح للحاكم.. فيبصره بعواقب ظلمه إن كان ظالماً.. لأن الحق أولى بالطاعة من أمر الحاكم.. وسبيل ذلك في العصر الحاضر.. الصحافة ومجلس الشعب والنقابات..

قال عليه الصلاة والسلام: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر" وقال: "إن الله يرضي لكم ثلاثاً: أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً.. وأن يعتصموا بحمل الله جميعاً ولا تفرقوا.. وأن تناصحوا من ولاة الله أمركم." وهو بهذا نسق التوحيد والاتحاد وتوجيه الحاكم في نسق واحد.

ومن النصائح أن يسهم الخبراء بآرائهم في حل المشكلات.. وأن يبدوا اقتراحاتهم لترقية الوطن في كل مرافقه وشئونه.. سواء دعتهم الحكومة إلي هذا أم لم تدعهم.

ج- إيثار الصالح العام:

ليس أضر علي الأمة من انصراف أفرادها إلي تحقيق مآربهم الخاصة ورعاية شئونهم الفردية.. والانصراف عن الصالح العام.. لأن هذه النزعة تفقد الأمة ترابطها وتماسها.. وتميت وجدانها المشترك.. وتقضي علي ضروب الإصلاح وعوامل الرقي والعلاء.

فعلي أفراد الشعب أن يشعروا بأن خير الجماعة خير لهم.. وضررها ضرر عليهم.. بل عليهم أن يؤثروا خيرا الجماعة علي خير أنفسهم.. ويدفعوا عنها الضرر بهمة أعظم من دفع الضرر الذي يسهم.. رأيهم بهذا يحققون للوطن خيراً ينالهم وينال أبناءهم.. ويقونه شراً أن لم يصبهم فإنه يصيب الوطن كله.. ويذوق عواقبه أبناؤهم أو أحفادهم.

وإذا ما أخذ كل فرد نفسه بهذا الواجب.. استطاع الشعب أن يساهم في ترقية شئونه.. واستطاعت كل جماعة أن تنهض بالوطن في نطاقها.. قرية مدينة أو نقابة.. وبهذا لا يكل الشعب إلي الحكومة وحدها كل عمل.. لأنها لا تقدر أن تنهض بكل شيء في كل وقت.

وإن إيثار الصالح العام لراجع إلي الضمائر الحية.. وإلي حب الوطن.. وإلي الخوف من الله تعالي الذي لا تخفي عليه خافية.. أكثر من اعتماده علي القانون ورقابة الحكومة.. بهذا الإيثار لا يتعاون الشعب علي تحقيق الخير العام فقط.. بل أن كل فرد مخلص في عمله.. ويتقنه.. سواء أكان صانعاً أم تاجراً أم زارعاً أم موظفاً في الحكومة أو في هيئة من الهيئات.. فلا صانعاً يغش ولا تاجراً يخفي السلع ليرفع أثمانها.. ولا موظفاً يرتشي أو يهمل أو يعطل مصالح الناس بكسله وتعقيده الأمور.

وبهـــذا الإيثار للصالح العام لا يتبرم أحد بتحديد السعر ولا بتحديد الكســـب.. ولا بالتقشـــف الذي يقتضيه خير الوطن وصلاحه.. وتقويته وترقيته.. وبهذا الإيثار تقل الخصومات والشكاوي والقضايا.. ويتحقق قول عمر بن الخطاب في إحدى خطبه:

"أعطـــوا الحـــق مـــن أنفســـكم.. ولا يحمل بعضكم بعضاً علي أن تتحاكموا إلي.. فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة.. وأن أجيب إلي صلاحكم.. عزيز علي غيكم."

الإسلام قوة دافعة إلي السلام:

دأب الناس علي أن يتحاربوا في كل عصر وفي كل مكان.. وكلما صـــعدوا فـــي ســـلم الحضارة زاد افتتانهم في اختراع وسائل الحرب والتخريب والتدمير.. فهدموا بمخترعات العلم والحضارة ما أبدع العلم والحضارة.. وخربوا في يومهم ما شيدته الأجيال من قبلهم.

ومن الغريب أنهم لا يبتغون من الحرب إلا بسط السلطان.. وتوسيع الملـــك.. وإشـــباع الفهـــم إلـــي الشـــهرة والمجد.. واستبعاد الضعفاء.. والاســـتئثار بخـــيرات بلادهـــم.. وطالما اعتلت الدعوات إلي السلام.. فصمت دونها الآذان.. كأنما كتب علي البشر ألا ينعموا بسلم دائم.

وليس صراع العالم الذي يهدد البشر بالانقراض.. وينذر الحضارة بالدمـــار.. ناشـــئاً عن دوافع سامية.. أو غايات نبيلة.. بل إنه صراع مبعـــثه الجشـــع والغايـــة مـــنه التغلـــب والسيطرة واحتكار الخيرات والاستئثار بالقوة والنفوذ.

وهـــنا تتجلـــي عظمـــة الإسلام.. لأنه دين سلام.. يؤثر السلم علي الحـــرب ما وسعه الإيثار.. فإن لم يكن من الحرب بد لحماية العقيدة..

أو صيانة الحياة.. أو الدفاع عن الوطن.. فالحرب شر وضرورة موقوتة.. وذلك أن الإسلام يدعو إلي المثل الأعلي في جميع الصلات والمعاملات.. فإذا لم ينجح المثل الأعلي.. لجأ الإسلام إلي العلاج الذي لا ينجح سواه.. مراعاة للوقاع ومجاراة للأحداث.

ولقد دعا الإسلام إلي السلام.. فأبي خصومة إلا الحرب.. وصبر المسلمون علي أذاهم.. فلم يزدهم الصبر إلا طغياناً وعدواناً.. فلم يكن للمسلمين خيار آخر عن الحرب.. ليحموا أنفسهم وعقيدتهم استجابة لدينهم الذي يأمرهم بالقوة والاستعداد للدفاع.. كما يدعوهم إلي المسالمة والتسامح.. ولا غرابة في أن يكون الإسلام دين سلام.. والقرآن الكريم يصف المؤمنين المتقين بالمسالمة والتسامح.

قال تعالي: "**وعباد الرحمن الذين يمشون علي الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما**" سورة الفرقان- ٦٣.

ويسمي الجنة دار السلام: "**لهم دار السلام عند ربهم**" سورة الأنعام- ١٢٧.

ويجعل التحية فيها سلاماً.. "**تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً**" سورة الأحزاب- ٤٤.

ويبشر الله الأتقياء بأن تحييهم الملائكة في الجنة بالسلام: "**الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون**". سورة النحل- ٣٢.

وكيف لا يكون دين سلام وكل مسلم يقول في تشهده كل يوم مرات: "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.. السلام علينا وعلي عباد الله الصالحين.." ثم يختتم كل صلاة بالسلام؟

وإذا كانـــت الحـــرب في طبائع البشر فإن الإسلام ضيق نطاقها.. وراعـــي فيها حرمات الإنسانية أو في رعاية.. فالمسلمون لم يحاربوا إلا لـــيدفعوا العـــدوان علـــيهم.. ولم يستلوا سيوفهم إلا عند اليأس من مســـالمة أعدائهـــم.. والمســـلمون لم يحاربوا إلا المحاربين.. وتركوا المسالمين وغير المحاربين آمنين في ديارهم.

والمســـلمون لم يتجاوزوا في حربهم حدود الدفاع إلي الانتقام الحاقد والتنكـــيل المبـــيد.. وقـــد جـــنحوا إلي السلام حينما استجاب الأعداء للســـلام.. وكانوا بعد انتصارهم رحماء بالمغلوبين.. لم يمثلوا بالقتلي.. ولـــم يخـــربوا العمران ولم يجبروا أحداً علي اعتناق الإسلام.. نعم إن المسلمين لم يستغلوا قوتهم ليضطروا أحداً إلي أن يسلم.. لأنهم يعلمون أن له مـــن القوة الذاتية ما يفتح له القلوب.. ويشرح القلوب.. فقد ذاع الإســـلام في مكة.. والنبي وأتباعه قلة لا يملكون من وسائل القوة ما يحمـــون به أنفسهم من الأذي.. ثم ذاع في المدينة قبل أن يهاجر النبي إلـــيها.. وتعهد الذين أسلموا بحماية النبي ونصرته إذا هاجر إليهم.. ثم اســـتمر الإسلام ينتشر بقوته الذاتية في كل عصر.. حتى في العصور التي ضعف فيها المسلمون واضطرب سلطانهم.

وحســـبنا هنا شهادة السيرتوماس أرنولد في قوله: تصدعت أركان الإمـــبراطورية العظمـــي.. وتضعضعت قوة المسلمين السياسية.. لكن غزواته الروحية بقيت مستمرة دون انقطاع.

وأنه ليتضح لمن يدرس قوانين الحرب في الإسلام.. أنه دين رحمة وســـماحة وسلام.. سواء في ذلك دوافع الحرب.. وبواعثها.. والغرض منها وغايتها.. ونظام المعركة وسيرها.. ونتائج الحرب وآثارها.

فلـــيس للحرب هدف إلا الدفاع لحماية الوطن وصيانة العقيدة واتقاء الخطـــر الواقـــع أو الخطـــر المتوقع.. ولهذا نهي الإسلام عن العدوان حتى علي الأعداء الذين ظلموا المسلمين من قبل.. قال تعالي: **وقاتلوا فـــي سبيل الله الذين يقاتلونكم.. ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين"** سورة البقرة- ١٩٠.

فالحـــرب هنا لإعلاء دين الله الذي ارتضاه.. وليست للسيطرة ولا للاحـــتكار.. ولا للغنائم والأسلاب.. ومع هذا فإن ختام الآية يحذر من العدوان.. لأنه بغيض إلي الله.

قـــال تعالـــي.. **"ولا تقولـــوا لمن ألقي إليكم السلام لـــست مؤمناً، تبتغون عرض الحياة الدنيا"** سورة النساء- ٩٤.

وهكـــذا نجـــد أن الإســـلام نهي عن قتال من أعلن مسالمته.. وأن أثمرت حربه منافع مادية.

وقـــد جري المسلمون علي السماحة في حروبهم وفتوحهم.. فكانوا يبعـــثون إلي البلد الذي يريدون فتحه شروطاً للصلح قبل أن يحاربوه.. كمـــا فعل عمرو بن العاص مع أهل غزة حينما حاصرها.. وكما فعل مع أهل مصر إذ عرض عليهم حرية دينية وعدالة شاملة.

وإذ نظـــر الإسلام إلي السلام علي أنه الأصل.. وإلي الحرب علي أنهـــا طـــارئ موقوت.. شرع من النظم ما يتفق مع سموه.. وسن من القوانيـــن مـــا يضـــمن تخفيف ويلات الحرب.. ويحصرها في أضيق نطـــاق.. فـــلا يصح أن تتعدي الحرب إلي المدنيين الذين لا يحاربون كالشيوخ والنساء والأطفال والعجزة والعباد المنقطعين للعبادة.

ولا يجوز أن يجوع المسلمون أعداءهم.. أو يقتلوا سفراءهم أو يعتدوا علي المستأمنين في ديارهم من رعايا الدولة المعادية.. فإذا جنح العدو إلي السلام كان علي المسلمين أن يسالموه.. وإذا ما رغب في الهدنة كان عليهم أن يهادنوه.. علي شرط ألا يكون في هذا إهدار لحق من حقوق الدين.. أو تعويق للدعوة علي الذيوع.. قال تعالي: "**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل علي الله**". سورة الأنفال- ٦١.

ولم يكن الغرض من الجهاد إجبار أحد أن يسلم.. بل أن المسلمين ضربوا أروع الأمثال في كفالة الحرية الدينية للناس.. ولهذا رحب بهم سكان المستعمرات الرومانية وغيرها.. لينقذوهم من تعسف الحكام ومن الاضطهاد الديني.

وكيف يتصور أحد أن الغرض من الجهاد كان الإجبار علي الإسلام.

والنبي صلي الله عليه وسلم مخاطب بقوله تعالي: "**لست عليهم بمسيطر**". سورة الغاشية- ٢٢

وبقوله: "**ما علي الرسول إلا البلاغ**".. سورة المائدة – ٩٩

وبقوله: "**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**".. سورة البقرة- ٢٥٦.

أما نظام الإسلام في معاملة المغلوبين بعد أن تضع الحرب أوزارها.. فإنه النظام الذي لم يعرف العالم له مثيلاً من قبل ولا من بعد في السمو والرحمة والرفق.. وذلك لأن الإسلام لا يبيح التمثيل بالقتلي.. ولا تخريب العمران.

الإســلام يوجب علي المسلمين بعد انتصارهم أن يخيروا المغلوبين بيــن البقاء علي دينهم ودفع الجزية.. والجزية نتيجة للحرب لا باعث إلــي الحــرب وهــدف مــن أهدافها.. وقد شرع الإسلام أعدل النظم وأرحمهــا فــي معاملة الأسرى والأرقاء.. كما شرع أسمي نظام في معاملة الشعب المغلوب.

وقــد شهد للإسلام بذلك كله كثير من غير المسلمين.. مثل الكونت هــنري دي كاستري في قوله: أن المسلمين امتازوا بالمسالمة.. وحرية الأفكــار فــي المعاملات.. ومحاسنة المخالفين.. فنشر القرآن جناحيه خلــف جيوشهم المظفرة.. ولم يتركوا أثراً للتعسف في طريقهم إلا ما كان لابد منه في كل حرب وقتال.. ولم يقتلوا أمة أبت الإسلام.

وكذلــك قال جوستاف لبون: لم تكن القوة عاملاً في نشر القرآن.. لأن العــرب تــركوا المغلوبيــن أحراراً في أديانهم.. وإذا كان بعض النصارى قد أسلموا.. واتخذوا العربية لغة لهم.. فذلك لما كان يتصف بــه العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس بمثله عهد.. ولمــا كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى.. وقــد عــاملوا أهــل سورية ومصر وأسبانيا.. وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم.. تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم.

عــدت.. وجــدت مسيو: شارل سايمون قد خلع نظارته.. وما أن رآني حتى وضع ابتسامته الأخاذة فوق وجهه..

قال:

بحث جيد.. وجدير بالدراسة.. ولكن هذا البحث حرك داخلي سؤال قديم لم أجد له إجابة.. والسؤال يتلخص في:

لقد افتتح القرآن كثيراً من السور بالقسم.. فلماذا ورد هذا القسم في القرآن وهو كما يقول المسلمين تنزيل من رب العالمين...؟

وهذا الأمر يثير ثلاث شبهات:

١- أن الـذي يلجـأ إلى القسم هو المتهم في صدقه.. المفتقر إلي تأييد دعواه.

٢- أن القسـم جـاء فـي القرآن مؤيداً لأنباء ذات خطر كالتوحيد والبعث والحساب.. فإذا كان القسم موجهاً إلي المؤمنين فلا مبرر له.. لأنهـم مؤمنون بالدين وبما جاء به وأخبر عنه.. وإذا كان موجهاً إلي المشـركين والكفـار فلا معني له.. لأنه ليس دليلا يقنعهم وتتضح به الدعوى.

٣- أن المضـطر إلـي القسـم يقسم بما جل وعظم.. ليكون قسمه أوقـع في نفوس المخاطبين.. فكيف أقسم القرآن ببعض المخلوقات..؟ ولماذا أقسم بمخلوقات بعضها لا قيمة له..؟

بعد أن أنهي كلامه.. قلت له:

هذه شبهات ثلاث قد تبدو في النظرة الأولى علي شيء من القوة.. لكـنها بعـد التوضـيح والتدليل المقنع.. والتفنيد لا تلبث أن تتداعي.. وسيقتضـيني هـذا أن أوضـح مـا هو القسم.. ونشأته.. وأنواعه.. والغـرض منه.. وأن أبين نوع القسم في القرآن الكريم.. والكشف عما في القسم من ألوان البلاغة.

هز رأسه موافقاً.. وقال مبتسماً:

- تفضل.. أنا مصغي إليك.

يتبين للذي يتتبع أسلوب القسم أنه نوعان:

- نوع لا يصاحب القسم مقسم به في جملة القسم.
- ونوع يصاحبها فيه مقسم به.

النوع الأول:

أمـــا الـــنوع الأول فيتمثل في كلمات تدل علي القسم وإن كانت لم توضـــع فـــي الأصـــل للحلف بالله أو بشعائره أو بشيء آخر.. وهذه الكلمات: القسم والحلف واليمين والنذر:

١- فالقسم في الأصل اللغوي: القطع.. ومنه قسمة الشيء.. فصار القســـم بمعنـــي الحلـــف كأنه قطع للظن والاشتباه.. وهو لا يستوجب مقسماً به.. ولهذا جاء في نصوص كثيرة وحده..

كقوـــله تعالي: **"أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة"**. سورة الأعراف- ٤٩.

"ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة". سورة الروم- ٥٥.

علـــي أن المقسم به وهو الله تعالي قد يقدر في هذه الأمثلة.. ولكنه غير لازم.. لأنه يصح أن يكون مراداً به الله تعالي.. ويصح أن يكون مراداً به غير الله.. ويصح ألا يراد به إلا الجزم والتأكيد.

٢- الحلـــف.. معـــناه الأصيل: الحدة والقطع.. فهو شبيه بالقسم.. يقـــال ســـكين حليف أي ماضي قاطع.. ولسان حليف أي حد يد زلق.. والحلـــف مـــأخوذ من الحلفاء وهو نبات محدد الأطراف.. والمراد بأن فلاناً حلف أن يفعل كذا.. يراد به أنه قطع الشك في أن يفعل.

والحلف كالقسم لا يلزمه اتصاله بمقسم به.. لأن المراد به شدة تبديد الشك وقطعه.. ومنه قوله تعالي: **"وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى"** سورة التوبة- ١٠٧.

وقوله: **"يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له"** سورة المجادلة- ١٨.

٣- اليمين.. فإنه يدل علي القسم.. لأن كثيراً من الأمم كالعرب والعبريين والروم والهنود.. كانوا يوثقون المعاهدات.. ويؤكدون الوفاء.. بأن يأخذ بعضهم بيمين بعض.. كأنما يرمزون إلي أنهم وصلوا قلوبهم.. ورهنوا في العزم علي الوفاء أيمانهم.. كقوله تعالي: **"لا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا"**. سورة البقرة- ٢٢٤

وقوله: **"قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم"**.. سورة التحريم- ٢.

وما زال الناس يضع بعضهم يده اليمني في يد الآخر عند البيع والشراء والتعاقد والتعاهد وتوكيد الأنباء.. وكان للعرب قبل الإسلام مضروب من توثيق العهد تفصل باليمين.. منها أنهم كانوا يحتالون علي ربط النسب بين القبليتين المتحالفتين.. وإن لم تكونا من أصل قريب.. بأن يعقدوا الحلف علي دم الذبائح التي تنحر للآلهة.. لأن هذا الدم يرمز إلي أن العلاقة بين الحليفين كعلاقة الدم.. وهي الأساس في القرابة الدموية.. وكانوا يقسمون بدماء الذبائح التي تقرب للأصنام والآلهة.

وكانوا أحياناً يوثقون الحلف والعقد بلعق الدم.. فيمس كل فريق بمناه في جفنه ملأى الدم.. ثم يلعق كل رجل ما علق بيده.

وكانوا أحياناً يغمسون أيمانهم في الماء.. فكأنما أمسك بعضهم بيد بعض.. بما مسهم جميعاً من الماء الذي غمسوا فيه أيمانهم فلصق

بهـــا.. ولقد وثقوا العهد في حلف الفضول بماء من زمزم.. جعلوه في جفــنة.. وبعــثوا بـــه إلي البيت.. فغسلت به أركانه.. شربوه.. كأنهم أرادوا أن يســـري العهد في كيانهم.. وكان هذا الحلف في دار عبد الله بن جدعان بمكة.. وحضره رسول الله قبل البعثة.

وأحـــيانا كانوا يغمسون أيمانهم في الطيب.. يمسحون بها الكعبة.. كمـــا فعلوا في حلق المطيبين.. ولعلهم فعلوا ذلك لأن عبق الطيب أبقي من الماء.. وأكثر دلالة وشهرة.

وربمـــا دل العـــرب علي العهد بوصل حبل بعضهم بحل الآخر.. حـــتى صار الحبل أسماً للعقد.. ففي القرآن الكريم: "**واعتصموا بحبل الله جميعاً**".

علـــي أن اللغة العربية لم تنفرد بالتعبير عن القسم باليمين فالعبرية تشـــاركها فـــي هـــذا.. جاء في الزبور: "الذين أفواههم تنطق سوءا.. ويميـــنهم يمين كذب" وجاء وضع اليمين في اليمين في أمثال سليمان: "يا بني إن ضمنت صاحبك فصفقت كفك لغريب".

كذلـــك لم ينفرد العرب بتوثيق المحالفة بالدم.. فقد كان العبريون أحياناً يذبحـــون ذبـــيحة.. ويرســـون دمها علي المتحالفين.. يريدون الرمز إلي نصـــرة القرابة المولاة.. أو الإيعاز بثباتهم علي العهد حتى تسيل دمهم في الوفـــاء بـــه.. جـــاء في سفر زكريا: "فإني بدم عهدك قد أطلقت أسراك". وجـــاء فـــي سفر الخروج: "وأخذ موسى الدم.. ورش علي الشعب وقال: هوذا. دم العهد الذي قطعه الرب معكم علي جميع هذه الأقوال.

٤- الـــنذر.. فمن معانيه الوجوب.. وتحريم المشتبهات حتى يفعل الـــرجل ما أوجبه علي نفسه.. كما نذر المهلهل ألا يشرب خمراً.. ولا

يقرب امرأة.. ولا يبدل ثيابه إلي أن يأخذ بثأر أخيه كليب.. ثم توسعوا في معني النذر.. فصار يدل علي التزام شيء بقسم.

النوع الثاني:

وهو الذي يصاحبه مقسم .. لتحقيق غرض من الأغراض..

فما هي هذه الأعراض..؟

١- منها أن المقسم يذكر المقسم به ليبرئ نفسه من الكذب.. أو ليحضها علي الوفاء.. فيشهد المقسم به علي صدقه وعلي وفائه.. ويجعله كفيلاً له.. وهذا هو الغرض الأصيل لهذا النوع من القسم.. ولعل ذلك هو السبب في كثرة مجيئه بالواو والباء.. لما فيهما من العطف والضم والمصاحبة والإسناد.. وربما كانت التاء مقلوبة عن الواو.. كما قلبت في تقوى وتجاه.

وقد ينوب عن القسم التصريح بإشهاد الله علي الصدق.. كما في قول النبي صلي الله عليه وسلم في خطبة الوداع: "ألا هل بلغ.. اللهم فاشهد".

ولهذا ورد الإشهاد يميناً في قوله تعالي: "**إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله، والله يعلم أنك لرسوله، والله يشهد أن المنافقين لكاذبون**". سورة البقرة- ٢٠٤.

فسمي الله شهادتهم يميناً.

علي أن القسم قد يدل علي إعزاز المقسم به.. في نحو لعمري.. أي أقسم بحياتي الغالية.. وهذا النوع من القسم ليس بالإيمان الغليظة.. لأنه كثيراً ما يستعمل في التأكيد فحسب.. لهذا لا يشترط في المقسم به أن يكون معبوداً أو مقدساً.. وإن جاء كذلك أحياناً.

٢- ولقد يدل القسم علي تقديس المقسم به.. إذ كانت الأمم القديمة توثق إيمانها.. وتؤكد الوفاء بها بإقامة الأرباب شهوداً علي أقوالهم.. يستمدون منها العون علي الوفاء بعهودهم.. ويستنزلون سخطها علي من يخون ويغدر.

وكان العرب يتعاهدون علي النصرة والوفاء.. وربما جمعت المعاهدات قبائل متباعدة النسب.. فكانوا يوثقون عهدهم بالقسم في الكعبة.. إذ يشدون الله علي ميثاقهم.. ويقسمون به سبحانه.. أو يقسمون عند أنصابهم التي دبحوا عليها..أو يكتفون بشهودهم البيت الحرام.. والقسم لديه.. ثم اضطرهم بعدهم عن البيت بأن اكتفوا بالقسم به.. أو بشعائر الحج.

ويجب أن أنفي هنا.. أن يكون في القرآن الكريم قسم مبني علي أن المقسم به مقدس.. إلا إذا كان بالله سبحانه وتعالي.. كما جاء علي لسان إبراهيم عليه السلام: "**وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين**".. سورة الأنبياء- ٥٧.

٣- علي أننا نجد في أساليبهم أقساماً بأشياء غير معبودة.. ولا مقدسة.. يريدون بالقسم بها إشهادها أو الاستبدال بها.

وهذا هو الضرب الاستدلالي من القسم.. ولا غرابة في أن يخرج القسم عن معناه الأصيل إلي غرض آخر.. وهو الاستبدال.. فإن الخبر والإنشاء يخرج كل منهما عن غرضه الأصلي إلي أغراض أخرى.. فالاستفهام مثلاً يخرج عن طلب المعرفة إلي النفي والتقرير والإنكار والتعجب وغيرها.

إذن.. فقد تبين أن بين المقسم به والمقسم عليه ارتباطاً وتناسباً في جميع الأحوال.. علي أن اللغة العربية لم تنفرد بالقسم الاستدلالي.. ففي العبرية واليونانية نظائر له.

جاء في سفر أيوب: "أسأل البهائم فتعلمك.. وطيور السماء فتخبرك.. أو كلم الأرض فتجيبك.. ويحدثك سمك البحر أن يد الرب صنعت هذا.. الذي بيده نفس كل حي وروح كل أنسي".

وجاء في خطبة من خطب ديموستين في أثينا يحث علي مقاومة فيليب المقدوني: "أقسم بالذي خاطروا بنفوسهم في معركة ماراثون.. والذين كانوا في الحرب البحرية عند سلامس .. والذين كافحوا الأعداء علي فلاطس.. أنكم لم تكونوا علي الباطل".

فماذا أراد من قسمة الاستدلالي؟ أراد تحميسهم وإشعارهم بالفخر.. وتذكيرهم بالأبطال من أسلافهم.. وعقد موازنة بين حالهم في الدفاع بحال آبائهم المجاهدين.. ومثل هذا القسم أن الشاعر يوليوس كان قد أبلي بلاء حميداً في موقعة ماراثون.. فكللوه كعادتهم.. ثم اتهمه حساده بعد ذلك بأنه ساخط علي اليونان.. فبرأ نفسه بقوله "أقسم باكليلي الذي نلته يوم ماراثون.. أنه لن يراني شامت أضمر سخطاً علي اليونان".

لعله قد استبان أن القسم الاستدلالي ليس مقصوداً به تقديس المقسم به.. وبهذا يتضح بطلان الاعتراضين اللذين تقدم بهما مسيو: شارل سايمون.. لأن الاعتراض الأول قائم علي شبهة أن القسم علي الأمور الجسيمة لا فائدة منه للمنكر.. إذ أنه يتطلب الدليل.. ولا فائدة فيه للمؤمن الموقن.. لأنه مصدق.. ليس في حاجة إلي قسم وتدليل.

أما الاعتراض الثاني: فإنه مستند إلي أن القسم يجب ألا يكون بغير الله.. فكيف أقسم سبحانه بمخلوقاته.؟ .. إذن فلا موضع لأي من

الشبهتين.. لأن القسم في القرآن من النوع الاستدلالي المراد به الإشهاد والاستشهاد مع تضمنه أغراضاً بلاغية أخرى.

أما الشبهة الثالثة فيبطلها أن القسم ضرب من البيان.. ألفه العرب ووثقوا به أنباءهم.. علي ما يشتمل علي من بلاغة.. ولكن ما الفارق إذا بين القسم المراد به الإشهاد والقسم المراد به الاستدلال؟ أو بعبارة أخرى ما الفرق بين الإشهاد والاستشهاد؟

يظهر الفرق من أن المراد بالإشهاد.. إشهاد الخالق سبحانه أو إشهاد الناس أو غيرهم علي توثيق القسم وتوكيده والعزم علي الوفاء به.. أما المراد بالاستدلال فهو الاستشهاد علي صدق المقال.. كالاستشهاد بالسيف والرمح والحصان علي صدق الدعوى.

الأدلة علي أن كثير من القسم في القرآن استدلالي:

١- أن القرآن ينصرف في أساليبه.. فتارة يذكر الأمور الدالة علي وجود الله ووحدانيته وقدرته في أسلوب القسم بها.. وتارة يسوقها مساق العظة والتوجيه.. وهي في الحالتين بينات علي ما سبقت إليه لم يفكر فيها ويتدبر مراميها.. قال تعالي: "**أفلا ينظرون إلي الإبل كيف خلقت، وإلي السماء كيف رفعت، وإلي الجبال كيف نصبت، وإلي الأرض كيف سطحت**".؟ سورة الغاشية- ١٧.

ولا شك أن توجيه القسم بها علي أنه استدلالي للاحتجاج والاستشهاد يناظر ذكرها للعظة والاعتبار والتوجيه.

٢- ويعزز هذا أن القسم القرآني قد يجيء معه ما يفيد أن في هذا القسم بياناً لمن يعقلون ويفكرون.. كما في قوله تعالي: "**والفجر وليال**

عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر، هل في ذلك قسم لذي حجر". سورة الفجر– ١–٥.

فنـــبه بعـــد القسم علي أن الأشياء المقسم بها دلائل لمن يعقل وأنها قسم عظيم في تقدير من يفكر

وكثـــيرا مـــا يجـــيء مثل هذا التعقيب في القرآن الكريم بعد ذكر الدلائـــل علي وجود الله ووحدانيته وقدرته.. كقوله تعالي: **"وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون"** سورة النحل – ١٢

٣– علـــى أنـــه لـــيس من المعقول أن يتصور إنسان أن الله يقدس مخلوقاتـــه الـــتى أقســـم بهـــا.. على حين أنها كما ذكر القرآن مراراً مخلوقـــات مســـخرة طائعـــة.. لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ... ولا تستطيع من الأمر شيئاً.

٤– ثـــم أن القـــرآن يقسم أحياناً ويعمم القسم... يريد تعميم الآيات الدالـــة.. كقولـــه تعالي: **" فلا أقسم بما تبصرون، وما لا تبصرون".** سورة الحاقة– ٣٨

فأقســـم الله بكـــل شئ مرئي وغير مرئي.. فكيف يظن أحد أن الله أقسم بكل شئ ليقدس كل شئ.؟

٥– ولقـــد يذكـــر القسم القرآني مشيراً إلى وجه الاستدلال.. كقوله تعالـــي: **" والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى.. وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحي".** سورة النجم ١–٤

٦– كذلـــك قـــد يذكـــر القرآن الكريم الآيات الدالة.. ثم يقسم بالله ســـبحانه وتعالي.. كأنما قد مهد بذكرها للمراد من الاستدلال بها.. قال

تعالـــي: " **وفـــى الأرض آيات للموقنين، وفى أنفسكم أفلا تبصرون، وفـــى السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض أنه لحق مثل ما أنكم تنطقون**" . سورة الذاريات ٢-٣٢ .

ومعنـــي هـــذا أن الآيـــات المنبـــثة فى الأرض وما عليها... وفى الـــنفوس وأحوالهـــا واسرارها.. وفى السماء ونجومها وسحبها.. كلها أدلـــة علـــى وجـــود الله وقدرتـــه.. ودلائل على صدق النبوة والبعث والقرآن الكريم.. ولهذا عقب عليها بالقسم بذاته العلية.

وهـــذا القســـم بـــالذات العلية مراد به التقديس.. لأنه بالله المعبود بحـــق.. ومتضمن الاستدلال بما تدل عليه السماء والأرض من بينات علي وجود الله تعالي.. وعلى صدق محمد عليه الصلاة والسلام.

٧- إذا مـــا رجعـــنا إلـــى القسم القرآني وأجوبته.. وجدنا ملاءمة بيـــنهما.. وأدركـــنا أن المناســـبة قوية بين المقسم والمقسم به والمقسم عليه.. وهذا يعزز أنه قسم استدلالى.. قال تعالي" **والسماء والطارق ، ومـــا أدراك ما الطارق، النجم الثاقب، إن كل نفس لما عليها حافظ**". سورة الطارق ١-٤

فأقســـم سبحانه بالسماء وبالنجوم المضيئة للاستدلال بخلقها العظيم العجيـــب على قدرته.. وجاء جواب القسم ملائما لهذه القدرة.. وهو أن الله مهيمن رقيب على كل نفس.. بدليل قوله تعالي فى سورة أخرى: " **وكان الله على كل شئ رقيباً**.." وحتى على التفسير الآخر وهو أن الله وكـــل بكل نفس ملكاً يحفظ أعمالها ويحصيها عليها.. فإن جواب القسم ملائم للقسم الاستدلالى.

" **وقـــال تعالـــي: " واللـــيل إذا يغشي، والنـــهار إذا تجلى، وما خلق الذكر والأنثـــي، إن ســـعيكم لشـــتي، فأما من أعطي واتقي وصدق بالحسني**

فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغني وكذب بالحسني فسنيسره للعسرى". سورة الليل- ١-١٠

وهنا أقسم الله تعالي بالليل الذى يغطي بظلامه كل شئ بسبب غروب الشمس.. وبالنهار الذى يتكشف بشروق الشمس.. وبخلق الذكر والأنثي من نطفة واحدة.. للاستدلال بهذا القسم على قدرته التى أوجدت النظام الشمسي الدقيق.. وأحداث الشروق والغروب والليل والنهار.. وبقدرته على خلق الشئ وضده.. وجاء جواب القسم ملائماً لهذا التضاد.. وهو أن الناس متباينون فى أعمالهم.. ومختلفون فى مساعيهم.. والله عليم بهذا كله.. ويجزى كلا منهم بما يستحقه.. فيجزى بالثواب من آمن واتقي وتزكي.. ويجزى بالعقاب من جحد الزكاة واستغني بطيبات الدنيا عن نعيم الجنة وكذب بالدين.

النتائج المستنبطة من القسم القرآني:

أولاها: أن القسم من الله يراد به الاستدلال على وجود الله ووحدانيته وقدرته ووقوع البعث وما شاكل هذا.. وليس مراداً به التقديس.. وإن كان المقسم به عظيماً فى ذاته.. وعظيماً عند الله خالقه.. كقوله تعالي:" **والقرآن ذى الذكر". وقوله:" والقرآن المجيد".**

الثانية: أن القسم بالله تعالي مقصود به التقديس.. لأنه الخالق الذى يستوجب التقديس والعبادة.. كقوله تعالي" **فورب السماء والأرض إنه لحق".**

الثالثة: أن القرآن الكريم قد يستعمل أسلوب القسم بغير مقسم به.. كما جرى العرف اللغوي.. نحو قوله تعالي :" **أخرج منها مذءوماً مدحوراً، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين".** سورة الأعراف- ١٨

البلاغة فى أسلوب القسم:

بعد أن تبين أن الكثير من القسم فى القرآن الكريم مقصود به الاستدلال.. وأنه لا يصح للتقديس والتعظيم إلا إذا كان بالخالق سبحانه وتعالي.. تعالي معي نتبين ما فى أسلوب القسم من بلاغة.

١- إذا كان القسم الاستدلالي شواهد وأدلة على صدق المقسم عليه.. فلماذا عدل المتكلم إليه عن أسلوب التصريح والاحتجاج الصريح؟ لماذا لم يجئ الاثبات والتدليل كما يجئ فى البرهنة على نظرية هندسية أو قضية علمية.؟

الجواب على هذا: أن التدليل الخالص يحسن حينما يوجه الخطاب إلى العقل.. وليس المخاطب راغباً عن الدعوى ولا نافراً منها.. أما إذا كان الخطاب للعاطفة.. والغرض منه الآثار والتأثير... والمخاطب نافراً أو معاند.. فإن البرهنة تسلك مسلكاً آخر.. لتجتذب المخاطب وتمتلك نفسه.

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات صريحة فى التدليل على وجود الله ووحدانيته وقدرته ووقوع البعث والجزاء.. ووردت آيات أخرى كالقسم.. تعتمد على الآثارة والاستشهاد والاستدلال... ومن شأن الأسلوب المتنوع أن يجدد الانتباه والشوق.. ولهذا قال تعالي:" **أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون**". سورة الأنعام – ٦٥

٢- وفى أسلوب القسم تأييد للمقال وتقوية وتعزيز.. كما فى قوله تعالي: " **والسماء ذات الرجع، والأرض ذات الصدع، إنه لقول فصل، وما هو بالهزل**" سورة الطارق ١١-١٤. .. وكما فى قسم النبي بقوله:" **والذى نفس محمد بيده**".

وكــان العــرب يثقون بقول الحر.. ويعيبونه إذا كذب فى قسمه أو هــزل.. ولعــل هذا من الأسباب التى دعت إلى كثرة القسم فى السور الــتى نزلــت فى صدر النبوة.. ليستيقن العرب صدق النبي فى التبليغ عن ربه.

٣- والقســم ضرب من الأسلوب الانشائي.. لا مناص للخصم من الأقــرار بــه.. ولا وجه له فى إنكاره.. فإن شاء أنكر جواب القسم.. لأنــه خبر لا إنشاء.. وقد يجمع القسم القرآني بين الإنشاء والوصف.. كالقســم بالقــرآن المجــيد.. والــيوم الموعــود.. والصافات صفاً.. والمقســمات أمــراً.. والفارقات فرقاً.. ففى هذا وإشباهه قسم ووصف للمقسم به.. ليكون الاستدلال أعظم فى النفس وأوقع.

وقــد يوجه القرآن الخطاب إلى النبي فى أسلوب القسم.. وهو يريد الخصم المنكر.. مثل قوله:" **يس والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم**". سورة يس ١-٤

٤- وقــد يحذف جواب القسم وهو المقسم عليه.. فينتقل بعد القسم إلــى كــلام آخر لكنه مرتبط بالمحذوف.. والسر فى هذا أنه يسد على المخاطــب المنكر طريق الفرار.. فلا ينتقل من القسم وهذا إنشاء إلى الجــواب وهــو خبر.. لئلا يمارى المنكر فى الجواب.. ثم لكي يكون القســم كالتمهــيد والتنبــيه إلي استدعاء سمع المخاطر.. فيرهق أذنيه ليســمع مــا بعــد القسم فإذا به يسمع ما يؤيد الاستدلال المقصود من الكــلام الســابق.. كقوــله تعالي: " **ص والقرآن ذى الذكر، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق**".سورة ص ١-٢

فأقســم بحرف من حروف المعجم على سبيل التحدى والتنبيه على الاعجــاز.. واتــبعه بالقســم بالقرآن.. وحذف الجواب لدلالة التحدى

عليه.. كأنه قال والقرآن ذى الذكر أنه لكلام معجز.. ولكن الكفار يستكبرون أن يذعنوا له.. فيعارضون الرسول ويكذبون.. أو كأنه قال: أقسم بالقرآن ذى الشرف العظيم إنك لصادق فيما تبلغ عن ربك.. ولكن الكفار يستكبرون أن يذعنوا للحق.. ويصرون على أنه يعاندوك.. أو أقسم بالقرآن أن الأمر ليس كما يزعم هؤلاء الكفار.. بل هم فى استكبار ومخالفة وعداوة لمحمد.

٥- ويمتاز أسلوب القسم بإيجازه.. ولهذا يهجم على السامع فيمتلك مشاعره.. ولعل العرب أكثروا منه وافتنوا فيه لو جازته وهم إلى الإيجاز أميل فى شعرهم ونثرهم.. ومن هنا راجت الأمثال بينهم وشاعت.. وذاعت الحكم والتوقيعات فيما بعد الجاهلية.. وتسابقوا إلى تجويدها والاحتفاظ بها.

٦- على أن من مزايا القسم أن يسهل الجمع بين عدة أدلة فى جملة واحدة أو جمل متلاحقة.. كما فى سورة التين والبلد والطور والشمس والليل والفجر.. مع الإيجاز.. ولو فصلت الأدلة.. وبسط فيها القول لفقد الكلام تأثيره.

٧- ثم أن القسم الاستدلالى يشرك السامع فى استنباط الدليل.. ويخفف من عناده وخصامه.. فيشعر أنه تأمل وعرف.. ومن هنا كانت الأساليب الانشائية كلها أكثر اجتذاباً للقارئ أو السامع من الأساليب الخبرية.

ولهذا ينوع اللبق والحاذق فى أسلوبه.. ويراوح بين الإنشاء والخبر.. لينشط السامع.. ويشركه معه فى الفهم والبحث والاستنباط.. حتى ليتوهم السامع أنه هو الذى اهتدى إلى الحق بنفسه.. ولعل من أسباب بلاغة الكتابة أن المخاطب له نصيب فى تفهمها ومعرفة مرماها.

٨- ويمتاز القسم بأنه تدليل في غير الصورة المعتادة للتدليل.. إذ أن الدليل المعتاد المألوف قد يجبر الخصم إلى المجاجة والإنكار.. فقوله تعالي: " **والعصر إن الإنسان لفى خسر**". سورة العصر ١-٢.

أبلغ من تحويله إلى أن الإنسان فى خسر.. لأن الزمن ينتقص عمره.. فالآية الكريمة إنشاء واستدلال غير صريح.. والجملة خبر واستدلال صريح.. لكنه مع ظهوره يدعم الخصم العنيد إلى إنكاره.. فيدعي أن الإنسان فى ربح.. لأنه يلتذ فى عمره الفاني.. أو يدعوه إلى إنكار ما يترتب على الخبر من الحث على الإيمان والعمل الصالح.. فيدعي أنه لابد من الاستمتاع بالملاذ والشهوات حيث لا مفر من الموت.

٩- ثم أن القسم فى مطالع السور استفتاح رائع.. والقليل الذى ورد فى غضون السور جمال بارع.. ولو أن كلماته التى فى مطلع السور صورت لبهر جلالها وجمالها.. وبحسب السامع أو القارئ.. أن بتحيلها ليتمثل صورة مرئي واحد كالنجم الثاقب.. والقلم الكاتب.. والخيل العادية.. والرياح الذارية.. أو يتمثل عدة صور كالتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين.. مثل : " **والطور وكتاب مسطور فى رق منشور والبيت المعمور، والسقف المرفوع، والبحر المسجور**". سورة الطور ١-٦

فإذا ما قرع سمع المخاطب بهذا الاستفتاح الرائع- وهذه الصور البديعة.. تيقظ عقله ونشطت نفسه.

١٠- بقي وجه أخير من أنواع البلاغة فى القسم.. هو أنه تقديم لتوثيق الصدق قبل الدعوى.. فالقسم يقرع أذني المخاطب.. فيصغي ويترقب ما بعده.. ثم تجئ الدعوى فيسهل قيادة لها.. ولكنه إذا فوجئ بالدعوى التى ينكرها انصرف عنها ونفر منها.

والفـرق كبير بين أن يقال: ما أنت بنعمة ربك بمجنون، أقسم بالقلم ومـا يسـطرون، وبين قوله تعالي: " **ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون**". سورة القلم ١-٢

كذلك نحس فرقا كبيراً بين أن نقول أن ما توعدون لصادق.. وأن الديـن لواقع.. أقسم بالذاريات ذروا.. وبين الآية الكريمة:" **والذاريات ذرواً، فالحـاملات وقـراً، فالجاريـات يسراً، فالمقسمات أمراً، إنما توعدون لصادق وأن الدين لواقع**". سورة الذاريات ١-٦

ومـن الـذى يستطيع أن يسوى بين أن يقال: ما ضل صاحبكم وما غـوى.. أقسم على صدق هذا بالنجم إذا هوى.. وبين التعبير القرآني: "**والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى**".

وهكـذا نجـد أن القسـم فـى القـرآن الكريم.. أكثره للاستدلال والاستشـهاد.. ولا تكـون للتقديس إلا إذا كان القسم بالله تعالي.. وهو كلـه للقسـم على أمور جسام كالتوحيد.. وقدرة الله.. وصدق النبي.. ووقـوع البعث.. وضلال المشتركين مما لا غضاضة فى القسم عليه.. ثـم أنهـا أسـلوب عربـي ألفه العرب.. وجروا عليه.. وتعارفوه فى شعرهم ونثرهم.. كما جرت عليه أمم أخرى.

وبهـذا كلـه سـما القسـم فى القرآن عن أن يتطاول إليه نقس أو عيـب.. بـل تسـامى القسـم القرآني على ضروب القسم التى سلكها الشـعراء والكـتاب جميعاً.. ذلك أن فى الأدب يوجد القسم.. ولكنه لم يجمـع مـن البلاغة ما يتسم به القسم فى القرآن الكريم.. ولم أجد فى قسـم شـعرى ولا نثري مثل ما فى القرآن من حذف الجواب أحياناً.. والانـتقال إلـى كلام آخر موصول بالجواب المحذوف.. كما فى قوله

تعالي: " **والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود قتل أصحاب الأخدود**" سورة البروج ١-٤

فإن هذا الضرب الفريد من خصائص الأسلوب القرآنى وحده.

ولقـــد صدق الله العظيم قوله : " **قل لئن اجتمعت الأنس والجن علـــى أن يـــأتوا بمـــثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**". سورة الأسراء – ٨٨

وفى قوله:" **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً**". سورة النساء – ٨

صـــمت ناظراً إلى مسيو: شارل سايمون.. الذى أدرك بعد لحظات أني أنهيت حديثي.. مد يده مهنئاً وهو يقول:

– محاضرة مطولة.. لكنها حسنة ومفيدة

هززت رأسي شاكراً..

قـــال:

– لكـــن بقـــي موضوع شغلني كثيراً فى الأونة الأخيرة.. وهو موقـــف الإسلام من الشعر.. فالإسلام أدان الشعر.. وغض من شأن الشعراء.. إذ وصفهم بالضلال والكذب.. ووصف اتباعهم بالغوايـــة.. هـــذا بالإضافة إلى ما حدث فى صدر الإسلام من توقف الشعر وركوده.. ومن انقطاع بعض الشعراء عن قرض الشعر كلبيد.

قـــلـــت... محـــاولاً أن أوسع صدرى لمزيد من مزاعم وافتراءات مسيو: شارل سايمون...

قلت:

مـا مـن شك فى أن هذا الوهم ناشئ عن فهم غير صائب للآية الكريمة:" **والشعراء يتبعهم الغاوون..، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصـالحات، وذكـروا الله كثيراً، وانتصروا من بعد ما ظلموا، وسـيعلم الذيـن ظلمـوا أى منقلب ينقلبون".** سورة الشعراء ٢٢٤-٢٢٧

وأغلـب الظن أن كثيراً من الذين ينسبون إلى الإسلام تحريم الشعر أو الغض من شأنه يقفون من الآية الكريمة عند قوله تعالي:" **ويقولون ما لا يفعلون".** كأنما هذا الاستثناء منقطع الصلة بالآية.

والحـق أن الشـعراء المقصـودين فـى الآية القرآنية هم شعراء المشـركين الذيـن تناولوا رسول الله بالهجاء ومسوه بالأذى.. وتطالوا علـى الإسلام والمسلمين.. لهذا وصفهم الله تعالي.. بأنهم يتخبطون فى شـعاب من القول.. ويذهبون فى دعاواهم مذاهب الضلال.. ويحيدون عـن الحق والرشاد وسواء السبيل.. ومثلهم بمن يهيمون على وجوههم فـى كـل واد.. لا يدرون الوجهة الصحيحة.. ولا يستقرون على حال مـن القلـق والاضطراب.. كعبد الله بن الزبعرى وأبي عزة الجمعي وهبيرة بن أبي وهب.

ومـن شأن هؤلاء الشعراء المعادين للإسلام ألا يزعمهم وازع عن الشـر والبهـتان وفـاحش المقال.. فهم يجرحون الأعراض بالباطل.. ويمدحـون أناسـاً بـالكذب.. ويـتهمون الـبرئ.. ويبرئون الأثيم.. ويتغزلون غزلاً مكشوفاً.. ولا يطرب لقولهم هذا إلا الغواة والسفهاء.. أمـا الشعراء الذين انتصروا للإسلام ودافعوا عن النبي.. وردوا على

شـــعراء المشـــركين كحســـان بن ثابت.. وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحــــه.. فقـــد اســـتثناهم الله تعالي من هذا الوصـف.. وهم الذين قال النبي فيهم: " هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النيل.

وإذا كانـــت الآيـــة قـــد فهمت أحيانا ذلك الفهم المبتور.. فأن حديثاً نـــبوياً قـــد روى مبتوراً.. ففهم على غير ما ينبغي أن يفهم. روى عن رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم.. قوله: " لأن يمتلئ جوف أحدهكم قبحاً حتى يريه- يفسد جوفه- خير له من أن يمتلئ شعراً".

ولكـــن للحديـــث تكملـــة روتها السيدة عائشة.. فيما استدركته على الصحابة.. وهى " شعراً هجيت به".

إذن فأن الآية والحديث يتفقان فى تحريمهما لونا معيناً من الشعر.

فما هذا اللون الذى يحرمه القرآن والسنة؟

كـــل مـــا يتصل بالصد عن الحق والخير.. وكل ما يتصل بالدعوة إلـــى الـــباطل والشـــر.. ســـواء فى ذلك هجاء رسول الله وأصحابه.. والتجنـــي على الإسلام.. وتجريح أعراض الناس.. ورمي المحصنات الغـــافلات.. والتشـــهير بالجرائم والمنكرات.. والمباهاة بها.. وتزيين مجـــالس الفســـق والفجور بالافتتان فى وصفها.. والدعوة إليها.. وما يشبه هذا مما ينفر منه الخلق الكريم.. وتأباه النفوس الكريمة.. ويتقزز منه المجتمع المهذب الفاضل.

ولـــم يكـــن الإســـلام وهو دين الفضائل والمثل العليا أن يفعل غير ذلـــك.. ولـــو أنه أقر هذه الطائفة من الشعراء على غوايتها لتعرضت صروحه الأخلاقية إلى رجات تزعزع بعض أركانها ودعائهما.

لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: إنما الشعر كلام.. فمن الكلام خبيث وطيب.. وقالت السيدة عائشة: الشعر فيه كلام حسن.. فخذ الحسن وأترك القبيح.

وعلى الذين يدعون أن فى هذا حجراً على الشعر.. وتضييقاً على الفن أن يذكروا أن الغاية السامية من الفن إنما هى تجيب الحق والخير والجمال والعدل إلى النفوس.. لإقامة مجتمع راق عظيم.

وعليهم أن يتذكروا أن أفلاطون قال فى كتابه الجمهورية: " علينا أن نراقب شعراءنا.. فتوجب عليهم أن يطبعوا قصائدهم بطابع الخلق الحميد.. وإلا فليكفوا عن النظم.. وعلينا أن نوسع نطاق مراقبتنا.. فتشمل أساتذة كل فن .. فنحظر عليهم أن يصبعوا أعمالهم بطابع الوهن والرذيلة والفساد والخسة.. لكى لا ينشأ حكامنا فى وسط صور الرذيلة.. كما تنشأ الماشية فى مراع رديئة.. فتتسرب الأضرار إلى نفوسهم فتفسدها".

وهاجم أفلاطون الشعراء فى كتابه- القوانين- إذ مجد هومير.. وبلل ثراه بندى الزهر والريحان.. ثم عقب على هذا بأن الشعراء والخطباء لا يصح أن يكونوا أمثلة لشباب أثينا.. وكثيراً ما أغرى بهم الحكام ليحولوا بينهم وبين إفساد الشباب.. لكنه دعا إلى حريتهم إذا التزموا الفضائل الخلقية.. وصانوا أخيلتهم عن الأوهام الفاسدة التى لا ظلال لها من الحقيقة.

وعلى الذين يزعمون أن الإسلام حجر وقيد حرية الفنانين أن يعلموا الغاية التى قصد إليها أرسطو من الأدب.. ففى رأيه أن الأدب قد يتعرض للرذيلة ولكن ليحاربها.. ولابد من الحيلولة بينه وبين أن يقرها أو يزينها أو يشيعها.

ولـــم تكـــن دعوة الكلاسيكين لتختلف عن دعوة أفلاطون وأرسطو.. فـــإنهم قـــد اتجهوا بالأدب وجهة خلقية.. وحرصوا على أن يدعوا إلى المثل العالية.. وأن يجتذب القراء إلى الفضائل الدينية الاجتماعية.. وفى مذهـــبهم أن أعظـــم الشـــعراء هـــو الذى يتجلى فى شعره إمتاع القراء وتهذيـــبهم وتغذيـــة عقولهـــم وتقوية أخلاقهم... وأن على القصاص أن يبصـــر المجتمع بمساوئه ويصلحوا عاداته.. ومن الجرم أن يفتن الكاتب المســـرحي فـــى تصـــوير الرذائل تصويراً.. يحببها إلى المشاهدين أو يدفعهـــم إلـــى مناصرتها.. وخلاصة مذهبهم نصر الحق على الباطل.. والخير على الشر.. والعزيمة على الهوى.. والواجب على العاطفة.

بل شجع الإسلام الشعر:

لننـــتقل بعـــد هذا إلى التطبيق العملى فى الإسلام.. لنتبين تشجيعه للشعر.. بعد أن ظهر لنا أنه لا يعارض إلا بعضه.

فقـــد دعـــا النبـــي حســـان بـــن ثابت إلى هجاء قريش.. وقال له: أهجمهـــم.. فوالله لهجاؤك أشد عليهم من وقع السهام فى غلس الظلام.. أهجهم وجبريل معك.. ألق أبا بكر يعلمك هناتهم.. وبني الحسان منيراً فـــى المســـجد ينشـــد عليه شعره.. وكان حسان لا يهجوهم إ لا بالكفر والضلال وسئ العادات والمعتقدات.

فلمـــا تولـــى عمر بن الخطاب الخلافة مر بحسان وهو ينشد الشعر فـــى مسجد رسول الله.. فأنكر عمر عليه ذلك.. فقال: حسان دعني يا عمـــر.. فـــو الله انك لتعلم أني كنت أنشد فى هذا المسجد من هو خير منك.. فما ينكر على ذلك.. فقال عمر: صدقت.

وكـــان النبـــي يسمع الشعر ويتأثر به.. وكانت السيدة عائشة كثيرة الـــرواية للشـــعر.. حـــتى قالوا أنها كانت تروى شعر لبيد.. وتروى

القصـــيدة ستين بيتا.. والقصيدة مائة بيت.. وكانت معجبة بشعر حجية بن المضرب وهو شاعر جاهلى غير مشهور.. وتحض على روايته.. وتقول إنه يعين على البر.. وقالوا: ما كان ينزل بها شئ إلا أشدت فيه شعراً.

كذلـــك كـــان أبو بكر وعمر وعلى وعبد الله بن عباس وغيرهم.. يحفظـــون الشعر ويروونه.. ويستشهدون به.. ويطربون له.. وبعضهم يقـــول: كـــان عمـــر مشهور بالرواية وبراعة الاستشهاد.. تمثل مرة بشـــعر.. ثم قال لفرات بن زيد الليثي: أتدرى من يقوله.. قال لا أدرى يـــا أمير المؤمنين.. قال عمر: هذا شعر أخيك قسامة بن زيد.. وكتب إلى أبي موسي الأشعرى.. " مر من قبلك بتعلم الشعر.. فإنه يدل على معالى الأخلاق.. وصواب الرأى.. ومعرفة الأنساب".

أمـــا على ابن أبي طالب فكان خطيباً يكثر فى خطبه من الاستشهاد بالشـــعر.. وكـــان يقـــول شـــعراً.. ولكنه لم يبرع فيه.. لهذا لما أشار المســـلمون على النبي بأن يعهد إليه بالرد على شعراء المشركين قال: لا.. ليس هناك.. أى أنه لا يقوم لهم.

وكـــان ابـــن عباس يحفظ شعراً كثيراً.. يستعين به على فهم القرآن وتفســـيره.. ويقـــول: إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه.. فاطلبوه فى أشعار العرب.. فإن الشعر ديوان العرب.. وكان إذا سئل عن شئ من القرآن أنشد فيه شعراً.

وقـــيل لسعيد بن المسبب: أن قوماً بالعراق يكرهون الشعر.. فقال: نســـكوا نســـكاً أعجمياً.. وهكذا مضي المسلمون على ميلهم إلى الشعر والتغنـــي بـــه والطـــرب لسماعه.. واتخاذه منهجاً من مناهج الدراسة العلمية والأدبية والخلقية.

وهكـــذا...

أيحـــق لإنســـان بعد هذا أن يحكم على الإسلام حكماً عاماً أنه حرم الشعر.. أو أضعفه..أو حقر من شأنه.؟

وهـــل مـــن الإنصـــاف أن يذهب أحد إلى أن الإسلام قيد الشعراء وضيق عليهم مجال القول؟

لقـــد وضح أن الإسلام شجع الشعراء فى عهد الرسول وبعده.. وأن الرسول نفسه.. وأكابر صحابته كانوا يهشون للشعر ويطربون له.

وإذا كـــان الإسلام قد نهي عن بعض موضوعات الشعر.. فإنه كان يـــتوخى مـــن هذا الفن الرفيع أن يكون من الوسائل إلى تربية الفرد.. وترقـــية الوجـــدان.. والســـمو بالمجتمع.. وإقامة صرحه على دعائم وطيدة من الحق والخير والعزة والقوة والمجد.

قلـــت لمســـيو: شـــارل ســـايمون الـــذى كان يتابع كلماتي بشغف واهتمام...

قلت :

- أرجـــو أن أكـــون قد أجبت عن الموضوع الذى يشغلك.. وأكون أوضحت وأفهمت.

قال:

- أجبت وأوضحت وأفهمت.

خرجـــنا من مكتبة الإسكندرية متجهين إلى بيتي.. بعد أن اتفقنا أن نتـــناول طعـــام العشـــاء معاً.. مررنا بمجمع الكليات.. عبرنا حدائق الشـــلالات.. وصـــلنا إلى الكوبرى " أبو عين واحدة" الذى يضعنا فى

بداية حى محرم بك.. مشينا فى شارع منشه الذى يقع فيه المبني الذى أسكن أحد شققه.. ألقيت التحية على المهندس جورج والمهندس مينا وهما من ملاك البرج.. صعدنا.. تقدمته إلى داخل الشقة.. استقبلنا تناسم ومرام اللتين سلمتا على استحياء ثم انصرفتا.. ومهاب الذى أشار إلى مسيو: شارل سايمون قائلاً:

- ده خواجه يا بابا..؟

ضحكت .. وأصابع يدى تفرك رأسه..

طلبت من مسيو: شارل أن يتفضل بالجلوس.. وبعد دقائق جاءت زوجتي...

قدمتها:

- الدكتورة: أستاذ الأدب والنقد

نهض.. أحنى رأسه مرحباً.. ولم يمد يده.. فقد أدرك من الحجاب الشرعي.. أنه لا يجب أن يفعل.

جلسنا.

قلت:

- للدكتورة بحث شيق عن اليهود الذى عاشوا فى الإسكندرية.. يدلل على سماحة الإسلام وقدرته على قبول الآخر دونما خوف أو تعصب.. و.. قاطعني مسيو: شارل..

قال مبتسماً:

- أرجو من الدكتورة أن تعرضه لنا.

نظرت إليّ مستفسرة..

أومأت لها أن تفعل..

قالت..

قبل نحو ١٥٠ عاماً وفى مجتمع الإسكندرية ذى الطابع العالمي.. عاشت جاليات من أجناس مختلفة.. اختلطت دماؤهم وثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم فى نسيج إنساني مميز.. ترعرع ونما بحب فى عباءة الإسكندرية السمحة.. فكانوا يتفاخرون بهويتهم المستمدة من ظلال تلك العباءة.. أرمن ويونانيون وإيطاليون وأقباط ومسلمين وسواهم.. خطفهم بريق المدينة الساجية على صدر البحر المتوسط.. فسكنوها جسداً وروحاً.. حتى حينما عصف بهم تيار التأميم أوائل خمسينات القرن الماضي وهاجروا فى إنحاء متفرقة من العالم.. لم يخب هذا البريق فى دمائهم.. فظل الحنين إلى الإسكندرية يطاردهم.. فمنهم من ألف كتباً أو كتب مذكراته ونشرها.. ومن أسس جمعيات للسكندريين المهاجرين وحتى الآن يحرص الكثير منهم على زيارة الإسكندرية.. مسقط رأسهم ومرتع صباهم.. ليستعيدوا دفء علاقات إنسانية حميمة تركت بصماتها على منازل ومقاه وشوارع ومساجد وكنائس ومعابد.. تنطق بروعة الميراث الثقافي والروحي للإسكندرية.

عاشت الجاليات جنباً إلى جنب مع السكندريين.. وبرغم ذلك حافظت كل جالية على عادتها ولغتها وحياتها الاجتماعية.. ومناسك عباداتها وتاريخها وحتى المقار الخاصة بها.. وكانت اللغة الفرنسية هى اللغة الرسمية بين الجاليات.. ولعبت هذه اللغة دوراً أساسياً فى توحيدهم.. كما كان معظمهم يعرف شيئاً من العامية المصرية بحكم الاحتكاك اليومي المباشر.

الجالـية اليهودية فى الإسكندرية تعتبر مثالاً قوياً على هذه الحالة.. حيـث تمـتع اليهود بكامل حريتهم فى ممارسة شعائرهم الدينية وبناء المعـابد وإقامـة المحـافل.. وقد ساندتهم الحكومة فى تيسيرات البناء ومـنحهم الأرض مجانـاً.. ممـا أسهم فى انتشار المعابد اليهودية فى مختلف مدن مصر وبخاصة القاهرة والاسكندرية.. وحتى عام ١٩٣٠ م كـان هـناك ٢٠ معـبداً فـى الإسكندرية.. تنتمي إلى مجموعات ومجـتمعات متبايـنة مـا بين يهود مغاربة وأتراك وإيطاليين وأسبان وفرنسـيين.. ويهود مستعربين.. وكانت الطائفة لها مجلس عام يتكون مـن حاخـام باشـي.. ونائب الحاخام.. ورئيس ونائبه.. وسكرتير.. واتخـذت الطائفـة مـن معبد" الباهو حنابي" بشارع النبي دانيال مقراً لهـا.. وهو من أقدم وأشهر معابد اليهود فى الإسكندرية.. المعبد الذى شـيد عـام ١٣٥٤م.. تعـرض للقصف من قبل الحملة الفرنسية على مصـر.. عـندما أمر نابليون بقصفه لإقامة حاجز رماية للمدفعية بين حصـن كـوم الدكـة والعجر.. وأعيد بناؤه مرة أخرى عام ١٨٥٠م بتوجيه ومساهمة من أسرة محمد علي.

فى المعبد التقيت رئيس الطائفة اليهودية الحالي د. ماكس سلامة.. طبيـب الأسـنان المعـروف بالإسكندرية – ٩٢ عاماً– استقبلتني مايا خادمـته وهـى مسـيحية من سرى لانكا.. ماكس استعاد معي بعض الذكـريات.. يقـول ماكس الذى يرأس الطائفة منذ ٦ سنوات.. كانت الجالـية الـيهودية من أكبر الجاليات وأهمها بالإسكندرية.. وكان لهم محـال تجارية مثل هانو وشيكوريل وعدس.. وكطبيب أسنان كان من بيـن أهـم زبائني الملكة فريدة والملك فاروق وأفراد الأسرة الملكية.. وعائلـة الأمـير طوسـون.. وعائلة عبد الناصر.. ولم تكن هناك أى

عداوة بيننا كيهود وبين المسلمين.. فقد بلغ عدد أفراد المجتمع اليهودى ذات مرة ٨٠ ألف نسمة.. لكن السياسة تدمر كل شئ إنساني.

وبحنين جارف يتابع ماكس.. أفتقد حفلات الأعياد.. فحتي عام ١٩٣٥م كنا نحتفل كمصريين بالأعياد معاً.. وكان يقوم كيبور - عيد الغفران - هو بمثابة احتفال كبير فى الإسكندرية.. كانت الجماهير: سواء مسلمين أو أقباط أو يهود يسيرون فى ميادين المنشية وحتى المعبد فى محطة الرمل.. الآن لا توجد هذه المظاهر الاحتفالية.. ولكن فى أوقات الأعياد يأتي حاخام من إسرائيل لقيم الشعائر الدينية.. وتأتي بعض الوفود للاحتفال بشكل يكاد يكون سرياً.. الآن لا يوجد من يأتي للصلاة.. نظراً لتناقص عدد اليهود المقيمين فى الإسكندرية بسبب الهجرة إلى إسرائيل.. فقد أصبح عددهم الآن: ٤ رجال و ٢٠ سيدة من أصل يهودى.. ولكنهن متزوجات من مسلمين أو من مسيحيين.. وكل الشباب هاجروا.

حول أنشطة الطائفة.. يقول ماكس أنها فى تقلص متلاحق.. ولا توجد حالياً سوى جمعية خيرية واحدة فقط.. يحتضنها المعبد - تتولى مساعدة ما تبقي من اليهود.. واستطيع أن أقول منذ الستينات توقف النشاط بانغلاق النوادى والمستشفيات والمدارس.. بعد أن كان للطائفة نشاط ملحوظ فى مجال الخدمات الاجتماعية.. حتى المعابد اليهودية الأخرى التى أنشأتها عائلات يهودية كبيرة.. تم بيعها أو تهدمت.. وتتلقي الطائفة بعض المعونات من مؤسسات يهودية فى الخارج لتعينها على سد احتياجات المحتاجين إلى جانب ما تدره أملاك الطائفة وهى عبارة عن بعض العمارات التى تؤجرها الطائفة منذ سنوات.

أمـــا السيد يوسف – ٥٤ عاماً– القائم بأعمال الطائفة.. وهو رجل مـــثقف ذو شخصية اجتماعية.. يجيد أكثر من لغة.. وله صداقات مع أنـــاس فى دول كثيرة.. ولد بالإسكندرية لأب وأم يهوديين.. والده كان تــرزياً مشـــهوراً.. وكـــان مصمم ملابس أسرة عبد الناصر.. درس يوســـف فـــى إحدى المدارس الفرنسية بالإسكندرية.. يؤكد يوسف أن أفـــراد الجالية مصريون يدينون بالولاء لمصر.. وهم مخلصون لها – يقـــول: أنه لا يملك الكثير من الذكريات.. لكنه يروى أنه فى المرحلة الابتدائـــية حوالـــي عام ١٩٦٥م كان تقريباً الطالب الوحيد الذى يدين بالـــيهودية فـــى المدرسة.. وكان فى حصة الدين.. يذهب الطلاب إلى حصـــة الدين الإسلامى أو المسيحي.. بينما .. كان يجلس هو فى فناء المدرســـة.. ويذكـــر أن المدرسين عرضوا عليه أن ينضم إلى أى من الجانبيـــن.. وبـــالفعل كان يحضر مرة حصة الدين الإسلامي.. ومرة أخـــرى للديـــن المسيحي.. مما جعل لديه خلفية بالديانتين وتعاليمهما.. وهذا ما مكنه من الاندماج مع اصدقائه من الجانبين.

بمدخـــل المعبد. تطالعك آيات قرآنية معلقة فى حجرة.. إنها حجرة الأســـتاذ عبد النبي أبو زيد.. المسؤول الإدارى بالمعبد.. يعمل به منذ ٢٠ عامـــاً.. اســـتقبلني فى مكتبه ببشاشة.. وعندما سألته عن المعبد.. قال:

جميع العاملين هنا مسلمون.. ومعنا محاسب مسيحي.. والجميع هنا مـــتحابون.. أما عن المعبد فهو مغلق معظم العام.. ولكن يشعر الجميع بالســـعادة حقـــاً عـــندما تأتي الوفود للاحتفال برأس السنة اليهودى فى شـــهر ســـبتمبر – أيلـــول– وعـــيد الغفران والحانوكاه والبوريم وعيد المظلة وسمحات أورات وعيد الفصح– بيسح.

أثــناء تجوالي بالمعبد قابلت سيدة مسنة لطيفة تعلو وجهها ابتسامة رقــيقة.. هى لينا ماتاتيا- ٨٣ عاماً - تعمل بالمعبد منذ أكثر من ٣٠ عامــاً.. وهــى المسؤولة عن سجلات الجالية اليهودية بالإسكندرية.. وعن تعداد المواليد.. وتوثيق الزيجات والوفيات.. تقول:

أنــا مــن مواليد الإسكندرية لأب وأم يونانيين...استقيت عشق مصر والإســكندرية خاصــة منهما.. لذا لم أغادرها.. فقد عشت بها أجمل أيام حياتــي مــع زوجــي المسلم.. ولم نكن نعاني يوماً من أى مشاكل.. كان المعــبد هنا يعج باليهود المصريين الذين يأتون للصلاة كل سبت.. وكان لا يتســع لهم.. وكانت تقام به حفلات الزواج بحضور الفتيات والسيدات فى قمة أناقتهن.. وكانت تشبه أيضا احتفالات الزواج عند المسلمين.

وكانــت العروس تذهب فى الليلة السابقة للاحتفال بالزواج إلى الحمام - الميكفا- أى الحمام الديني فى صحبة أمها وحماتها وجدتها وعماتها.. تحمل ســلة من الصفصاف بها صابون معطر فاخر ومناشف وزجاجة ماء كولونيا أو مــاء ورد ولــيفة جديدة وقبقاب خشب مبرقش مطعم بالصدف أو بكرات زجاجــية ملونة.. وطشت صغير من النحاس أو الفضة.. ثم تنزل إلى مسبح شعائرى.. وبعد طقوس التبريك يقدم شراب منعش وقهوة أو شاي مع الجاتوه والحلــوى والملــبس والبونــبون.. ثم تتوجه النسوة بالعروس عائدات إلى منزلها.. حيث يستقبلهن الجيران بالزعاريد والتهاني.. وجرت العادة أن يعقد الحفــل الدينــي فى شقة أحد العروسين.. أما حفل الاستقبال فيقام فى خيمة داخــل فناء المعبد.. أو شرفته.. وتقدم الموسيقي العبرية.. وغالباً ما يعزف لحــن البولكا أو موسيقي المازوركا مع الاستعانة بمغنية شرقية وأفراد تختها لإحياء الليلة.. وينفض الحفل حوالي الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً.

وتســتدرك ماتاتــيا: كل شئ اختلف عن الماضي فلا توجد حفلات زواج.. وقــد اقتصرت الصلاة على الأعياد والمناسبات الدينية- ونحن لا نــأكل طعامــاً دينــياً.. وبين الحين والآخر يأتي لنا أصدقاء بطعام الكوشــير.. المحلل دينياً.. وهو عبارة عن اللحوم والخبز الذى تجرى عليه بعض الطقوس الدينية.. فنتناوله مرة أو مرتين فى السنة.

يــؤدى الــيهود الصــلاة مرتين فى الصباح وفى المغرب.. يمكن تأديــتها فــى المــنزل.. ولكــن الصلاة الجماعية تتم فقط يوم السبت ويلــزمها عشــرة رجال على الأقل لتصبح مقبولة شرعاً.. وقد توقفت هــذه الصلوات الجماعية.. بسبب كبر السن لمعظم من بقي من اليهود.. كما أن عددهم أصبح أقل من ١٠.

ومــن المعــابد الأخــرى العمامة بالاسكندرية: معبد زاراديل الذى انشــأته عائلــة زاراديل عام ١٣٩١.. ومقره فى شارع عمرام بحارة الــيهود فــى سوق السمك القديم.. يحتفظ المعبد بمخطوطتين نادرتين للتوراة بالخط الأشورى.

مــن المعــابد الــيهودية فى الإسكندرية هناك معبد منشه.. أسسه الــبارون يعقــوب دى منشه عام ١٨٦٠م بميدان المنشية.. وهو مبني بســيط مكون من طابقين.. ومعبد جرين الذى شيدته عائلة جرين بحي محرم بك عام ١٩٠١.

أمــا حارة اليهود الشهيرة فكانت مثالاً حياً على أوضاع اليهود فى الإسكندرية واندماجهم مع أهلها المسلمين.. وهى تبدأ من حي الجمرك بــبحرى حتى حى المنشية.. وهى ليست حارة بالمعني المعروف.. بل حــى كامل فيه شوارع وحارات كثيرة متصلة ببعضها بعضاً.. سكنها الــيهود والمســيحيون والمســلمون.. ولا تــزال هذه الحارة محتفظة

بطابعهـــا المعمـــارى وسكانها من الطبقة المتوسطة والفقيرة.. فكانت تقطـــنها الطـــبقة الدنـــيا من الجالية اليهودية.. وكانوا غالباً من اليهود المصـــريين المولد والجنسية.. وكانت العربية لغتهم.. واقاموا علاقات صداقة مع جيرانهم المسلمين والمسيحيين.

يســـترجع عم مسعد الشهير بمسعد روما.. صاحب مقهي بلدى فى حارة اليهود- ٨٣ عاماً- شريط الذكريات قائلاً:

لقـــد كانت أياماً حلوة.. كنا كلنا معا كعائلة واحدة.. ولم يكن هناك فرق بيننا.. كنا نتزاور ونحتفل معاً بالأعياد.. كانوا يحتفلون معنا بعيد الفطر.. وكنا نتبادل الكعك.. وهم كانوا يقدمون لنا كعك عيد الغفران.. كذلك المسيحيون.. لذا كانت الحارة كلها أعياد.

ويســـتطرد عـــم مســـعد: لقد عشت وتربيت بينهم.. وكان معظمهم خياطيـــن.. ويبيـــيعون لـــوازم الخياطة.. وكانوا حريصين على أسرار مهنـــتهم.. ويشـــير إلى زقاق أمامه... كان هنا إبراهيم بياع الدقيق.. وبيومي بياع النحاس.. كانت عشرة طيبة.. كنا بنخاف على بعض لما يكـــون فيه مشكلة مع واحد منهم.. كنا ندافع عنهم.. وإذا مرض أحدنا الكـــل يلـــتف حوله.. كنا نقعد على القهوة ونلعب دومينو وكوتشينه.. وكانـــت لهم قهوة خاصة بهم أسمها قهوة إبراهيم صالح.. لكن خرجوا من مصر اتغيروا.

وحول المأكولات اليهودية.. يقول عم مسعد.. كانوا يأكلون مثلنا.. لكن كانت لهم مخابز وجزارات خاصة بهم.. تقدم لحوماً مذبوحة على الطـــريقة الـــيهودية.. فلـــم يكن مسموحا لهم بتناول أى لحوم أخرى.. حيـــث كان أحد الحاخامات يتولى الإشراف على هذه الذبائح للتأكد من مطابقتها للشريعة اليهودية.

تاريخياً عاش اليهود فى الإسكندرية منذ أسسها الاسكندر الأكبر- وشكلوا ربع سكان المدينة القديمة- وشهد العصر الروماني وجود العديد من الجاليات اليهودية الكبيرة.. سكنت مناطق معروفة أطلقت عليها أسماء انبيائها.. وظلت هذه الأسماء متداولة- ولا تزال حتى الآن.. لكن ملامح الجالية اليهودية فى تاريخ الإسكندرية الحديث تشكلت مع نهاية القرن السابع عشر.. حين رحل مجموعة من الصيادين اليهود الفقراء من رشيد وإدكوا إلى الإسكندرية.. لينضموا إلى بضع مئات من اليهود متعسرى الحال.. وأقام هؤلاء الوافدون خياماً لهم فى حى الأنفوشي بمحاذاة شاطئ البحر.. وبشارع الصيادين بالقرب من سوق السمك القديم.. فيما بعد أصبحت هذه الخيام أكواخاً.. تحولت بدورها إلى منازل.. لتصبح حى اليهود بالاسكندرية.. الذى يمتد من حوش النجار وحوش الجعان وحوش الحنفي إلى ميدان وشارع فرنسا.

ومع مرور الوقت أجتذبت الاسكندرية مزيداً من يهود القاهرة والدلتا.. ومن المغرب والعراق وتركيا.. نتيجة للانتعاش الاقتصادى الهائل الذى شهدته.. وانفتاحها على أسواق الغرب.. وقد أقام يهود الطبقة المتوسطة فى حى محرم بك.. حيث شيد أول مستشفي يهودى عام ١٨٩٣م بجهود البارون جاك دى منشه والمعروف الآن بمستشفي الرمد.. وما زال فى شارعى باولينو والرصافة ملجآن للمسنين من اليهود.. إلى جانب العديد من المدارس والمعابد.. بينما أقام يهود الطبقة البوجوزية وسط المدينة بالقرب من شارع النبي دانيال.. ثم توسعت أملاكهم فى منطقة الرمل.

لعب اليهود دور واسطة العقد بين الجاليات المختلفة.. فكانوا بمثابة همزة الوصل بينها .. ساعدهم على ذلك العديد من الأنشطة التجارية

والحرفـــية.. التى انتشرت وسط المدينة.. كميدان محمد على ومحلاته الكبـــيرة.. كمـــا ســـيطر السماسرة وكبار رجال المال من اليهود على البورصة.. لدرجة أنها كانت تغلق أبوابها فى جميع الأعياد اليهودية.. وكـــان مـــنهم أكـــبر تجار القطن.. كما أسسوا العديد من البنوك التى مازالـــت تغلـــق يـــوم السبت.. وكانت محلات المجوهرات وشركات التأميـــن والملاحـــة الـــيهودية تنتشـــر فـــى شـــوارع شريف وتوفيق وسيزوستريس واستانبول.

فـــى الطـــرف الآخر من المدينة نشط يهود الاسكندرية فى الميناء الـــبحرى.. وبعد الحرب العالمية الثانية كانت الطائفة اليهودية بالمدينة مـــن أكـــثر الجالـــيات تألقـــاً ونشاطاً.. فقاموا بتأسيس بنوك: العقارى المصرى. الأهلى المصرى.. التجارى المصرى.

ومـــن أكثر العائلات تأثيراً فى الاسكندرية عائلة منشه.. وعميدها يعقـــوب دى منشـــه.. والـــبارون ليفـــي دى منشه وهو مؤسس البنك العثماني المصرى عام ١٨٧٢.. الذى أقرض الخديوى إسماعيل لتنفيذ مشروعاته النهضوية فى مصر.. لذا سمي أحد أهم شوارع حى محرم بك بشارع منشه.. كما تنتسب منطقة سموحة أشهر مناطق الاسكندرية إلى جوزيف سموحة.. عميد عائلة سموحة التى يرجع نسبها إلى يهود بغـــداد وكـــان رجـــل اقتصـــاد وصناعة.. شيد نادياً رياضياً لممارسة الفروسية.. لازال يحمل اسمه.

كمـــا شـــملت إســـهاماتهم مـــيدان الـــثقافة فنافست الاسكندرية فى عشـــرينات وثلاثيـــنات القـــرن الماضـــي مسارح وصالونات باريس الأدبـــية.. وكـــان من أهم الشخصيات فى تاريخ السينما العربية توجو مزراحي وهو من أسرة يهودية إيطالية.. قدم الحياة السكندرية بتنوعها

فـــى شخصـــية شـــالوم الـــيهودى وصـــديقه جـــنجل المسلم فى فيلمه الترجمان.. ونذكر أيضا الفنانة بهيجة المهدى وأسمها الأصلى هنريت كوهيـــن والتى قامت ببطولة عدة أفلام مع على الكسار.. وكذلك الفنان عمر الشريف أو ميشيل شلهوب.

أسس التعامل مع الآخر غير المسلم:

تـــنطلق فلســـفة الإسلام فى منهجها للتعامل مع الآخر من الأسس التالية:

١- التعارف والتعاون بالبر والقسط: وذلك استجابة لتوجيه القرآن الكـــريم للبشـــرية جمـــيعاً: " **يـــا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثي، وجعلـــناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير**" " الحجرات-١٣".

" **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من ديـــاركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**". سورة الممتحنة – ٨.

ويـــنطلق هـــذا الأساس كذلك من وثيقة المدينة، التى تمثل دستوراً لأهلهـــا.. وقـــد كتبها رسول الله.. صلى الله عليه وسلم.. لسكانها من مهاجريـــن وأنصـــار من جهة... ويهود من الجهة الأخرى.. وجسدت صـــورة الـــتعايش الحضـــارى والـــتعاون الاجتماعي فى ظل الدولة الإســـلامية.. وتضـــمنت تلـــك الوثـــيقة حرية العقيدة والرأى والنفس والمـــال.. وحـــرمة الجوار... ونصرة المظلوم... ومقاومة المعتدى.. وأن يكون سكان المدينة يد واحدة على من يهاجمها أو يحارب أهلها.

٢- **الكـــرامة الإنســانية:** إذ تنطلق فلسفة الإسلام فى خطابها مع الآخــر على أنه جزء من الذات الأصلية من زاوية الكرامة الإنسانية.. بلا فرق بين أبناء دين أو لون أو جنس أو عرق.

يقــول الله تعالي: " **ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلاً**". سورة الأسراء- ٧٠

٣- **الحــرية فــى الاختــيار:** وتنطلق فلسفة الإسلام فى تصورها للآخــر مــن تقريــر قاعدة الحق الطبيعي فى الحرية وحق الاختيار.. وعــدم جواز الأكراه على الإيمان بحال. يقول تعالي:" **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**". سورة الكهف – ٢٩

إن محاولــة جمــع الناس على دين واحد كخيار وحيد لا ثاني له.. يتنافــي مــع المشــيئة الربانية.. ويوقع فى محظور الإكراه.. قال الله تعالــي: " **ولــو شـــاء ربك لآمن من فى الأرض جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين.**" سورة يونس – ٩٩

٤- **الدعوة إلى الله:** ولا شك أن الدعوة إلى الله تعالي.. لا تتم فى الأصــل إلا بالكلمــة الطيبة الحسنة.. لا بالعنف والغلظة.. سواء على مســتوى الأفــراد والجماعــات.. أم على مستوى الدول.. من منطلق عالمــية الدعوة الإسلامية وإنسانيتها... قال تعالي:" **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً..**" سورة الأعراف – ١٥٨

٥- **القواســـم المشــتركة:** وثمــة قواسم مشتركة بين أهل الأديان الســماوية ومــن يلتحق بهم... يمكن أن تجمع بينهم.. وفى مقدمة هذه القواسم.

- التوحيد الكلي... ورأسه الإيمان الكلى بالله... والمسلمون لم يأتوا بدين جديد كلية.. بل هو تجديد لما وجد فى معالم التوحيد فى أديان الرسل السابقين.. وإمتداد جوهرى لدعواتهم.. وقد أمر الله المسلمين بمخاطبة أهل الكتاب بالحسني.. باستثناء من يظلم منهم... يقول الله تعالي: **" ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون"**. سورة العنكبوت - ٤٦

٦- **إنصاف الآخر والموضوعية فى الحكم عليه:** لم يفرق القرآن الكريم بين المؤمن بدين الإسلام وغيره من أهل الأديان.. إذا ما اقترف أى منهم عملاً سيئاً.. إذ تأبي سنة الله العادلة محاباة المسلم علي سواه ما دام الجرم واحد.. قال تعالي" **ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيراً"**. سورة النساء - ١٢٣

٧- **التعايش لا الصراع:** ومن الأسس التى يستند عليها الإسلام.. إيمانه بالتعايش الإنساني بين الأديان المختلفة والحضارات المتباينة.. حيث التعارف والتعاون.. والإسلام لا يؤمن بالصراع الحضارى كحتمية تتبناها.. وتسعي لتطبيقها وفقاً لإيمانها بها قانوناً بين البشر.. ولكن يجب تحرير النزاع حول مسألتين جوهريتين فى هذا السياق:

الأولى: مسألة التدافع الحضارى كسنة كونية تحكم الوجود.. فهذا أمر يقرره القرآن الكريم: **" ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض"** سورة البقرة - ٢٥١

الثانية: مسألة الصراع كحتمية اجتماعية تنفي وجود - ثابت- فى الكون فإن التدافع وفق المنطق الإسلامي لا يعني سوى التعدد..

والـــذى يحفـــظ التوازن للفرقاء المتباينين- كحركة اجتماعية لا تقضي بنفـــي الآخـــر أو استئصاله.. بل تعمل على تحويل مواقع الفرقاء فى إطار التعددية ليس أكثر.

وهكـــــذا:

فـــإن خطـــاب القرآن عن نظرته إلى الآخر من منطلق الاعتراف الكـــامل بذاتيته... وكينونته المستقلة... وحقه فى إقامة الحضارة التى يتمخض اختياره المطلق فى إقامتها.. شريطة عدم تعديها وحدودها أو تجاوزها إلى حقوق المسلم وحدوده.

الحقوق المكفولة للآخر غير المسلم:

تتمـــثل فى: الحرية الشخصية... وما تتضمنه هذه الحرية من حق الانـــتقال والسفر.. والإقامة فى دار الإسلام وحرمة مساكنهم.. وحرية الـــرأى والاجـــتماع والـــتعلم والعمـــل وحماية الشخصية من الاعتداء علـــيها.. وعدم القبض بغير حق... وحق التمتع بمرافق الدولة وكفالة بيت المال.. وقبل ذلك وبعده حرية الاعتقاد والعبادة.

واجبات الآخر غير المسلم:

والقـــاعدة المنطقـــية تقتضي بأن أية حقوق لفرد أو جماعة يقابلها منظومة واجبات.. وهي:

١- أداء الواجبات المالية المقررة عليهم.

٢- التزام أحكام القانون الإسلامي فى المعاملات المدنية وغيرها.. أى التقـــيد بالتعالـــيم الإســـلامية المطبقة على المسلمين.. فيما لا يمس عقائدهم وحريتهم المدنية.

٣- احترام شعائر المسلمين ومشاعرهم.

التعايش الاجتماعي مع الآخر. كيف؟

أولاً: إلقــاء السلام على الآخر ورده: لما فى ذلك من معاني المودة والإحســان.. وخلق السلام الاجتماعي بعد ذلك.. وهو ما يمثل شرطاً أساســياً لنيل الهدف الاسمي وهو دخول الجنة.. مصداقاً لحديث النبي صــلى الله عليه وسلم.. فيما يرويه عنه أبو هريرة.. رضي الله عنه.. أنــه قال." لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شئ إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم".

وفى رواية أخرى " والذى نفسي بيده لا تدخلون الجنة".

ثانــيا: العلاقــات الاجتماعــية: لعــل مـــن أبلــغ أنماط العلاقات الاجتماعــية.. علاقــة النسب والمصاهرة.. وهو أمر تبني عليه شبكة مـــن العلاقـــات الاجتماعية المتحذرة بين المسلم والآخر الكتابي ولهذه العلاقـــات مستلزماتها الأخلاقية.. سواء كان ذلك فى ديار المسلمين أم خارجهـــا.. ولذلـــك فـــبعد المصاهرة يصبح أبو الزوجة الكتابية وأمها جديـــن لأولاد الزوج المسلم.. وأخوانها أخوالهم.. وأخواتها خالاتهم.. ولهؤلاء جميعاً حقوق الرحم وذوى القربي.

لكــــن ....

لماذا أباح الإسلام للمسلم الزواج من كتابية دون العكس؟ والجواب علـــى ذلـــك راجـــع إلى أصل نظرة المسلم إلى الكتابي.. فهو يعدهم أصـــحاب كـــتاب ســـماوى.. مماثل فى الأصل للمسلمين.. ولذلك فإن المســـلم لـــن يضطهد زوجته الكتابية.. لأنه يعلم ابتداء أنها تخالفه فى ديـــنه مـــع جـــواز أن يقترن بها.. ولذلك فإنه سيتيح لها ممارسة حقها

الديني العقدى والعبادى.. من منطلق إيمانه بحرمة التدخل القسرى.. للحيلولة دون ممارستها.. فهل كان سيتأتي ذلك لو أن الكتابي تزوج مسلمة؟ - والكتابي يشكك فى نبوة النبي عليه الصلاة والسلام-

إن التعايش الحضارى والاجتماعي مع الآخر غير المسلم قد جسدها الصحابة الكرام- رضوان الله عليهم- عملياً فى تعاملهم اليومي والمناسبات مع الكتاب وغيرهم.. مثل: تشييع جنائز أهل الذمة وعيادة مرضاهم.. واغاثتهم عند النوازل... والدفاع عن أعراضهم ومنحهم من أموال الصدقة.. إباحة أداء عبادتهم فى أماكن العبادة الخاصة بالمسلمين والعكس.. والسماح لهم بعدم العمل فى أيام عطلهم كالسبت والأحد.. وعدم إلزامهم بما يعتقده المسلم حلالاً أو حراماً فى دينه انطلاقاً من المبدأ الإسلامى القائل: " اتركوهم وما يدينون".

وضع صديقي مسيو: شارل سايمون ابتسامة كبيرة فوق شفتيه وراح يردد:

- برافو... برافو... برافو... مجهود كبير قد تم بذله.

نهضنا إلى مائدة السفرة.. تناولنا أنا ومسيو: شارل طعام العشاء.. وبعد تناول القهوة.. خرجت مع مسيو: شارل.. حيث أوصلته بالسيارة إلى فندق سيسل.. وهو مكان إقامته أثناء وجوده فى مصر.

ودع كل منا الآخر وهو يقول:

إلى لقاء آخر.. إلى لقاء آخر

الفصل الثالث

تلقيت رسالة على بريدى الإلكتروني.. تخبرني بأن مسيو: شارل سايمون.. يرغب فى التحدث إلى عبر شاشة الكمبيوتر من خلال النت..

بعد أن تبادلنا التحية.. عاجلني قائلا:

لقد تابعت عدة حلقات على إحدى القنوات الفضائية.. تناولت المخاطر والتحديات التى تجابه المجتمع الإسلامي.. وراح المتحدث يرفع صوته.. طالباً جمهور المشاهدين باليقظة لما يحاك للإسلام من قبل الغرب وعملائه المقيمين وسط المسلمين.

وقد وجدت أغلب كلامه.. متجني على الغرب الذى يمد يد المساعدة إلى المسلمين فى كل المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية.. يضاف إلى ذلك أن هذا الكلام يوسع الفجوة القائمة بالفعل بين الغرب والإسلام.

أردت أن استبين رأيك فى هذا الشأن.

قلت:

- سبق أن كتبت فى هذا الموضوع.. وسوف أرسل لك الـ File بعد لحظات.. رجاء الانتظار.

المخاطر والتحديات التى تواجه الإسلام:

إن المصدر الرئيسي للإسلام هو القرآن... وقد بقي هذا المصدر صافياً.. وحرص الرسول عليه الصلاة والسلام فى تربيته للمسلمين.. على أن لا يختلط بغيره من المصادر.. لأنه كان يريد أن يصنع جيلاً خالص القلب.. خالص العقل.. خالص التصور.. خالص الشعور.. خالص التكوين من أى مؤثر آخر.

ويمكـــن أن يوصـــف الإسلام من هذه الناحية بأنه رباني النزعة.. لأن تصـــوره للوجـــود بكل خصائصه ومقوماته مستمد من الله.. تلقاه الإنســـان كـــاملاً بخصائصـــه هذه.. ليتكيف به ويطبق مقتضياته فى حـــياته.. ويعنـــي هذا أن المسلم يعتقد أن الله الذى خلق هذا الكون هو الـــذى خلـــق الإنســـان.. وكـ ـ ما فى هذا الوجود يسير على سنة الله مسخراً لصالح الإنسانية.. وهكذا يتحدد مكان الإنسان فى هذا الكون:

إنساناً مستخلفاً من الله فى أرضه.

إن صـــفة الربانية هذه تقف فى مقابل صور الثقافة المادية.. وبينما تهـــتم العقـــيدة الـــتى تبني على أساس من الإيمان بالله بغايات الأشياء وأصولها البعيدة.. فإن المادية لا تهتم إلا بأسبابها ومظاهرها.

ويترتـــب على ذلك أن الفكر الإسلامى لا ينظر إلى الحياة على أنها الغايـــة الأســـمي والمـــثل الأعلـــي.. وإنما على أنها مرحلة لابد من اجتـــيازها بمنتهي الإيجابية والاتقان.. وهكذا فإن المسلم فى أوج قوته وسلطته وسيادته مؤمن بربه خاضع له.. لا يداخله الغرور الذى داخل الغربي حين يسرت له أسباب الحياة وسخرت له الطبيعة قواها.

ومـــثل هـــذه العقـــيدة تجمـــع بين الغايات والوسائل.. وبين العلم والإيمـــان.. وكونها تستمد كيانها من مبادئ الدين لا يعني تخليها عن العقـــل والعلم.. فاعتماد الإسلام عليها واحتفائه بهما أمر لا يحتاج إلى بـــيان.. فالديـــن لـــيس أبداً بديلاً عن العلم والحضارة ولا عدواً لهما.. وإنمـــا هـــو إطار ومحور ومنهج لهما فى حدود إطاره ومحوره الذى يحكـــم شـــؤون الحياة.. إن من الخداع أن نضع كل ما يتصل بالمنهج الإلهـــي فى كفة.. والإبداع الإنساني فى عالم المادة فى كفة أخرى ثم نطلب إلى الإنسانية الاختيار.

المنهج الإلهي ليس عدواً للإبداع الإنساني.. وإنما هو منشئ لهذا الإبداع.. وموجه له الوجهة الصحيحة.. كي ينهض الإنسان بمقام الخلافة فى الأرض.

إن شقاء الإنسانية... فى انفصال العلم عن الإيمان.. وانفصال المؤسسات الفكرية عن الأخلاق والغايات الصالحة.

الإسلام منهج حياة.. منهج حياة بشرية واقعية بكل مقوماتها.. منهج يشكل التصور الاعتقادى الذى يفسر طبيعة الوجود ويحدد مكان الإنسان فيه.. كما يحدد غاية الوجود الإنساني.. ويشمل النظم الواقعية التى تنبثق من ذلك التصور الاعتقادى.. وتستند إليه.. وتجعل له صورة واقعية متمثلة فى حياة البشر.. كالنظام الأخلاقي الذى ينبثق منه.. والأسس التى يقوم عليها والسلطة التى يستمد منها. والنظام السياسى وشكله وخصائصه... والنظام الاجتماعي وأسسه ومقوماته.. والنظام الاقتصادى وفلسفته.. والنظام الدولى وعلاقاته وارتباطاته.

هذا هو الإسلام.....

فلماذا المخاطر والتحديات....؟

نبذة تاريخية:

بلغت الوثنية أوجهاً.. وسيطر نظام الطبقات الجائر... وبلغ ظلم الحكام غايته... وبلغت العصبية القبلية والدموية مداها قبل ظهور البعثة النبوية.. وبدا عالم متداع قد شارف على النهاية.. وكانت كل الأحداث تتمثل فى تطلع إلى رسالة جديدة.. ودعوة البشرية إلى الحق.. وزاد من هذا التطلع اصطدام الفرق فى مختلف الأديان حتى

فقـــد الـــناس ثقتهم بكل القيم والمقدسات.. وكان كل ذلك مقدمة لرسالة ورسول.

رســـالة عالمـــية شاملة بعد أن أنطوت مرحلة الدعوات والرسالات المحـــدودة والجزئـــية والإقليمية.. رسالة تعيد صياغة الفكر الإنساني والحضـــارة .. وفـــق مفهوم التوحيد وتحمل فى أعماقها طابع الشمول والـــتكامل.. ومـــن هنا كان التقاء التاريخ بالإسلام.. التقاء مؤثراً بعيد المـــدي.. وكـــان موقـــع اللقـــاء بعيداً عن تأثير الحضارتين الفارسية والرومانـــية فى جزيرة العرب.. التى لم يكن مجتمعها غارقاً فى تبعية فكـــرية وثنـــية أو مســـيحية أو يهودية.. ولم يكن متحضراً قد عقدته الحضـــارة وأورثـــته الانحـــلال بالإضافة إلى كونه مجتمعاً فقيراً غير مسرف الثراء.

كل هذه الحيثيات مهدت لذلك المجتمع القدرة على تحمل الرسالة.. ولـــواء الدعوة الجديدة.. وبرزت دعوة الإسلام من خلال قيادة الرسول صـــلى الله عليه وسلم ... محمد بن عبد الله ومنهجه القرآني.. لتهدف إلـــى دفع البشرية خطوات إلى الأمام فى طريق الإنسانية.. ومنذ بزغ فجر الإسلام بمولد رسول الله.. وهو بالغ الأثر فى حركة التاريخ وفى تطوير المجتمعات.

ولا شـــك أن الفترة التاريخية التى بدأت من بعثة الرسول صلى الله علـــيه وســـلم إلـــى اختـــياره بجوار الرفيق الأعلي.. هى مرحلة بناء المجـــتمع الإســـلامى الأول.. فقد بني النبي محمد المجتمع المكي فى ثلاثـــة عشـــر عامـــاً.. ثـــم شرع فى بناء المجتمع المديني فى عشرة أعوام.. كانت الأولى: مرحلة بناء الفرد والأخرى مرحلة بناء المجتمع الذى أخرج الأمة الإسلامية التى تعبر عنها بالمجتمع.

وبانقضاء فترة الثلاثة والعشرين عاماً.. كان مفهوم بناء الإسلام قد أكتمل.. وتكونت القاعدة التى اندفع منها الإسلام إلى العالم كله.. واتضحت مقومات الإسلام ومفاهيمه إبان حياة الرسول من حيث كونه ديناً ومدنية وفكراً ومجتمعاً.. وكانت هذه هى الخطوط العريضة لمقومات المجتمع الإسلامى.. والتى لم يدخل عليها أى إضافة جديدة.. إذ أن كل ما جاء من بعد ذلك إنما هو تفسير لها وتوسيع لآفاقها.. وتحليل لوقائعها.. مستمداً من قابليتها للحركة والتطور على الذى أتاحته فى مقوماتها من حيوية.. ومرونة جعلتها قادرة دائما على مسايرة الحياة والإنسان والحضارة على اختلاف البيئات والأزمنة.

وكان الاندفاع من الجزيرة العربية المحدودة إلى آفاق الحضر اتجاهاً طبيعياً.. فبعد أن تكون المجتمع الإسلامي فى قلب الجزيرة من خلال مكة ويثرب.. ثم إسلام الجزيرة كلها وولائها للدعوة الجديدة.. كان طبيعياً أن يتجه الإسلام إلى الآفاق.

وقد عرف المجتمع الإسلامي المخاطر والتحديات منذ نشأته الأولى.. فالدعوة والتى ظهرت فى مكة حاولت أن تنفذ إلى قلوب أهل مكة وعقولها.. فلما واجهتها المخاطر والتحديات تحركت حركات متوالية.. بالهجرة إلى الحبشة والدعوة خارج مكة فى الطائف.. ثم بالهجرة نحو يثرب حيث قامت هناك لتؤلف الجزيرة ومجتمعها فى وحدة فكر ومجتمع موحد.

ثم كانت حركتها فى أواخر حياة النبي نحو الحضر... نحو الفوهة التى خرجت منها الهجرات المختلفة بغية نشر الدعوة الإسلامية.. والجهاد فى سبيل تحقيق رسالتها.. والمبادأة بالحركة واليقظة.. وإبراز الهيبة الرادعة للمتربصين على الإطراف... وقد أشارت تحركات

الرســول فى حيبر ومؤنته وبعث أسامة.. ورايته منصوبه أمام المسجد وكــان آخر ما أوصي به بالرسول" أنفذوا بعث أسامة" والذى انفذه أبو بكر فى أول أعمال ولايته.. كانت كل هذه الإرهاصات توحي بالاتجاه الــذى ينبغــي أن يتجه إليه الإسلام.. أن ينفذ من الجزيرة إلى دولتي الفرس والروم المتاخمنين.

ولا شــك أن هاتيــن الدولتين قد أحستا بخطر الدعوة الإسلامية.. وكــان لابــد لهــا أن تفكر طويلاً فى أمر الإسلام ومدى الخطر الذى يترتــب على وجودها.. ومن ثم بدأت تتآمر للقضاء عليه.. وكانت هذه ثانية التحديات التى تواجه المجتمع الإسلامى فى مهده.

فقــد شــهدت الجزيــرة العربية انتفاضة معادية للإسلام فى شتي ارجائهــا.. عــدا مكــة والطائف... وكان التحدى خطيراً.. أعقبه قيام حــروب الــردة التى انتهت بتوحيد الجزيرة وإعادتها للإسلام... فيما ســمي بحروب التوحيد.. والتى خرج بعدها الإسلام إلى آفاق الأرض فــى موجــات متتالية إلى العراق ودمشق ومصر وفارس من عام ١٢ إلــى عام ٢٣ هـــ... ثم موجه ثانية من عام ٤٠ إلى عام ٥٠ هــ فى شمال إفريقية.. وموجه ثالثة من عام ٨٣ إلى عام ٩٣هــ إلى الأندلس غــرباً والســند شــرقاً.. ولــم تلبث راية الإسلام أن رفعت من حدود الصين إلى حدود فرنسا..

هذا الصدام بعالم الغرب المسيحي هو من المخاطر والتحديات التى بــرزت مــع ظهور الإسلام.. ولا زالت تناهض مجتمع الإسلام حتى وقتــنا الحاضــر.. فهناك معركة تحد من نوع خطير بين عالم الإسلام وعــالم الغرب.. بين الإسلام كرسالة ونظام فكره وبين الغرب وفكرة وحضــارته الــتى ابتدعــتها مــن حضــارة الإسلام نفسه.. كل ذلك

والمجتمع الإسلامى فى مرحلة انصهار للفكر الوافد وتمثل للقيم الإسلامية.

وقد خالف المسلمون القاعدة الاستراتيجية الحربية.. التى تقضي على المحارب بأن يركز قواته فى ميدان واحد.. فقاموا بدفع قواتهم فى ميدانين واسعين في وقت واحد.. ومهما يكن من العوامل التى يوردها المؤرخون تفسيراً لهذا النصر... فإن العامل الأول والأعظم هو الإيمان العميق بالله... والثقة فى نصره.. والتماس الشهادة فى سبيل نصرة الإسلام.. والحق أن موجة توسع المجتمع الإسلامى كانت حركة عدل.. ورحمة.. فقد صادفت أقطارا غلبت عليها قوى الظلم والاضطهاد.. فكانت دعوة الإسلام متنفساً من المنضمين لهم حرية الأديان والفصل فى شؤونهم على قانونهم.. جنباً إلى جنب مع شرح أهداف الإسلام وتطبيقاته فى المجتمع الإسلامي.

ومنذ أن توقف التوسع الإسلامى.. إلى بدأ الغزو الخارجي لعالم الإسلام بالحملات الصليبية.. كانت عمليات البلورة والأنصار الفكرى والاجتماعي تحاول أن تعيد صياغة مجتمع موحد.. وعقلية متقاربة.. وكانت الأجناس تتلاقي من عربية وفارسية وتركية وبربرية... لتنصهر فى بوتقه الإسلام ومجتمعه الجغرافي.. لتكون أمة واحدة ذات عقلية واحدة..

وتحقيقاً لقوله تعالي: **" هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون".** سورة الأنبياء – ٩٢

ولما بلغت موجة المد الإسلامي غايتها.. بدا أن العوامل المختلفة قد أخذت تتجمع محاولة أن توقفها.. وتصدها.. وذلك بزرع التحديات والمخاطر فى طريق المد الإسلامي من ناحيتين.. تحد داخلي يتمثل

فـــى حركات تحمل طابع التآمر السياسي على نظام المجتمع الإسلامي ودولته من البابكية والقرامطة والباطنية.

وتحد خارجي فكرى يحمل طابع الشعوبية والتآمر على قيم الإسلام ومفاهـــيمه.. وكانـــت أغلـــب هذه الحركات تجمع بين التآمر السياسي والتشـــكيك الفكـــرى.. ويستهدف ذلك القضاء على الإسلام.. بالقضاء على دولته وعلى مفاهيمه.

وقـــد امـــتدت هـــذه التحديات طوال تاريخ الإسلام.. وامتدت معها المقاومـــة وردود الفعـــل.. من خلال جبهة المفكرين والعلماء والدعاة الذيـــن يمكـــن أن يطلق عليهم المصلحون أو المجددون... وكانت هذه الجـــبهة تحمل لواء العمل لمجابهة هذه المخاطر والتحديات.. التى هى أشد عنفاً من الحملات العسكرية على مجتمع الإسلام.

ولـــم تكن التحديات والمخاطر فى مجابهة الإسلام أمراً مستغرباً.. بـــل علـــى العكس من ذلك كان أمراً طبيعياً.. إذ أن أى قوة جديدة من شـــأنها أن تغير مجرى التاريخ.. وتفرض كيانها.. إنما تقيم هذا الفعل علـــى أرض الواقـــع مؤثرة فى الأوضاع القائمة بالتغيير أو بالإزالة.. وبالـــتحويل.. ولم يكن فى الإمكان أن يقوم هذا الفعل من فراغ.. ومن هـــنا كـــان للإســـلام ردود على هذه التحديات والمخاطر فى البيئات المخـــتلفة الـــتى سيطر عليها والأديان التى واجهها.. والقوى الحاكمة التى أزالها.. لقد قاوم الوثنية والمجوسية وأزال امبراطورية الرومانية عـــن مـــناطق اســـتعمارها فى الشام ومصر وافريقيا.. ومن هنا كانت مقاومة الإسلام بالحرب هي العمل الأول.

ففـــى الموجـــة الأولـــى تقدمت قوة الإسلام لحدود الشام والعراق لمواجهـــة نفـــوذ الدولـــة الرومانية.. وإلى حدود العراق لمواجهة نفوذ

الدولـــة الفارسية.. واصطدم المسلمين بالروم فى أجنادين واليرموك ثم ســقطت القــدس.. ثــم استسلمت مصر لتخرج من ظلم الرومان بعد معــارك دامـــية.. بينما استأنف المسلمون الزحف على فارس وكانت معركة القادسية عام ١٦ هــ من أعنف المعارك.. تلتها معركة نهاوند عـــام ١٩هــــ.. حيث تم الاستيلاء على الاهواز.. ونتيجة لهذه المعارك دانت الامبراطوريتان.. وساد الإسلام.

تابع المسلمون التوسع بمعركة ذات الصوارى ٣١هــــ... وانضمت بـــرقة وجـــزء من النوبة وأرمنية وطبرستان.. وتخطت الجيوش نهر جـــيحون.. وســـقطت بلخ وكابوله وغزنه من بلاد الترك.. ومن البحر سقطت قبرص عام ٢٨هــــ... وتجددت الموجه فى عهد عبد الملك بن مـــروان وابـــنه الوليد.. لاستكمال جناح الفتح إلى الاندلس والآخر إلى السند والهند وبلاد الصين.

ولكـــن هـــذه الموجه الأخرى لم يكن الإسلام ويعتمد على القوة كما فـــى الجولـــة الأولى... بل بدأ بخطوات جديدة وقوة ذاتية من التوحيد والعدل الاجتماعي والمساواة ليحقق توسعات فى أرض لم يكن للإسلام فيها دولة أو كيان سياسي.

وقـــد ســـقط الـــنظام الأمـــوى كـــتطور طبيعـــي لحركة المجتمع الإســـلامى.. بتحقـــيق كسر القيود المفروضة والتى كانت تحول دون اشـــتراك العناصر المختلفة فى الحكم.. على قدم المساواة وبلا تفرقة.. ووفـــق مفهوم الإسلام ودون سيطرة العرب على شئون سائر المسلمين واستعلائهم عليهم.

ومع أن النظام العباسي قد تلافى أخطاء الحكم الأموى.. فإن الفرق المتعارضـــة التى تصارعت حول سلطان الدولة.. قد برزت بشكل لم

يسبق له مثيل... مما جعلها تغرس كثيراً من المخاطر والتحديات أمام المجتمع الإسلامي منذ ذلك التاريخ.

غير أن هذا الانقسام السياسي وغلبة الترف وضعف القوى العسكرية.. أغرت القوى المتربصة بالإسلام... للانقضاض عليه فى غزو بداهيناً لأول وهلة من جهة الحدود البيزنطية وجبهة الاندلس... فى محاولة لحصر الإسلام فى أفريقيا وآسيا... حتى تمكنوا من الوصول إلى أهدافهم بالحروب الصليبية التى غزت المشرق.. وكان يجب على المجتمع الإسلامي أن يمر بمرحلة الانصهار.. بدخول الفكر والثقافة والأديان التى تتبناها الشعوب التى انضمت إلى الإسلام... وحينما لم يحدث هذا الانصهار.. انقسم عالم الإسلام إلى عدد من الدول المستقلة: كالدولة الأموية فى الاندلس.. والأغالبة فى تونس والادارسة بمراكش والطاهرية فى خرسان والطولونية فى مصر ثم الفاطمية... والحمدانية فى حلب والسلاجقة.

واستطاعت هذه الدول على تفرقها تجديد شباب الإسلام.. وعملت فى مواجهة مخاطر وتحديات الحضارة والسياسة الغربية المناهضة للمجتمع الإسلامى.. وقامت حركة التدوين والترجمة والتأليف.

وكان الدفاع عن الإسلام ومواجهة تحديات الأديان والعقائد والمذاهب القديمة... واستصفاء العصارات منها وفق مفهوم الإسلام.. وداخل إطاره القائم على التوحيد... ومن ثم مقاومة حركات الانقضاض من الخارج المتمثلة فى مواجهة البيزنطيين عام ٣٣٣هـ والحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس من عام ٤٨٩هـ... وسقوط طليطلة عام ٤٧٨هـ.

وظلت مجالات التقدم والتجديد مفتوحة فى أرجاء المجتمع الإسلامي... للإضافة والنهوض.. وأصبحت عناصره عموماً قادرة على الوصول إلى الحكم والسياسة.. عدا الخلافة التى ظلت تمثل العباسيين حتى سقوط بغداد عام ٦٥٦.

ولم يقف التحدى الغربي لمجتمع الإسلام عن التهديد باستعادة ما كان تحت يد الرومان منذ ظهور الإسلام.. ولذا كان لزاماً على الدولة الإسلامية مواجهة هذا التحدى.. بمحاولة استئصال الرومان عبر محاولات ضخمة لتطويق بينزنطة إبان حكم الخليفة عثمان... ثم استؤنف على يد معاوية بنظام الشواتي والصوائف ثم المحاولة الكبرى للاستيلاء على القسطنطينية بالأسطول الإسلامي.. وقيام الرشيد عام ١٨١هـ بإخضاع الروم وإجبارهم على دفع الجزية... واعقبه المعتصم بفتح عمورية عام ٢٢٣ هـ... ثم جاءت مقاومة سيف الدولة الحمداني عام ٢٩٣- ٣٨٠هـ بالغة الأثر فى تاريخ الإسلام...

إذ كان مقدمة لمشروع غربي ضخم لغزو الشرق الإسلامي بالاشتراك مع البيزنطيين... لم يوقف من خطره ويؤخره إلا ظهور السلاجقة الذين صمدوا ببسالة.. وجددوا شباب الإسلام فى وجه الدولة البيزنطية... وحققوا انتصارات هامة كان أكبرها موقعة ملاذكرد التى أسر فيها الامبراطور رومانوس عام ٤٦٣هـ.

وكان لموقعة ملازكرد أعمق وقع فى أوروبا... فقد بدا للغرب أن سيل الغزو الإسلامي ينذر باقتحام الدولة الرومانية الشرقية والاندفاع فى أوروبا.. هنالك تعالت صيحات التحذير.. وجرى إعداد مخطط الغزو الصليبي الذى امتد بجناحه إلى المشرق والمغرب.

واعتبر بحق أكبر تحد للمجتمع الإسلامي فى الوقت الحاضر.

وهكـــذا زاد خطـــر الموقف بين المشرق والمغرب فى طرفي عالم الإســـلام.. بمحـــاذاة الدولة الرومانية الشرقية المنهارة ومحاذاة فرنسا علـــى حدود الأندلس.. مما هيأ الفرصة لاندلاع الحروب الصليبية فى أواخـــر القـــرن الخـــامس واســـتمرت خلال القرنين السادس والسابع الهجـــرى.. والـــتى انتهت بهزيمة ساحقة فى المشرق للقوى الغربية.. وبتصفية الأندلس كجزء من عالم الإسلام فى أراضي الغرب.

غـــير أن الحـــروب الصليبية نفسها كانت مقدمة لموجة جديدة شابة فى عالم الإسلام.. هى موجة الوحدة الإسلامية العثمانية.. التى توغلت فـــى أوروبـــا وســـيطرت على اقدارها خمسة قرون كاملة.. كرد فعل للحروب الصليبية.

ويـــبدو واضـــحاً مـــن الحـــروب الصليبية أنها كانت مليئة بروح التعصب والانتقام.. بينما كان التوسع فى عالم الغرب رحيما عادلاً...

ولـــم يمـــض كثـــير وقـــت.. حتى استولى المغول على بغداد... واســـقطوا الخلافـــة العباسية عام ٦٥٦هـــ.. وكانت مصر آنذاك القوة المعـــتمد علـــيها فى العالم الإسلامي.. فهزمت المغول شر هزيمة فى عيـــن جـــالوت عام ٦٥٩هـــ... وكانت قوة المماليك فى مصر تسيطر على مقدرات العالم الإسلامى وتحمل لواء المقاومة.. الممثلة فى سيف الديـــن قطـــز.. والظاهر بيبرس وقلاوون والناصر.. وامتد هذا النفوذ واســـتمر حتى برزت المقاومة الإسلامية البدوية وهي قوة العثمانين.. ويمكـــن القـــول أن عصر الوحدة الإسلامية العثمانية قد أمضي القرن الثامـــن والتاسع والعاشر فى مكان القوة والصدارة والتوسع...والتوغل فـــى أوروبـــا حيـــث استطاعت رفع راية الإسلام.. وأن تسيطر على الـــبلقان والصـــرب وتصـــل فيـــنا ثلاث مرات... وحققت بذلك وحدة

إسلامية على أنقاض التفكك الذى واجهه عالم الإسلام بعد ضعف قوى المماليك.. التى استنفذت فى مقاومة الصليبيين والتتار.

وكـــان قيام هذه الوحدة مرحلة استقرار فى عالم الإسلام.. وسيادة على البحر الأبيض المتوسط.. واستطاعت أن تحيل البحر الأسود إلى بحـــيرة إسلامية.. وقد استبسلت القوى العثمانية واجتازت البوسفور... واحتلـــت القسطنطينية حاضرة وعاصمة الدولة البيزنطية الشرقية عام ٨٥٧هـــ.

فكـــان ذلـــك قمـــة الموقف بالنسبة للغرب.. إذ بدأت حركة إجلاء المســـلمين عن الأندلس.. ولم يمض أكثر من أربعين عاماً حتى طويت صفحة الإسلام فى الاندلس.. وبالرغم من تجمع قوى الغرب وتوحدها فـــى وجه الزحف العثماني.. فإن العثمانين.. ظلوا قادرين على كسب النصـــر.. ممـــا حـــدا بأوروبـــا لفتح جبهة أخرى عن طريق أسبانيا والبرتغال فى الكشف الجغرافي.. لتطويق المجتمع الإسلامي.

وبســـقوط الاندلس.. كانت فكرة الغزو الاسباني البرتغالي للمجتمع الإســـلامي قـــد خطت أولى خطواتها.. وذلك بوصول فاسكو دى جاما لـــرأس الـــرجاء الصـــالح عام ٩٠٤ هـــ لإحكام الحصار الاقتصادى للمجـــتمع الإســـلامي.. وصـــرف مجرى التجارة العالمية عن البحر الأبـــيض المتوسط وموانئه الإسلامية.. وقد استطاعت فارس أن تحتفظ بســـلطانها بعـــيداً عن العثمانيين وأن تقيم الدولة الصفوية... أما الهند الإسلامية فقد أقامت هى الأخرى دولة المغول الكبرى التى ظلت قائمة حتى أزالها الاستعمار البريطاني للهند.

وقـــد صـــاحب هـــذا الغـــزو فى عالم الإسلام حركة انتشار ذاتية للإســـلام خـــارج دائـــرة عالم الإسلام.. إذ عمل المسلمون على نشر

الإســلام فى بلاد غرب أفريقيا وجزائر الهند الهولندية وجزر الفلبين.. وقد قام بعبء هذه الحركة عدد غير قليل من التجار والحجاج والعلماء علــى اختلاف الأجناس.. وكان للسنوسيين دور ضخم فى هذا العمل.. وهم الذين اخرجتهم زوايا الصحراء.

ولــم يــتوقف التوسع الذاتي عند أفريقيا وحدها.. بل امتد إلى بلاد التــتر فــى روسيا وفى الصين.. وهنا يبدو الإسلام ومجتمعه مجابهاً للــتحدى نفســه.. ففى الوقت الذى كان الاستعمار الغربي الزاحف فى غــزو جديــد يطــوق مجتمع الإسلام... ويسيطر على مقدراته.. نجد الإســلام يشــق طــريقه فى قلب إفريقية ويحقق انتصارات جديدة فى ارخبــيل الملايــو.. وشــمال شرق آسيا.. وهى ظاهرة طالما سجلها الإســلام فــى طول تاريخه.. كرد فعل لكل المخاطر والتحديات التى يتعرض لها.

وبعد حركة التطويق التجاري والاقتصادى لمجتمع الإسلام... التى انطلقــت حوالــي عــام ١٦٠٠ م مــن الاندلس بواسطة شركة الهند الانجليزية والهولندية... بدأت حركة الاحتلال العسكري بحملة نابليون عــام ١٧٩٨م... وانتهت بالحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م.. حيث ســيطرت هولــندا على اندونيسيا وبريطانيا علي الهند وعدن ومصر والســودان والعــراق وفلســطين وفرنســا على لبنان وسوريا وتونس والجزائر والمغرب.. وإيطاليا على ليبيا.. ونمت الحلقة بسقوط الخلافة العثمانية ١٩١٨م... وتمت حركة تطويق العالم الإسلامي.

وبانــتهاء الحرب العالمية الأولى كان العالم الإسلامي كله قد سقط فــى قبضــة الاستعمار الغربي.. عدا إيران وافغانستان التى ربطهما بــبعض المعــاهدات.. وبدأت مخاطر وتحديات من نوع جديد تجتاح

مجتمع الإسلام وعالمه... وهى مرحلة الاستعمار الفكرى والاقتصادى.. وقامت حركات موافقة لتيار الغرب كما حدث فى تركيا.. وتم زرع أكبر تحد لمجتمع الإسلام.. بزرع دولة يهودية صهيونية فى قلب العالم الإسلامي فى فلسطين عام ١٩٤٨م والتى لازالت تفرض سيطرتها.. وما أعقب ذلك من سقوط القدس عام ١٩٦٧م ثالث الحرمين الشريفين.. وهو التحدى الذى يشغل مجتمع الإسلام وعالمه بكامله حتى الوقت الحاضر.

هذه نظرة موجزة لتطور الإسلام.. رأيت من الضرورى الحديث عنها عزيزى القارئ.. لتعرف كيف تكون الإسلام؟ وكيف وصل الوضع الراهن الذى يعيشه ؟ ومتى بدأت الجذور التاريخية للمخاطر والتحديات التى تجابهه الآن...؟ وكيف تطورت من عوامل ضعف حتى أصبحت عقبات كبيرة فى سبيل تطور الإسلام ونهضته...

المخاطر والتحديات التى تواجه الإسلام:

تعددت تيارات الدعوات والاخطار الوافدة إلينا من خارج العالم الإسلامى: من إلحادية وعلمانية وقومية عنصرية ووطنية مجردة ووثنية دنيئة... وما تزال هذه الدعوات والاخطار تنمو.. وتجند من يستجيب لها... وتتشكل فى صور جديدة ولكنها فى مضمونها واحدة فى أهدافها.. وهى القضاء على وحدة الفكر الإسلامي.. والحيلولة دون التقاء ثقافته الإسلامية الواحدة.

ولعل أبرز مقومات الفكر الإسلامي الأساسية: هى تلك القدرة الدائمة على مقاومة كل عدوان.. ومن ثم ظهور القوة المدخرة وبروزها على نحو مذهل بعد كل تحدى... وذلك حتى فى أشد فترات الضعف.

وعلـــى ذلك فإن روح الإسلام ومنهجه الجامع بين الأخلاق والشريعة... فى ظل عقيدة التوحيد.. لا يتعارض مع سير الحضارة... بل هو يدفعها دفعاً إلـــى الغايـــات العلـــيا.. ذلـــك أن المبادئ الإسلامية الأساسية ستظل قابلة للتطبـــيق.. لأنهـــا مثل أعلى فى الأصالة والواقعية والسماحة ومطابقة تماماً للفطرة وجارية مع الطبيعة البشرية سلباً وإيجاباً.. كما قال الله تعالي:" **فطرة الله الـــتى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون**". سورة الروم- ٣٠

ولا شك أن توقفها وتغلب مذاهب أخرى عليها فى هذا العصـــر.. ليس إلا عرضـــاً مـــن أعـــراض ضـــعف المسلمين وعجزهم عن القيام على مـــنهجهم.. وهـــو عرض زائل يمر بكل الأمم... تأتي بعده اليقظة.. وفى المبادئ الإسلامية من المرونة والسماحة ما يصلح المجتمع البشرى كله.

ويجـــب ألا يكون لدينا أدني شك فى قدرة الإسلام على احتواء كل المجـــتمعات الموازيـــة.. فهو الذى يمكنه تقديم أصدق الحلول لمشاكل المجـــتمعات وقضاياها.. من خلال الإيمان بالله والأخلاق والمسؤولية الفـــردية.. ولا أصـــدق على ذلك من وجود أزمة الإنسان المعاصـــر.. الـــتى تعـــترف بها المجتمعات الحديثة.. وتعجز عن حلها.. وليس لها حـــل إلا أســـلوب الإسلام وقيمه ومبادئه.. وهو أسلوب الفطرة المنزل من عند الله... ستشهد على ذلك بقول هاملتون جب:

" لـــيس الإسلام ديناً بالمعني المجرد الخالص.. بل هو مجـــتمع بـــالغ تمـــام الكمال.. يقوم على أساس ديني.. ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية لأن ظروفه فى أول الأمر أدت إلى ربط السياسة بالدين وقد أكد هذه النزعة الأصـــيلة.. مـــا تـــلا ذلك من صوغ القانون الإسلامى

والنظام الاجتماعي. والحق أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات.. أنه أعظم من ذلك بكثير.. فهو مدينة كاملة وحضارة شاملة".

ومن هنا كانت المخاطر والتحديات التى جوبه بها الإسلام فى الوقت الحاضر.. تختلف عن سابقتها.. وتهدف إلى القضاء على مقومات العقيدة والفكر الإسلامى.. بوصفها القوة التى تصدت للحروب الصليبية وللاستعمار الغربي... لذلك فإن معركة الإسلام هى: معركة العقيدة ومنها وإليها ترجع جميع المخاطر والتحديات.

تنبثق منها وتعود إليها مهما اختلفت المسميات وتبدلت الشعارات... وقد تعددت المخاطر والتحديات عموماً.. ولكن أهمها وأبرزها هى: تلك المخاطر والتحديات التى نشأت فى مجال العقيدة.. باعتبارها غاية الأهداف.

المخاطر والتحديات فى مجال العقيدة:

اثبت التاريخ أن ديانات وعقائد مختلفة قد غابت عن الحياة تماماً.. وأصحاب تلك العقائد لم يقرروا تدمير عقائدهم ودياناتهم... والإسلام كعقيدة بما يواجه من مخاطر وتحديات تقف أمامه.. وتحاول أن تتطاول عليه وهذا ليس بجديد.. فقد تعرضت العقائد عموماً من كل ملة إلى شر الاضطهاد.

فقد واجهت المسيحية تحدياً وواجهت اليهودية تحدياً... ورغم ذلك نجد دولاً مسيحية ودولة لليهود في فلسطين.. والإسلام كنظام للحياة الاجتماعية.. لا خوف عليه من الاندثار أو الضياع أو الاختفاء.. فهذا قد تكفل رب العزة بقوله تعالي:" **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**". سورة الحجرات.

وطالمـــا قــد أصـــبح حفظ الذكر من الوظائف الإلهية.. فلا خوف عليه: "وكفي بالله وكيلا".

والتفســير يوضـــح ذلك ويستعرض هذا الحفظ الرباني.. فقد جاء علـــي المســلمين زمان ما نزال نعانيه.. ضعفوا فيه عن حماية أنفسهم وعــن حمايـــة نظامهم.. وعن حماية أرضهم وعن حماية أعراضهم.. وحــتى عن حماية عقيدتهم وعقولهم ومداركهم.. وغير عليهم أعداؤهم المنتصرون كل معروف عندهم.. وأحلوا مكانه كل منكر فيهم.

كــل مــنكر مــن العقــائد والتصورات ومن القيم والموازين ومن الأخــلاق والعــادات ومــن الأنظمة والقوانين.. وزينوا لهم الانحلال والفســاد والتوقح والتعري من كل خصائص الإنسان وردوهم إلي حياة كحــياة الحيوان.. وأحياناً إلي حياة يشمئز منها الحيوان.. ووصفوا لهم ذلــك الشــر كلــه تحــت عناوين براقة من التقدم والتطور والعلمانية والعلمــية والانطلاق والتحرر.. وتحطيم الأغلال والثورية والتجديد.. إلـــي آخـــر تلك الشعارات.. وأصبح المسلمين بالأسماء فقط.. مسلمين ليس لهم من هذا الدين قليل ولا كثير.. وباتوا بلا قيمة وأصبحوا غثاء كغثاء السيل لا يمنع ولا يدفع.

ولكن أعداء هذا الدين.. بعد هذا كله.. لم يستطيعوا تبديل نصوص هذا الكتاب ولا تحريفها.. ولم يكونوا في هذا من الزاهدين.. فلقد كانوا أحــرص الناس علي بلوغ هذا الهدف لو كان يمكن البلوغ.. وعلي نيل هذه الأمنية لو كانت تنال.

ولقــد بــذل أعــداء هذا الدين وفي مقدمتهم اليهود.. رصيدهم من تجارب أربعة آلاف سنة أو تزيد منذ النبي موسي في الكيد لدين الله.. وقدروا علي أشياء كثيرة.. قدروا علي الدس في سنة رسول الله صلي

الله عليه وسلم.. وعلي تاريخ الأمة المسلمة.. وقدروا علي تزوير الأحداث ودس الأشخاص في داخل المجتمع المسلم.. وقدروا علي تقديم عملائهم الخونة في صورة الأبطال الأمجاد ليقوموا لهم بأعمال الهدم والتدمير في أجسام المجتمعات الإسلامية.. علي مدار القرون وبخاصة في العصر الحديث.

ولكنهم لم يقدروا علي شيء واحد.. والظروف الظاهرية كلها مهيأة له.. لم يقدروا علي أحداث شيء في هذا الكتاب المحفوظ الذي لا حماية له من أهله.. المنتسبين إليه.. وشهدت هذه المعجزة الربانية بأنه حقاً "تنزيل من عزيز حكيم".

كل ما استطاعه أعداء الدين هو تأويل معاني بعض النصوص القرآنية.. ومحاولة أن يلوي هذه النصوص.. لتشهد لهم بما ترتب تقريره من الأحكام والاتجاهات ولكنها عجزت جميعاً وفي أشد أوقات الفتن حلوكة واضطراباً.. أن تحدث حدثاً واحداً في نصوص هذا الكتاب المحفوظ.. وبقيت نصوصه كما أنزلها الله حجة باقية علي كل محرف وكل موءول.. وحجة باقية كذلك علي ربانية هذا الذكر المحفوظ.

وقد تعرض مجتمع الإسلام للحروب الصليبية التي فشلت في إخضاعه واحتوائه.. واتضح لأعداء الإسلام: أن سر قوة المسلمين وانتصارهم تكمن في عقيدتهم.. ولذا فقد وجهوا اهتمامهم نحو العقيدة.. لتحطيمها وتمزيقها من صدور المسلمين.. تبعاً لوصية القديس لويس التاسع.. الذي أوصي باستبدال الحروب العسكرية بحرب الكلمة.. ومن هنا بدأت الإرساليات والتبشير والاستشراق.. والغزو الفكري للإسلام وعالمه.. وهي وأن تسربلت كل هذه

المظاهـر.. بمظاهـر بـراقة تحـت سـتار البحث العلمي والتطوير الحضـاري.. وخدمـة الإنسـان.. فهي في الواقع إنما تناصب العقيدة الإسـلامية العـداء.. وتـناوئها في كل ميدان.. وصدق الله العظيم إذ يقول: "**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى، حتى تتبع ملتهم قل إن هـدى الله هو الهدي ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله ولي ولا نصير**" سورة البقرة- ١٢٠.

وعقـيدة الإسلام نري مصداقها في كل زمان ومكان.. وهذه العقيدة يتخذها اليهود والنصاري ميدانا للمعركة التي يشناها في كل وقت ضد المسلمين.

إنهـا معـركة العقـيدة المشوبة بين المعسكر الإسلامي.. وهذين المعسـكرين.. الذين قد يتخاصمان فيما بينهما.. وقد تخاصم شيع الملة فيما بينها.. ولكنها تلتقي دائما في المعركة ضد الإسلام والمسلمين.

إنهـا معـركة العقـيدة في صميمها وحقيقتها.. ولكن المعسكرين العريقيـن فـي العـداوة للإسـلام والمسلمين يلونانهما بألوان شتى.. ويرفعان عليها أعلاماً مختلفة في خبث ومكر وتورية.. أنهم قد جربوا حماسـة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة.. ومـن ثم استدار الأعداء العريقون فغيروا أعلام المعركة.. لم يعلنوها حـرباً باسم العقيدة علي حقيقتها.. خوفاً من حماسة العقيدة وجيشانها.. إنما أعلنوها باسم الأرض.. الاقتصاد.. والسياسة والمراكز العسكرية.

وألقـوا فـي روع المخدوعيـن الغافليـن منا أن حكاية العقيدة قد صـارت حكايـة قديمة لا معني لها.. ولا يجوز رفع رايتها وخوض المعـركة باسـمها.. فهذه سمة المتخلفين المتعصبين.. ذلك لكي يأمنوا جيشـان العقـيدة وحماستها.. بينما هم في قرارة نفوسهم.. الصهيونية

العالمــية والصـــليبية العالمية.. جميعاً يخضون المعركة أولاً وقبل كل شـــيء لتحطـــيم هـــذه الصخرة العاتية التي نطحوها طويلاً.. فأدمتهم جميعاً.

وقد اتصلت هذه المخاطر والتحديات في مجالها الأكبر بالدين عامة والعقـــيدة خاصة.. فبدأت بالهجوم علي أصول الإسلام وقيمه وآثاره.. وجرت محاولات لزحزحته عن مجال الحكم.. ثم علي مجال القضاء.. كـــم عـــن مجال المجتمع.. لزحزحته عن الحياة العامة.. وخلق روح الاستخفاف بقيمه.. وتشجيع الدعوات المنحرفة.

المخاطر والتحديات المعاصرة:

القوى التي برزت كتحد عقائدي أمام الإسلام تتمثل في:

١- الصهيونية أو اليهودية.

٢- الصليبية- المسيحية المحرفة.

٣- الوثنيات الوضعية المعاصرة.

وكـــل مـــن هذه العقائد الوضعية حاربت الإسلام في غير هوادة أو تـــوان.. بكافـــة الوسائل والإمكانات المتاحة لها.. وأخذت علي عاتقها محاولـــة الوقـــوف في وجه العقيدة الإسلامية.. واستقطاب أكثر الذين يقعون في دائرة وجودها باعتناق كل منها بدلاً من العقيدة الإسلامية.

ذلك أن الغرب كان يعلم أن المسلمين لن يهزموا.. ولن يستوعبوا.. ولـــن يوضـــعوا فـــي قبضة الغرب.. إلا إذا سقطت تلك المنارات من مفاهـــيم العقـــيدة.. هذه العقيدة الراسخة كانت هي القوة الضخمة التي كونت عالم الإسلام.. وكانت ولا تزال وستظل القوة القادرة علي دحر

كــل مــن يتصـــدى له.. إذن فلابـــد أن تبدأ المعركة من هذه النقطة الخطية.

من نقطة تزييف العقيدة وامتصاص حيوية الدعوى.. وتفريغها من مضـــامين القـــوة والإيمـــان واجتهاد.. حتى يفقد المسلمون هذا السر الخطـــير.. وحـــتى يصـــبحوا قطعياً من السائمة التي يمكن أن تطوي وتقهر.

الصهيونية كتحد عقائدي:

تعـــتقد الصــــهيونية أو اليهودية زوراً وإفكا إنها الشعب المصطفي المخـــتار.. وأن الله وعدهـــا بالتمكين في الأرض والتسلط علي العباد والـــرقاب.. وامـــتلاك مواطن الثروة ومنابع الخيرات.. وهي من أجل هـــذا المعـــتقد الباطل ترسم خطة وتحدد سياسة.. وتضع منهجاً.. تلزم البشـــرية كافـــة باتباعه.. والسير وفقه.. وتشرد شعوباً من أوطانها.. وتحـــتكر أقوات الملايين من الناس.. وتجردهم من حقوقهم الطبيعية.. كـــل هـــذا تفعله الصهيونية بخبث ودهاء.. بل قل إنها تفعل أكثر من ذلك.. لتصل إلي أطماعها الاقتصادية.. وتحقق أفكارها التوسيعية.

والصـــهيونية حركة سياسية وقومية ترمي إلي إقامة دولة يهودية.. تـــزعمها- تـــيودرهردزل- حيـــن دعا في أواخر القرن التاسع عشر المـــيلادي إلـــي عقد مؤتمر صهيوني دولي في مدينة بال بسويسرا.. وقـــرر المؤتمـــر تكويـــن منظمات صهيونية في البلاد التي يوجد عدد كاف من اليهود.. وترتكز هذه الحركة في جوهرها علي عقيدة دينية.. أخـــرجها الوهـــم المـــتطرف.. والخيال الخرافي عن أصلها السماوي وحقيقـــتها الأولـــى.. وأصبحت فكرة مشوشة.. مشوهة.. وضعية غير

إلهية.. ومع هذا فإن أهلها يعتبرونها عقيدة دينية محضة.. يؤمنون بها من عير تدبر أو وعي أو إدراك.

ولو درسنا اليهود كشعب له صفاته وخصائصه المميزة.. لوجدناه شعباً شريراً.. آثماً.. خائنا.. مرائيا.. خبيث الطوية.. ماجن السلوك والسيرة.. جباناً.. متعصباً.. مغروراً.. متكالباً علي المكاسب والمغانم.. شديد السلب والنهب.. ينقض الميثاق والعهد من أجل عرض من أعراض الدنيا.. كنفوذ أو جاه أو سلطان.

وهم يعتقدون أنهم يعصون الله.. ويفعلون ما يغضبه ويسخطه.. لذلك نجدهم يتخذون بعض أيامهم للبكاء والعويل والصياح والنياحة.. فإذا ما ظنوا أن الله قد تاب عليهم.. عادوا إلي أبشع ما كانوا عليه من شرور وآثام.. وضلال وانحلال وانحراف.

جاء في أحد كتبهم: "قد خطئنا إلي الرب إلهنا.. ولم يرتد سخط الرب وغضبه عنا.. لنا خزي الوجوه.. لرجال يهودا وسكان أورشليم ولملوكنا ورؤسائنا وكهنتنا وآبائنا.. لأننا خطئنا أمام الرب وعصيناه من يوم أخر الرب آباءنا من أرض مصر إلي هذا اليوم.. وما زلنا نعصي الرب إلهنا.. ونعرض عن استماع صوته.. فلحق بنا الشرور واللعنة.. لم نسمع لصوت الرب إلهنا ولا لجميع كلام الأنبياء الذين أرسلهم إلينا ومضينا كل واحد علي إصرار قلبه الشرير.. عابدين آلهة أخرى.. صانعين الشر أمام عيني الرب إلهنا".

واليهود ما يتصفون به من صفات منحطة ذميمة حقيرة.. وبالرغم من لؤم طباعهم.. فإنهم ينظرون إلي الشعوب الأخرى نظرة ازدراء واحتقار.. وتسيطر عليهم نزعة شريرة حاقدة تدفعهم لقتل الآخرين والتنكيل بالأبرياء.. وإبادة الجماعات وإحراق الديار.. وإشعال النيران

في المدن والحقول.. لا يمنعهم من ذلك دين أو ضمير.. وتأخذهم رحمة ولا رأفة.. وقد يظن أن رواء هذا التقتيل شجاعة وإقداماً.. ولكن لا تعرف الشجاعة إلي نفوس اليهود سبيلاً.. وإنما هم جبناء.. وإنه لا يكون متوحشاً شرساً إلا الجبان.. أما الشجاع فلا يكون إلا كريما حليماً.. رحيماً.. شهماً.. يأنف من مهاجمة الضعيف.. ويعفو عن القوى إذا وقع في قبضته.

يبني اليهود عقيدتهم وشرعيتهم علي ثلاث كتب:

١- التوراة.

٢- التلمود.

٣- البروتوكولات

التوراة:

جاء في دائرة المعارف البريطانية: التوراة ليست كتاباً واحداً.. ولكنها تتكون من مجموعة من الكتب.. استغرق تأليفها قروناً عديدة.. وإنها لم تكتب بلغة واحدة ولكنها كتبت بالعبرية ثم استكملت باللغة الآرامية.. وضمت آخر كتبها باللغة الإغريقية.. وقد اشترك في كتابتها رجال لهم قدر من العلم وآخرون حظهم من المعرفة ضئيل.

وهناك من يري أن التوراة الأولى كتبت باللغة المصرية القديمة.. لأن موسى عليه السلام كان يتحدث الهيروغليفية والتوراة تبين تعاليم الديانة اليهودية.

وقد اعتبر بعض اليهود أن اليهودية ديانة وضعية.. شأنها شأن جميع الديانات التي انتشرت في المنطقة.. خلال العهد الوثني.. وعلي رأس أصحاب هذا الرأي سيجموند فرويد.. الذي ذكر في كتابه

"موســي والوحدانية" بأن موسى كان زميلاً لإخناتون في المعهد العالي للدراســات اللاهوتــية فــي مدينة هليوبوليس. وقد انتهت أبحاث ذلك المعهد إلي وجود خالق للكون هو الله.. وبأن هناك بعثا وجزاء.

وهــناك من يرد سبب تحريف التوراة إلي أنها جمعت خلال فترات طويلة تمتد إلي ثمانية قرون.

وقــد أصــبح معــروفاً لدى كافة العقلاء.. وهو ما نجزم به نحن المســلمين ذلك لما ملئت به التوراة من تناقضات.. وترهات وخرافات لا تلــيق بالوحــي الكريم ولا برسالة السماء ورسل الله.. وقد صورت الــتوراة الله ســبحانه عمــا يقولون. إلهاً خاصاً ببني إسرائيل لا يحب سواهم.. فالله في التوراة- إله خاص- لا يحب إلا بني إسرائيل.. وأما سائر الناس فأغنام.. وأقل من أن يأبه بهم الرب.. والأنبياء في التوراة يفعلــون الفاحشة التي يتنزه عنها الإنسان العاقل سليم الفطرة.. فضلا عن صالح المؤمنين.. فضلا عن النبي المعصوم.

وتدعي التوراة المحرفة أن السحر قادر علي تغيير صورة الإنسان إلــي حمار مثلاً والعكس.. فهل يمكن أن يكون هذا كتاباً إلهياً مقدساً.. جاء لتعريف البشرية بالله.. ولهدايتهم إلي الطريق المستقيم..؟

هــل يمكــن أن يكــن كــتاباً مقدســاً من يقول: "يستحق القتل كل الجوييم- غير اليهودي- حتى ذوو الفضل منهم."

ويقول: "من قتل غير اليهودي.. فقد قدم قرباناً للرب".

التوراة والجنس:

يوجــد أناشــيد فــي التوراة تمزج بين الجنس والدين تأثراً بالعقائد الوثنية التي كانت منتشرة حينذاك في المنطقة..

جـــاء فـــي الإصحاح الثالث: "في الليل.. علي الفراش.. طلبت من تحبه نفسي.. طلبته فما وجدته.."

إني أقوم وأطوف في المدينة.. في الأسواق.. في الشوارع.. اطلب من تحبه نفسي.. طلبته فما وجدته..

وجدنـــي الحرس الطائف في المدينة.. فقلت أرأيتم من تحبه نفسي؟ فمـــا جاورتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسي فأمسكته.. وذهبت به إلي الفراش.

وعلـــي هذا فقد ملئت التوراة بقصص الجنس والأخلاقيات المنحطة البذيـــئة.. حتى أنه يبدو لمن يقرأ أية نسخة للتوراة.. أن الذين أضافوا إلـــيها مـــا أضـــافوا من زيادات.. ما أنزل الله بها من سلطان.. كانوا متأثريـــن إلي حد كبير بالجنس.. وبالأساطير اليونانية التي تدور حول تصـــور العلاقـــة بين المرأة والرجل علي أنها غرائز ونزعات جنسية فقط.

تعارض التوراة مع المنطق:

ومع الحقائق العلمية الثابتة.. من ذلك مثلاً ما جاء في سفر التكوين عن نشأة اللغات:

"وكانـــت الأرض كلهـــا لســـاناً واحـــداً ولغة واحدة.. وحدث في ارتحـــالهم شرقاً وجدوا بقعة في الأرض- شنعار- وسكنوا فيها.. وقال بعضـــهم لـــبعض هلـــم نصـــنع لبنا ونشويه شياً فكان لهم اللبن مكان الحجـــر.. وكـــان لهم الجمر مكان الطين وقالوا هلم نبني لأنفسنا مدينة وبـــرجاً رأســـه فـــي السماء ونصنع لأنفسنا أسماً لئلا نتبدد علي وجه الأرض فنزل الرب لينظر المدينة والبرج الذين كان بنو آدم يبنوهما..

وقـــال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم.. وهذا ابتداؤهم بـــالعمل.. والآن لا يمتـــنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه.. هلم ننزل ونبلـــبل هـــناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض فبددهم الرب مـــن هـــناك علـــي وجه الأرض.. فكفوا عن بنيان المدينة لذلك دعي اســـمها بابل.. لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض ومن هنا بددهم الرب علي وجه الأرض".

فهـــذا التفســـير لنشـــأة اللغـــات لا يتفق مع الحقائق العلمية لتطور اللغات.. وأخذها وضعها الثابت لها.

كيف تم التحريف:

إنـــنا نؤمـــن أن الله تبارك وتعالي قد خاطب موسى عليه السلام.. وأنـــزل عليه التوراة فيها هدى ونور ليحكم أصحابها بما ورد فيها من شريعة.. ولكننا ننكر أن تكون التوراة التي في أيدي اليهود اليوم.. هي الـــتوراة الموحـــي بهـــا مـــن عند الله تعالي.. وذلك لأسباب جوهرية أصلية.. منها ما رأينا من مقالات رخيصة تملء الإنسان خجلاً وحياء هـــذا من جهة الموضوع.. أما من جهة الأسلوب والصياغة.. فإن كل من تطلع علي التوراة.. ويقرأ ما فيها يدرك تماماً اختلافات شديدة في الأســـلوب والتعابير.. فضلاً عن تناقض الأفكار.. وتضارب نصوصها بعضـــها بعضاً.. وأن هذا الاختلاف والتناقض ما كان ينبغي أن يصدر عـــن إنسان حصيف.. متزن.. فضلاً عن نبي مصطفي.. فكيف ينسب إلي الله: تعالي الله عما يقول الكافرون علواً كبيرا.

السبب في هذا التغيير والتبديل:

يذكـــر علماء تاريخ الأديان أن التوراة قد كتبت بلغات متعددة منها: الهيروغليفـــية- الفرعونـــية القديمـــة- ومـــنها العـــبرية والآرامـــية والإغريقـــية.. وإن كـــتاباً يكتـــب بهذه اللغات المختلفة.. يم يترجم في وقـــت لم تكن الترجمة ميسرة.. ولا التعليم واسع النطاق.. منتشراً بين الـــناس.. ولا الطـــباعة معـــروفة.. ولا المخلصون القائمون به وعليه موجوديـــن.. ولا العهدين موسي عليه السلام.. وكتابة التوراة قريباً.. بـــل إنه لم يكتب إلا بعد مرور ستمائة علي وفاة موسي عليه السلام.. كـــل هـــذه العوامل كفيلة.. بأن تؤكد حصول التحريف والتحصيف بل التبديل والتغيير.

ويذكـــر علمـــاء تـــاريخ الأديان أن ملك بابل بختنصر قد حاصر القـــدس.. وخـــربها وأحـــرق هـــيكل ســـليمان بكل ما فيه حتى ألواح الـــتوراة.. وعلـــي هـــذا فلم يبق لليهود توراة يتمسكون بها ويرجعون إليها.. ولم يجدوا جداً واحداً حافظاً للتوراة.. يرجعون إليه ليذكرهم بما ورد فـــي كـــتابهم الذي أحرق.. واختفت بإحراقه كل نسخة.. وكل أثر لما روي عن النبي موسي عليه السلام.

وقـــد سبى اليهود وليس في أيديهم مرجع واحد يحفظ عليهم دينهم.. فممـــا لا شك فيه أن يتأثروا بالديانات الوثنية المنتشرة آنذاك.. كالديانة الفارســـية والبابلـــية.. فشـــربوا من عقيدتها وأخلاقها.. وبعد حين من الدهـــر خطـــر علـــي بـــالهم أن يكتـــبوا كتاباً يحفظ عليهم عنصرهم الـــيهودي.. فكتبوا التلمود.. وقد أملي عليهم هذا الكتاب حقدهم الدفين علـــي البشـــرية.. وحرصهم في أن يعيدوا تجمعهم وأن يتخلصوا مما لاقـــوا مـــن ظلـــم حكـــام بابل.. ثم جاء الكاهن عزرا.. ووضع كتاب

التوراة.. معتمد علي التلمود أولاً.. وعلي بقايا أسفار من التوراة عثروا عليها مع كهنة في بلاد بابل.

التلمود:

التلمود كلمة عبرية.. قيل أن معناها التعليم.. وقد انطلقت فكرة تدوين التلمود من رأس أحد كهان اليهود بعد السبى البابلي عام ٥٣٩ قبل الميلاد.. ثم تأسست لجنة عدد رجالها ١٢٠ رجلاً لمتابعة ذلك الكاهن عزرا في كتابة التلمود.. وقد عرفت هذه اللجنة بالثنائم.. لأنها تجعل كتابهم المقدس في كتابين اثنين التوراة والتلمود.. واستمرت الإضافات والزيادات والأوهام تزيد في هذا المؤلف المخترع حتى القرن الثاني بعد الميلاد.

ولليهود اعتقاد غريب في التلمود.. وهو أن هذا الكتاب مع معرفتهم الأكيدة بأنه اختلاق وافتراء.. وقد وجد قبل الخليفة ولولاه لزال الكون بأسره.. وقد أثر التلمود تأثيراً دينياً وثقافياً وسياسياً علي اليهود.. ويظهر التأثير الديني تحول عقيدتهم من التوحيد إلي الشرك الممزوج بالأساطير والخرافات.. فاليهود يخشون إلي خامات أكثر مما يخشون الله.. وأن الله في معتقدهم الفاسد قد أخطأ.. واعتذر إلي خامات الذين كتبوا التلمود.. وأن الأحبار أفضل من الأنبياء.

من وصايا التلمود:

١- مخالفة إلي خامات فهي مخافة الله.

٢- أقوال إلي خامات أفضل من أقوال الأنبياء.

٣- لا يمكن نقض تعليمات إلي خامات ولو بأمر من الله.

البروتوكولات:

يذكـــر أنــــه فـــي عام ١٩٣٥م نشر تيودور فيشر صاحب المكتبة الألمانـــية في جنيف كتاباً يحتوي علي بروتوكولات حكماء صهيون.. فلجـــأ الـــيهود إلـــي المحكمـــة لوقف نشر ذلك الكتاب.. وكان الحكم الابتدائي لصالح اليهود.. ولكن فيشر.. استأنف الحكم واهتم بالقضية.. واســـتطاع أن يقدم الوثائق الرسمية التي تثبت صحة البروتوكولات.. ومـــن بينها وثيقة رسمية استخرجت من المتحف البريطاني.. تؤكد أن الـــبروتوكولات قد أودعت في محفوظاتها منذ عام ١٩٠٦م.. كما ثبت لقضــــاة محكمـــة بـــرن العلـــيا أن اليهود استعانوا بشهود تحقق كذبهم وتزويرهم.. كما ثبت أن القاضي الذي الحكم الابتدائي كان عضواً في المحفل الماسوني.

البروتوكول الأول: جاء فيه:

السياسة نقيض الأخلاق ولا لقاء بينهما.. والحاكم الذي يدين بالأخلاق فـــي حكمه ليس بالسياسي الحاذق.. وعرشه ليس بالعرش الثابت.. ويجب علـــي مـــن يريد أن يتسلم الحكم: أن يتزود بالمكر والرياء.. أما الفضائل الإنســـانية كالصـــدق والاستقامة فهي في عرف السياسة رذائل هي أقدر علي هدم العرش من أشد الأعداء ضراوة وفتكاً.

البرتوكول الثاني: جاء فيه:

نجاح مخططنا وقف علي ألا ينجم عن الحروب أي تغيير في الحدود أو التوسع في الأرض.. ويجب الاحتفاظ بهذا المبدأ ما وسعنا ذلك.. حتى يتيسر نقل الحروب من ميدانها القتالي إلي منافسة اقتصادية.. وعندئذ تضطر الأمم إلي الاعتراف بقوة سلطاننا وتفوقنا في هذا المضمار.

البرتوكول الثالث: جاء فيه:

إنـــنا نحكـــم البشر باستغلال مشاعر الحسد والبغضاء التي يؤججها الضـــيق والفقر.. وهذه المشاعر هي رسائلنا التي نكتسح بها بعيداً كل من يصدوننا عن سبيلنا.

حيـــن استحوذ علي السلطة تمحق كلمة الحرية من معجم الإنسانية باعتـــبار أنها رمز القوة الوحشية الذي يجعل الشعب حيوانات متعطشة للدماء.. ويجب الإفساد في ميادين الثقافات العامة والفنون والتمثيل.

البروتوكول الرابع: جاء فيه:

يجـــب علينا أن ننتزع فكرة الله ذاتها من عقول غير اليهود.. وأن نضع مكانها عمليات حسابية ورغبات مادية.

البروتوكول الخامس: جاء فيه:

إننا نقرأ في قاموس الأنبياء أن الله اختارنا لحكم العالم.. وقد وهبنا الله العبقرية لنقوم بهذا العمل.

البروتوكول السادس: جاء فيه:

ســـنعمل علي تقويض الإنتاج من أساسه عن طريق نشر الفوضى بين العمال.. وتحريضهم علي شرب الخمر.. كما أنه لابد من استخدام جمـــيع الوســـائل الممكـــنة لطـــرد الأذكياء من غير اليهود من وجه البسيطة.

البروتوكول السابع: جاء فيه:

نحـــن الـــذي هـــيأنا دارون وماركس ونيتشه ولم يفتنا تقدير الآثار السيئة التي تركتها هذه النظريات في أذهان غير اليهود.

البروتوكول التاسع: جاء فيه:

وقد تمكنا من تضليل الشباب من غير اليهود.. وإفسادهم خلقياً حملهم علي البلادة عن طريق تعليمهم المبادئ التي نعتبرها نحن باطلة علي الرغم من إيحائنا بها.

البروتوكول العاشر: جاء فيه:

علينا أن ننهك كل إنسان بالمنازعات والحزازات والحروب.. والمجاعة وانتشار الأوبئة.. والعوز والفاقة.. حتى يجد غير اليهود أن لا مناص لهم من مناشدتها العون المادي والسلطان.

البروتوكول الحادي عشر: جاء فيه:

غير اليهود كقطيع من الأغنام.. أما نحن فإننا ذئاب.. وهل تعلمون ما تفعل الأغنام إذا اقتحم الذئاب حظيرتها.. إنها تغمض عينيها.. وسندفعهم إلي ذلك.

البروتوكول الثاني عشر: جاء فيه:

يجب الإفساد في ميادين العلاقات والروابط الاجتماعية.

البروتوكول الثالث عشر: جاء فيه:

عندما نصبح أسياد الأرض.. لا نسمح بقيام دين غير ديننا.. ومن أجل ذلك يجب علينا إزالة كل العقائد.

البروتوكول الرابع عشر: جاء فيه:

لقد عيننا عناية خاصة بالعيب في رجال الدين غير اليهود.. والحط من قدرهم في نظر الشعب.

الجمعيات اليهودية:

لقد أنشأ اليهود عدداً من الجمعيات للعمل علي تنفيذ خططهم العدوانية والاستخرابية.. وكان من هذه الجمعيات ما هو سري للغاية.. لم يعرف عنه إلا بتصريحات أدلي بها بعض المسيحيين الذين غرر بهم وزجوا في تلك الجمعيات.. ومنها ما هو علني يعمل بصورة مكشوفة..

ومن أكبر الجمعيات لديهم: الماسونية:

وهي في ظاهرها جمعية خيرية تعمل لتوفير أسباب السعادة الاجتماعية للناس.. ولكن حقيقتها تتنافي مع ظاهرها.. إذ أنها تعمل علي شراء البسطاء من المسلمين والمسيحيين.. أصحاب الأهداف الإنسانية والنبيلة.. وتغريهم بتحقيق تلك الأهداف إذا كانوا أعضاء فاعلين في الجمعية.. ومن ثم تهيء عقولهم لتقبل المبادئ التلمودية.. وبصورة خاصة نظرية الشعب المختار.. تمهيداً لتحقيق السيادة الصهيونية علي فلسطين ثم امتدادها من الفرات إلي النيل.. بمساعدة رجالهم الماسونين الغربيين ثم أنها الماسونية الغربية التي تسعي إلي الاستيلاء علي السلطة العالمية تحقيقاً للإصحاح الملفق الذي يقول: كل أرض وطأتها بطون أقدامكم- فهي لكم.

وتقول وثائق الماسونية:

١- إن عقائدنا ورموزنا وأشارتنا ودرجاتنا هي مصرية فرعونية.. ولكنها انتقلت إلينا بواسطة بني إسرائيل.

٢- إن الماسونية مذهب سري لم تدون معالمها جميعاً.. وأكثر أمورها تجري علي نهج سفوي.

٣- إن الثورة الفرنسية ما هي إلا وليدة الماسونية.

٤- يجب ألا تقتصر الماسونية علي شعب دون غيره.. ولتحقيق الماسونية العالمية.. يجب سحق عدونا الأزلي الذي هو: الدين مع إزالة رجاله.

٥- لابد أن نكافح بجهد أكبر لإدامة القوانين والنظم اللادينية لأن السلطة المطلقة التي صنعها رجال الدين علي وجه المعمورة قد قاربت النهاية.. لا بل آلت إلي الزوال.. وأن غايتنا قبل كل شيء.. هي إبادة الأديان كلها.

وللماسونية شعار براق قد يغري كثيراً من السذج الذين لا يحسبون للأمور حسابها.. ولا يضعونها بميزان العقيدة والدين.. وهو: الحرية والإخاء والمساواة.. وهو الشعار الذي اتخذته الثورة الفرنسية.. وقد ثبت فيما بعد أنها كانت ثورة يهودية مختفية وراء قناع فرنسي.. استفادت منها اليهودية العالمية.. حيث نال يهود أوروبا حرياتهم وحقوقهم.. بينما كانت هذه الثورة محنة ونكبة للملكية الفرنسية وللكنيسة المسيحية.

والأعضاء الذين يعملون في هذه الجمعية علي مراتب أربعة:

١- المبتدئ.

٢- الشغال.

٣- الأستاذ.

٤- الرفيق.

٥- العظيم.

ومن الرفاق المشهورين: الرفيق كارل ماركس.. والفريق تروتسكي.. والرفيق تشرشل.. والرفيق جونسون.. والرفيق نيكسون.

ويندرج الماسوني في هذه الدرجات الواحدة تلو الأخرى.. وهو بذلك يبتعد عن الروح الإسلامية إن كان مسلما.. وعن الروح المسيحية إن كان مسيحياً.. ويقترب من الروح اليهودية والسياسة اليهودية.. حتى يتحول إلي عميل صهيوني.. يكون نواة للفرقة بينه وبين أهل دينه.. ودعامة الأثارة لإثارة الفتن والاضطراب في الدولة التي تنتمي إليها.. وبهذا يتحلي الماسوني عن جنسيته وعن دينه لأنه خضع لأمر أستاذته اليهود.

والماسونية ليست جمعية مستحدثة وإنما هي قديمة جداً.. تمتد جذورها إلي أعماق التاريخ .. وينشئها اليهود أينما حلوا في أقطار الأرض.. لتكون مركزاً لاجتماعاتهم التي يناقشون فيها ويتبادلون الرأي والمعلومات.. وتعزي الحركات الثورية العاتية والفتن الصخرية التي اندلعت في شتى الدول في العصر الحديث إلي النشاط الماسوني.. كالثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر.. وكتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية وتوزيعها علي الدول الاستعمارية.. وكالثورة الشيوعية في روسيا عام ١٩١٧م.. وإثارة الفتن في مصر والعراق ولبنان في وقتنا الحالي.

فالماسونية كانت وما زالت جمعية سرية للفساد وللإفساد وللتجسس والتآمر والخيانة الوطنية والارتداد الديني.. يحمي هذا كله طقوس وحشية قاسية تعاقب من يخرج عنها أشد العذاب.

المبادئ اليهودية وموقف المسلمين منها:

نـــري نحن المسلمين أن هذه المبادئ التي يتمسك بها اليهود والتي يخططـــون مـــن أجلها بأساليب مفزعة شريرة لا تتناسب مع من يؤمن بأنـــه صـــاحب رســـالة إلهية يحملها إلي البشر.. ليهدي بها الضال.. ويؤلـــف بهـــا بين القلوب.. وقد قال الله تعالي مبينا الحكمة من إرسال الرســـول صـــلي الله علـــيه وسلم: "**وما أرسلناك إلا رحمة للعاملين**". سورة البقرة- ٨٩.

ولئـــن كان خطر اليهود يمتد ليشمل العالم بأسره.. فإن خطره علي الإســـلام وعلي الأمة الإسلامية جسيم وعظيم.. وقد تجلي هذا الخطر مـــنذ بزوغ فجر الإسلام.. ومن اليوم الأول الذي سطع فيه نوره.. قال الله تعالـــي: "**ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون علي الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله علي الكافرين**". سورة البقرة- ٨٩.

وقـــد أثاروا الفتن في عهد الخلافة الراشدة.. وفي التاريخ الإسلامي المجـــيد.. وظهـــر اســـم عبد الله بن سبأ ليمثل الشخصية اليهودية بكل خبـــثها وبكـــل لؤمهـــا وكيدها.. فأثار الناس بدسائسه وحرضهم ضد الخلـــيفة ذي النوريـــن- عـــثمان- ولـــم يكتف بأن ذهب ضحية مكره ومؤامـــرته الخلـــيفة الصالح.. وإنما امتدت فتنته لتحيط بالخليفة الرابع علـــي رضـــي الله عنه وأرضاه.. ومن ثم وجد الفرصة ملائمة لتشويه الفكر الإسلامي فأدخل بدعته وضلالته- إن لكل نبي وصياً.. وأن علياً وصي لمحمد.. وأن محمداً خاتم الأنبياء وعلياً خاتم الأوصياء.

وبـــث فكـــرة حلـــول الله بالأشخاص "ودسها بين الجاهلين من أهل الكوفة.

ولما قتل الإمام علي رضي الله عنه.. ظل هذا اليهودي يبث بدعته وضـــلالته: بـــأن علياً لم يقتل وإنما رفع إلي السماء.. كما رفع عيسي عليه السلام.. وأنه سينزل إلي الدنيا وينتقم من أعدائه.. وأن الذي قتل هـــو شـــيطان تمثل في صورة علي.. وصار يوسوس لهم هو وأعوانه من السبئية:

أن علـــياً يجـــري فـــي الســـحاب.. وأن الرعد صوته وأن البرق ســـوطه.. وحتى صار السبأي إذا سمع صوت الرعد قال: عليك السلام يـــا أمير المؤمنين.. وتابع السبئيون ضلالهم فاعتقدوا بتناسخ الإله في الأئمة من آل البيت بعد علي.

وكـــان مقتل علي رضي الله عنه أثراً من آثار الدسائس اليهودية.. وكـــان تمـــرد الخواج بسببه عبد الله بن سبأ.. وهكذا.. يتلاعب أعداء الله.. شر الدواب بالفكر الإسلامي.. وبالحوادث التي سببت انشقاقا في صـــفوف المسلمين.. وذهب ضحيتها آلاف مؤلفة من المؤمنين.. ومن السذج الذين استجابوا لمؤامرة ومكائد عبد الله بن سبأ.

وفـــي العصر الحديث.. برزت القوى اليهودية الصهيونية.. طامعة فـــي الســـيطرة علـــي الوطن العربي ثم العالم الإسلامي.. بل يريدون السيطرة علي الاقتصاد وعلي وسائل الإعلام من تلفاز وصحافة وذلك لتنفيذ البروتوكولات التي رسمت أحلامهم الضلالة المضلة.

لذا فعلينا نحن المسلمين أن نترصد حركاتهم.. ونتربص لهم ونفسد علـــيهم مخططاتهم.. وأن نكون علي بصيرة بكل ما يفعلونه.. كيلا نقع في حبائل كيدهم ومكرهم.

يقـــول تعالـــي: "**ويمكـــرون ويمكر الله والله خير الماكرين**" سورة الأنفال- ٣٠.

ويجب علينا عزيزي القارئ أن ندرك أن ما ينشره اليهود ويقبله بعض الناس ويذيعونه: من أن هناك تفرقة بين الصهيونية واليهودية.. إنما هو أمر باطل يقصد منه تضليل الرأي العام.. وستر أعمالهم العدوانية الشريرة بهذا الرداء الخادع.. لذلك فإن التضليل والخداع والمكر والمكيدة صفات متأصلة في نفوسهم وطباعهم.

وليست الصهيونية إلا طليعة البعث اليهودي الذي يقود جماهير اليهود المنتشرين في الأرض إلي السيطرة علي العالم.. سيطرة فعلية.. وإن هذه السيطرة ستنطلق من ديار فلسطين ومن بيت المقدس.. بل إن كلمة صهيون نفسها تعني جبلا من جبال فلسطين.. أو مدينة داود- التي تطل علي أحد تلال القدس.. وأن فكرة العودة إلي فلسطين جزء لا يتجزأ من العقيدة اليهودية.

الفلسفة واليهود المتصهينين:

وقد حاولت الفلسفات التي حمل لواءها اليهود تغيير مفاهيم الحياة وإفساد الفطرة.. إذ حاولت أن تصف الإنسان بأنه حيوان وابن المصادفة.. وأنه لا غاية لوجوده.. ولا هدفاً.. ورتبت علي ذلك أنه لا معني للحياة الإنسانية ولا للمثل العليا.. وأن الحياة تخبط ليس فيها إلا الطعام والجنس.. وبذلك طغي طابع المادية علي علوم النفس والأخلاق والتربية والفن.. وهاجم ماركس وفرويد ودوركايم وداروين- وهم جميعاً من اليهود- الدين.

فقال ماركس: أن الدين أفيون الشعوب ومجموعة من الأساطير.

وقال فرويد: إن الدين ناشئ من الكبت.

وقال دوركايم: إن الدين ليس فطرة.

وقال داروين: إن الدين لا يفهم في سياق العلم.

.. وأخيرا..

فإن معابد هذه الديانة هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيميائية.. وباحت الرقص.. وكهنة هذه الديانة هم الصيارفة والمهندسين وكواكب السينما.. ويتسع هذا المفهوم حتى يصل إلي أنه ليس للاعتبارات الخلقية أي أثر مباشر.. محسوس في الرفاهية المادية.. وأن كل الفضائل تتعلق برفاهية المجتمع المادي.. وهكذا نخلص إلي خطورة الصهيونية كتحد عقائدي.

الصليبية- المسيحية المحرفة- كتحد عقائدي:

أن نصيحة لويس التاسع- عقب انتهاء الحروب الصليبية وفشلها- تدعو إلي الاتجاه لحرب العقيدة.. للسيطرة علي الإسلام وعالمه.. عقب اتضاح النتيجة الحتمية لهم: بأن الإسلام لن يهزم ولن يوضع في قبضة الغرب الصليبي.. إلا إذا سقطت مفاهيم الجهاد والمقاومة والحرية والتمييز بالتوحيد والقرآن.. وطالما كانت هذه العقيدة هي القوة الضخمة التي كونت عالم الإسلام.. وكانت ولا تزال وستظل القوة القادرة علي دحر كل ما يتصدى له..

إذن فلابد أن تبدأ المعركة من نقطة تزييف العقيدة.. وتفريغها من مضامين القوة والإيمان والجهاد والتوحيد.. وهكذا كانت وصية لويس التاسع بعد هزيمته في المنصورة بمصر.. تكشف عن التحول من حرب السيف إلي حرب الكلمة.. وهو ما يمثل موجة المخاطر والتحديات الفكرية أمام المجتمع الإسلامي.

وقــد تــنظم فــيما بعد معركة قوامها التبشير والاستشراق والغزو الثقافي والتغريب.

وقــد بلغ لويس التاسع درجة القداسة في نظر الغرب.. لأنه حارب مــن أجل إخضاع المسلمين.. هزم في مصر وقتل في تونس.. وكان بذلــك أول من أشار إلي تجنيد المبشرين في معركة الكلمة.. لمحاربة تعالــيم الإســلام ووقــف انتشــاره كعقيدة.. ثم القضاء عليه معنوياً.. واعتبار أولئك المبشرين في تلك المعارك جنودا للغرب الصليبي.

واختــير شــرق الــبحر الأبــيض المتوســط بيــن القاهرة وبيروت والقســطنطينية.. وهذا ما سجله أحد الباحثين المشتغلين بالتبشير في أكبر مؤسســاته هــذه الظاهرة.. تسجيلاً صريحا.. ويقول- نبيه أمين فارس- في تصوير خطة لويس التاسع في عبارات واضحة.. جاء فيها.

بينما كان الشرق الأدني مطمعا لأفكار بناة الإمبراطوريات كان أيضا محــط أنظار جماعة أخرى من الناس.. تنشد أن تنجز عن طريق الكلمة مــا عجــز أجدادهما الصليبيين عن تحقيقه عن طريق السيف.. وبعبارة أخــرى تنشد اختلال مهد المسيحية.. وإخضاع العالم كله للمسيح- إن هذا الحلــم المسيحي قديم قدم المسيحية ذاتها.. وهو يعتمد علي وحيه الدائم من الوصية التي سجلها أول المبشرين: القديس لويس التاسع.

وهكــذا عزيــزي القارئ نجد نصاً صريحاً يكشف عن آثار وصية لويــس التاســع التــي دعــت إلي استعمال الكلمة بدلاً من السيف في الســيطرة علــي عالم الإسلام.. وقد كان ذلك عام ٦٤٧ هــ.. ويقول رينيه جروسيه مؤرخ الحروب الصليبية:

"إن الملك لويس التاسع هو في مقدمة سياسي الغرب الذين وضعوا الخطوط الرئيسية لسياسة جديدة".

وإن هذه السياسة تتمثل في تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلي حملات صليبية سلمية.. تستهدف نفس الغرض.. وأن يكون أحد أسلحة الحملات الجديدة: هو الدس بين العرب وإثارة الخلافات والعمل علي بقاء آثارها مستعرة بين البلدان المسلمة.

وقد بدئ في تنفيذ هذه المخططات عن طريق ثلاثة أساليب اعتمدت عليها في تحديها للعقيدة الإسلامية..

١- التبشير.

٢- الاستشراق.

٣- التغريب.

التبشير كوسيلة من وسائل تحديات الإسلام:

بعد ارتداد الحروب الصليبية منهزمة أمام قوة المسلمين.. اتخذ الصليبيون وسيلة أخرى لإضعاف الروح الإسلامية في نفوس المسلمين.. هذه الوسيلة هي: التبشير.. وذلك بعد أن أدركوا يقينا أن الحروب بقوة السلاح المادي لا تجدي شيئاً.. بل إنها تكون في كثير من الأحيان باعثاً علي وحدة المسلمين وإظهار قوتهم المعنوية والمادية.

يقول رستز:

خابت دول أوروبا في الحروب الصليبية الأولى عن طريق السيف.. فأرادت أن تثير علي المسلمين حرباً صليبية جديدة عن طريق التبشير.. فاستخدمت لذلك الكنائس والمدارس والمستشفيات.. وفرقت المبشرين في العالم.. وهكذا تبينت الدولة حركة التبشير لمآربها السياسية ومطامعها الاقتصادية.. ولقد استطاع- ريمون لول-

فـــي عـــام ١٢٩٩ وعام ١٣٠٠ للميلاد أن يحصل علي إذن من الملك يعقـــوب صـــاحب أوجونة ليبشر في مساجد برشلونه.. محمياً بالسلطة المسيحية في أسبانيا.

ويعتـــبر عـــام ١٢٩٩م أول عهد الأوربيين بالتبشير.. كما يعتبر- ريمـــون لول- أول من تولي التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية فـــي مهمـــتها.. فقد تعلم- لول- اللغة العربية.. وجال في بلاد الإسلام ونـــاقش علماء المسلمين في بلاد كثيرة.. وإلي جانب تطواف- لول- فـــي الـــبلاد الإســـلامية.. كانت السفن البحرية الأوروبية تطوق البلاد الإســـلامية.. وتفـــرض شبكة من التجسس.. فتدمر حضارتها.. وتفتت ركائز قوتها.

وتسلل المبشرون إلي داخل العالم الإسلامي.. للقيام بمهمة التجسس واســـتطلاع نقـــط الضـــعف وكشفها.. وبث الأعوان.. ونشر القلاقل والفتن والشبهات..

يقول الأب شانتور:

يأتـــي المبشـــر تحـــت علم الصليب.. يحلم بالماضي.. وينظر إلي المســـتقبل.. وهـــو يصغي إلي الربح التي تصفر من بعيد من شواطئ رومـــية ومـــن شواطئ فرنسا.. وليس من أحد يستطيع أن يمنع الريح مـــن أن تعيد علي آذننا قولها بالأمس.. وصرخة أسلافنا- الصليبيين- من قبل: إن الله يريدها.

ولم يتهاون الصليبيون في يوما منذ انقضاء الحروب الصليبية وإلي الآن فـــي توجـــيه مؤامـــرتهم.. وفـــي تكثيف خططهم لضرب العالم الإســـلامي.. للقضاء علي كل قوة تجمعه وتشده إليها..وما زال يشنون

غـــاراتهم.. الغارة تلو الأخرى علي البلاد الإسلامية.. لتجعلها منطقة خاضعة لحكمهم الاستعماري.

وعلـــي هذا فالتبشير: ما هو إلا ستار شفاف أو واجهة مزيفة تخفي تحـــتها أطماعاً استعمارية.. تريد أن تحقق غزواً حضاريا.. وكثيراً ما يظهـــر البشير في مناسبات شتى مرادفاً تماماً لمعني الاستعمار.. ذلك لأن رجال الكنيسة الكاثوليكية.. يعتبرون التبشير بمذهبهم عملاً وطنياً.

ومـــن الواضح بمكان تآزر التبشير مع الهيئات السياسية.. للوصول إلـــي أغراضـــه ونوايـــاه الاستعمارية.. وقد أقترح أحد المبشرين أن تتعاون بريطانيا مع فرنسا علي سياسة السيطرة علي الشواطئ.. حيث يمكـــن وصول آلات القتال الحديثة بسهولة.. ذلك لأنه رأي أن الإسلام يتزايد عددياً.. ولم يتفق قط أن شعباً دخل في الإسلام ثم عاد نصرانياً.

وقـــد اعـــتمد المبشرون علي إثارة النزعات الطائفية والقومية في صـــفوف المســـلمين.. وعملوا علي إحياء الحركات الشعوبية المعادية للمـــبدأ الإســـلامي.. فـــرجوا للقومـــية العربية التي تنتمي إلي فترات تاريخـــية مندثرة.. وإلي الفرعونية التي تنتني إلي حجارة الأهرام في مصـــر.. وإلـــي الفينيقـــية فـــي الساحل السوري.. وإلي الأشورية في العراق.

وقـــد امتصـــت هذه الاختلافات القومية والطائفية قواهم الذاتية.. إذ وجـــدت من يهتف بها ويغني بها.. وما زال التبشير يبحث عن معول آخـــر يهدم به التضامن الإسلامي.. وعن نزعات سياسية أخري تفتت رابطة العالم الإسلامي.. وتبعثر قواه.. وكأن اللورد:

جـــلاد ســـتون- حيـــنما صرخ في مجا ن العموم البريطاني.. وقد أمسك بنسخة من القرآن الكريم قائلا:

ما دام هذا القرآن موجوداً.. فلن تستطيع أوروبا السيطرة علي الشرق.. ولا أن تكون هي نفسها في أماكن.

وكأن هذا القول يتمثل للمبشرين دائماً.. ويدعوهم لأن يحكموا خططهم ويحزموا أمرهم.

أساليب التبشير:

لقد اندس المبشرون وراء كل فكرة براقة يمكن أن تجذب طبقات مختلفة من الشعوب.. فاستغلوا كافة الخدمات الاجتماعية لمصالحهم الخاصة.. فأنشأوا الأندية الثقافية والترفيهية.. وجمعيات للشباب والشابات.. وأنشأوا جمعيات لإصلاح الأحداث ونادوا بإنصاف العمال لجذبهم إليهم.. وقاموا بإنشاء جمعيات للرفق بالحيوان.. للتأثير في قلوب السذج من الناس.. الذين لا يلبثون أن يصطدموا بالواقع حينما يجدون ظلمهم للإنسان.. واستغلالهم للأعمال النبيلة في سبيل تحقيق أغراضهم الضعيفة.. ومطامعهم اللئيمة.

وتتلخص أساليب التبشير في:

١- انتشار مدارس تبشيرية في مختلف مجالات التعليم.. فهناك دور الحضانة وأخرى لتعليم تلاميذ المدارس الابتدائية وثالثة لتعليم مدارس المرحلة الإعدادية والثانوية.. بالإضافة إلي جامعات يسوعية وأخرى أمريكية.. وقد ثبت هذه المدارس والجماعات في مختلف أرجاء العالم الإسلامي.. في القرية النائية والقريبة.. في المدينة الكبيرة والمدينة الصغيرة.. وهي بهذا الانتشار والتوسع تغزو كافة فئات المجتمعات وتتصل بمعظم طبقات المجتمع.

ومن أهداف التبشير في هذا المجال: بث روح الولاء للغرب.. وإبعاد الجيل الحاضر رويداً رويداً عن شخصيته الإسلامية.. وعن تاريخه الإسلامي المشرق.. ثم وضع المسلم في قالب غربي مستعار.. ينسي به أصالة تراثه.. وتسترخي قواه.. ويفقد شجاعته وحماسته لحرمات الله أن تنتهك.. فإن غار علي حد من حدود الله يتجرأ عليه.. فتلك رجعية لا تليق بالرجل المثقف الواعي العاقل.. وإن أخذته كرامة المسلم وإباؤه.. الأصيل والعزة النفسية بأن لا يساير ولا يداهن.. فتلك همجية تتنافي مع الإنسان الحضري المتعلم.

وكثيراً ما أثرت المدارس التبشيرية في نفوس الطفولة البريئة.. فإذا بالطفل المسلم.. يردد صلواتهم وتيرنم بشركهم من حيث لا يدري ولا يشعر.. كما أثرت في الشبيبة اليافعة من أبناء المسلمين.. وأورثت في نفوسهم حب مخالطتهم والاقتباس من عاداتهم وتقاليدهم التي تمثل شخصيتهم.. فتذيل الشخصية الإسلامية.. وأول بوادر هذا الذيول.. التعاون في أداء العبادات وفي إظهار الشعائر الإسلامية الأساسية.

٢- نشر العلمانية: والدعوى إلي فصل الدين عن الدولة.. ورد النتائج والأسباب للطبيعة أو إلي المصادفة.. وهنا يكمن الخطر الشديد.. الذي يبذر بذور التشكيك في نفوس المسلمين.. ويؤدي إلي اضطراب في العقيدة.. واضطراب في القيم والمفاهيم لدى الإنسان المسلمين.. فتتنازعه التيارات المتعاكسة المتضادة من مد وجذب.. فتضيع ملامح شخصيته وتنهار قواه الذاتية.. أو ينحرف في سلوكه الخلفي.. ويخلع عنه الرداء الإسلامي.. وبهذا يتحقق للتبشير غرضه الخطير.

٣- المؤتمرات التبشيرية: منها:

أ- مؤتمـــر القاهرة عام ١٣٢٤هـــ- ١٩٠٦م المنعقد في منزل زعيم الثورة العرابية المسلم- أحمد عرابي.

ب- مؤتمر أدنبرج سنة ١٣٢٨ هـــ في إنجلترا.

ج- مؤتمـــرات القـــدس وقد حصل في سنوات متعددة متعاقبة.. وإلي الآن.

أهم التوصيات:

- وجوب إقناع للمسلمين أن النصاري ليسوا أعداء لهم.
- وجـــوب تبشـــير المسلمين بواسطة رسول من أنفسهم.. ومن بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أعضائها.

٤- فـــتح المستشـــفيات: وبعـــث الإرســـاليات الطبية إلي الشرق الإســـلامي وهـــذا أســـلوب خطير أيضا.. لأنه يدس السم في العسل.. فالغاية شريفة طاهراً وقالبا.. ولكنها خبيثة مضموناً وحقيقة.. ذلك لأن المـــرض حالة بليغة من حالات الضعف البشري.. ويتبع هذا الضعف قصـــور في الإدراك الفكري.. فيصل الطبيب أو الممرض إلي غرضه من غير أدني جهد.

٥- الإعـــلام: وهو من الوسائل التي اعتمد عليها التبشير للوصول إلـــي أغراضه.. فكان يعمل من وراء حركات الصحافة.. وفق مصر ولبنان علي سبيل المثال جرائد مخصصة لصالح التبشير.

٦- نشـــر الفساد والانحلال الخلقي: وهو من الوسائل المخزية التي اتـــبعها التبشير.. فقد عملوا علي إنشاء حانات للخمر في كل من مصر وسوريا ولبنان.. وشجعوا علي تهريب المخدرات والحشيش.

وفي العصر الحديث يستعمل المبشر وسائل جديدة.. يدخل بها إلي قلب بلاد المسلمين.. ليؤثر في نفوسهم مثل:

- القنوات الفضائية.
- الكمبيوتر والنت.
- الفن والسينما.
- الفلسفة والشعر.

اليهودية والتبشير:

ليس هناك من شك في أن هناك تعاوناً وثيقاً بين إسرائيل وبين التبشير.. ذلك لأن كل منهما استعمار.. والاستعمار قادر علي التلون بألوان شتى وصور مختلفة.. إذ أنه يسعي لغاية واحدة.. وهي تسخير الآخرين لتحقيق مصالحه الخاصة.. ورفع مستوى بلاده اقتصادياً علي أكتاف البلاد التي تؤكل كل خيراتها.. ويستخدم رجالها لتصميم حضارة راقية.. تخلد اسم الدولة الغالبة.

ومنذ أمد طويل واليهود يساندون التبشير لتقويض أركان الدولة العثمانية واقتسام أراضيها.. وفعلاً وقع ما خطط له.. وكان من بين الذين قدموا للخليفة الصالح ورقة عزله.. ذلك اليهودي الذي ساومه في يوم من الأيام عن التخلي عن فلسطين إزاء رشوة مالية تدفع له.. ولكن السلطات عبد الحميد- رحمه الله- رفض بإصرار وعزيمة أن يباع شبر من أراضي فلسطين.. وتوعد اليهود الخليفة المسلم.. وأعقب ذلك إعلان وعد بلفور عام ١٩١٧م.. الصادر من وزير الخارجية البريطاني.. والذي يقضي بمنح فلسطين وطناً قومياً لليهود.. وتوالت

الهجـرة الـسيهودية أثناء الانتداب البريطاني.. وانسحبت ببريطانيا عام ١٩٤٨ من فلسطين لتمكن اليهود من التسلط عليها.

وأقيمـت في فلسطين أول كنيسة بروتستانية.. وكان المبشرون جد مقتنعيـن أن جمـع اليهود في فلسطين وإنشاء وطن قومي لهم.. يسهل مهمـتهم في الوصول إلي أطماعهم في ديار المسلمين.. للوصول إلي تغيير ثقافة المسلمين.

مـن أجـل ذلك فتح الإنجليز باب فلسطين علي مصراعيه لدخول قوافـل الحقد والكراهية والمكيدة والخداع.. وقد كتب المبشر: = جون فـان أسي- عام ١٩٤٣م: يذكر إسرائيل ويعلن حدودها كما هي عليه الآن- ويـبرز المبشر- لورانس بروان- تفضيل المبشرين التعاون مع اليهود ضد القضية الإسلامية بقوله:

إن المسـلمين يخـتلفون عن اليهود في أن دينهم- دين دعوة- أما اليهود فهم جماعة دينية مغلقة.. لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة.. ولكن بعـد الاختـيار لـم نجد مبرراً لهذا التخوف.. لقد كنا نخوف بالخطر الـيهودي.. لكنـنا وجدنـا الـيهود أصدقاء لنا.. وعلي هذا يكون كل مضـطهد لهـم عدونـا الألـد ولكـن الخطر الحقيقي كانت في نظام الإسـلام.. وفـي قدرتـه علي التوسع والإخضاع وفي حيويته.. إنه الجدار الوحيد الذي يقف في وجه الاستعمار.

وقـال: إن الخطـر الحقيقي الذي يهددنا تهديداً مباشراً هو: الخطر الإسلامي.. والمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي.. فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص بهم.. ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة.. وهم جديرون أن يقيموا بها قواعد عالم جديد دون حاجة

إلـــي الحاجة للغرب.. وفرصتهم في تحقيق أحلامهم هي اكتساب التقدم الصناعي الذي أحرزه الغرب.

الاستشراق كوسيلة من وسائل تحديات الإسلام:

كـــان للإسلام منذ ظهوره موقف مشرف مع المسيحية.. لم يشاركه فيه أحد من العقائد الأخرى.

يقـــول الله تعالي: "**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمـــن بـــالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**". سورة البقرة- ١٧١.

ويقـــول سبحانه: "**إنما المسيح عيسي ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلي مريم وروح منه**" سورة آل عمران ٤٢- ٤٣.

ويحدثـــنا التاريخ أن الرجل الصالح- النجاشي- قد سمع للمسلمين المهاجريـــن مـــن مكـــة إلي بلاده.. أن يقيموا في الحبشة آمنين علي دمـــائهم وأموالهـــم وأعراضهم.. وحينما سمع هذا الإنسان الكريم كلام جعفر بن أبي طالب.. وهو يحدثه عن اعتقاد المسلمين بالمسيح عيسي بـــن مـــريم.. بكـــي حتى ابتلت لحيته.. وبكي أساقفته يومذاك.. وقال كلمـــته المشـــهورة الذائعـــة بيـــن المسلمين: إن هذا.. والذي جاء به عيسي.. ليخرج من مشكاة واحدة.

وقـــد كـــان الإسلام متعاطفا مع دولة الروم.. قال الله تعالي: "**ألم.. غلبـــت الـــروم. في أدني الأرض وهم بعد غلبهم سيغلبون في بضع ســـنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون.. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم**". سورة الروم.

الأمر الذي عجب له مؤرخو المسيحية والدولة البيزنطية.. لأن كل الشـواهد كانـت تخالف هذا التنبؤ.. ومع ذلك فقد قضي الله أمراً كان مفعولاً.. وفرح المؤمنون بنصر الدولة البيزنطية.

وعلـي هذا فالمسلمين دائماً أكثر تسامحاً وإنصافاً مع المسيحيين.. وقـد عاشـت الأقلـيات المسيحية في المجتمعات الإسلامية آمنة علي نفسـها آمنة علي أعراضها.. آمنة علي أموالها.. لها من الحقوق مثلها للمسـلمين.. ولـو وازنـا وضع هذه الأقليات المسيحية بأقليات مسلمة تعيش في مجتمعات مسيحية.. لما كان هنالك وجه للمقارنة بينهما.

وفـي القرنيـن الأخيرين.. ومع بداية القرن الثامن عشر.. حينما دب الضـعف فـي الكنيسـة.. وانحسـرت سلطتها في المجتمعات الأوربية والأمريكـية.. وانهزمـت في روسيا والصين.. لم تهدأ وتضع سلاحها.. وتسـتكن للأمـر الواقـع وإنمـا رأت أن هـذه فرصة مناسبة لها لتؤكد للمجـتمعات الأوربية والأمريكية أنها الجدار القوي.. والستار الواقي الذي يقـف حاجـزاً دون المسلمين.. فهي تضع يدها مع كل فكرة استعمارية.. ومـع كـل تآمر صهيوني.. يهودي لإشهار السلاح بوجه المسلمين.. وقد تواطـأت الكنيسـة مع الصهيونية ضد الإسلام في كل البلدان الأمريكية والأوربـية.. والأفريقية والأسيوية.. مع أن اليهود هم الذين شوهدوا معالم المسيحية.. وأساؤا إلي شخص المسيح عليه السلام.

نقد المعتقد المسيحي:

نعـتقد- نحـن المسـلمين- أن المسيحية المنتشرة الآن ليست هي المسـيحية التـي تنزلـت علي المسيح عيسي عليه السلام.. وإنما هي مسـيحية جديدة.. اتفق عليها بضغط من الملك قسطنطين عام ٣٢٥م.. أي بعد ثلاثة قرون من رفع المسيح إلي السماء.

ولكن ما السبب الذي دعا الملك قسطنطين لأن يضع مسيحية جديدة؟

الحقائق التاريخية تثبت أن إنجيل المسيح نفسه.. أي كلامه لفظاً ومعني لم يصل إلي الناس.. وإنما الذي وصل إليهم مجموعة من المذكرات الشخصية لبعض تلاميذه.. الذين لا يرتفع بعضهم عن الشبهات.

وكان لليهود أثر في تغير معالم المسيحية الصحيحة بما أثاروا من أباطيل حول السيدة مريم العذراء.. ولذا فقد اختلفت التصورات لديهم حول ذات الله تبارك وتعالي.. وحول المسيح عليه السلام.. ولا ننسي أبداً أثر الوثنية اليونانية.. والرومانية القديمة في إدخال تحريفات علي العقيدة الصحيحة.. وكان من نتائج اختلاف التصورات المسيحية.. أن تقاتل الناس بعد أن افترقوا إلي شيع وأحزاب.. فأراد الملك قسطنطين أن يقضي علي الفتن.. فعقد مجمعاً سمي: مجمع نيقية.. وأرغم القسيس علي الوقوف عند تصور يرضي الجميع.. كحل وسط.. فكان هذا الحل: هو تقسيم المسيح عليه السلام بين الألوهية والبشرية.. فهو بشر إله.. نستغفر الله من هذا المعتقد الباطل.

قال تعالي: "**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم. وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار**". سورة المائدة- ٧٢.

وقال تعالي: "**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم**".. سورة المائدة- ٧٣.

وقد تعرض علماء المسلمين لنقد المعتقد المسيحي السائد.. فقد كتب ابـن تيمـية عام ٦٦١- ٧٢٨ هـ كتابه- الرد الصحيح علي من بدل الصـحيح علـي من بدل دين المسيح- وفيه ردود علمية علي ما طرأ من تحريفات بشرية علي الدين المسيحي وعلي إنجيله.

ومـن قبل نقد الإمام ابن حزم عام ٣٨٤- ٤٥٦ هـ- رحمه الله- فـي كـتابه- الفصل في الملل والنحل- المسيحية السائدة.. فكان مما قال:

والنصاري لا يدعون أن الأناجيل منزلة من عند الله علي المسيح.. ولأن المسـيح أتـاهم بها.. بل كلهم لا يختلفون في أنها أربعة تواريخ ألفهـا رجـال معـرفون فـي أزمان مختلفة.. أولها تاريخ ألفه- متى اللاوانـي- بالعبرانـية بعد تسع سنين من رفع المسيح.. في نحو ثمان وعشـرين ورقة بخط متوسط.. والآخر تاريخ ألفه- مارقس الهاروني بعـد أثنيـن وعشـرين عامـاً مـن رفع المسيح عليه السلام.. وكتبه باليونانـية فـي أنطاكـية.. والثالـث تاريخ ألفه- لوقا الطبيب- تلميذ شـمعون باطرة.. كتبه باليونانية بعد تأليف مرقص المذكور في حجم إنجـيل مـتى.. والرابع تاريخ ألفه باليونانية- يوحنا بن سيذاري- بعد رفـع المسـيح ببضـع وستين سنة في أربع وعشرين ورقة.. ثم ليس للنصـاري كـتاب يعظمونـه سـوى- الأفركسيس- الذي ألفه لوقا.. وكتاب- الوحي والإعلان- ليوحنا.. والرسائل القانونية..و - رسالتين لـباطرة شمعون.. ورسالة ليعقوب بن يوسف النجار.. وأخرى لأخيه يهودا.. ورسائل بوليس تلميذ شمعون".

وكـل كـتاب لهـم بعد ذلك فهو من تأليف المتأخرين من أساقفتهم وبطاركـتهم.. وبديهـي أن ما ألفه إنسان ونسبه إلي الله.. لا يمكن أن

يكـــون من الثقة بالمكان الذي يحظي به ما يصدر عن الله مباشرة لفظاً ومعنـــي.. ومن الملاحظ لمن يطلع علي هذه الأناجيل.. التفاوت الكبير بينها أسلوباً ومعني.. حتى في التصور والمعتقد ذاته.

يقول ابن حزم أيضاً:

"وجملة أمرهم في المسيح عليه السلام.. أنه مرة بنص أناجيلهم ابن ابـــن الله.. ومرة هو ابن يوسف.. وابن داود وابن الإنسان.. ومرة هو إله يخلق ويرزق.. ومرة هو خروف الله.. ومرة هو في الله ومرة هو فـــي تلاميذه وتلاميذه فيه.. ومرة هو علم الله وقدرته.. ومرة لا يحكم علـــي أحد ولا ينفذ إرادته.. ومرة هو نبي وغلام الله.. ومرة أسلمه الله إلي أعدائه.. ومرة ترك الله له الملك وتولاه هو.. ومرة يجوع ويطلب مـــا يأكل.. ويعرق من الخوف.. ويفشل فيركب حمارة.. ويؤخذ ويلطم وجهـــه ويضـــرب رأسه بالقصبة.. ومرة مات ودفن ثم قام بعد الموت ودفـــن ثـــم قـــام بعد الموت فلم يكن له من هم بعد أن قام إلا طلب ما يأكل.. ثم انطلق إلي شغله.

ومـــع ذلـــك فنحـــن المســـلمون ندعـــو الناس إلي الحق بالحكمة والموعظة الحسن.. نقول لأهل الكتاب:

"يقول تعالي: "**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلي كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعـــبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فـــإن تولـــوا فقولـــوا اشـــهدوا بأنا مسلمون**".. سورة آل عمران- ٦٤.

لكـــن المســـيحيين ومـــنذ ظهور الإسلام.. اتخذوا الموقف المعادي للمســـلمين.. وأعلـــنوها حـــرباً طاحـــنة.. واستعانوا بكل قوى البغي

والعـــدوان.. واســـتعملوا أســـلحة مادية فتاكة وأخرى فكرية.. وتتمثل الأولى في الحروب الصليبية والثانية بالتبشير والاستشراق.

ويعتـــبر الاستشراق أداة من أدوات الصليبية- المسيحية المحرفة.. لتضـــليل الـــرأي الإنســـاني العالمـــي.. ولبـــث الدعايات الباطلة ضد المسلمين.. ولإشاعة الشبهات ضد المعتقد الإسلامي نفسه.

أهداف الاستشراق:

١- تشـــويه المعالم العامة للإسلام وحجب محاسنه عن الناس للحيلولة دون انتشـــاره من جهة ولإظهاره علي غير حقيقته من جهة أخرى.. ذلك لأن المستشـــرقين علموا يقيناً أن الإسلام إنما انتشر بسمو مبادئه وسماحة تعالـــيمه.. وعدالـــة تشـــريعه.. فأرادوا أن يحجبوا هذا الدين العظيم عن الوصول إلي النفوس والأفئدة.. فعمدوا إلي التضليل والتشويه.

٢- العمـــل علي إخماد روح الجهاد في نفوس المسلمين.. والركون إلـــي الـــراحة والدعة.. وبذلك يتم دعم الاستعمار الصهيوني.. والغزو الفكري الصليبي.

٣- العمل علي عزل الشريعة الإسلامية عن أنظمة الدولة السياسية والاقتصـــادية والاجتماعية.. واستبدالها بأنظمة أجنبية وضعية.. وبذلك يحـــافظون علـــي تبعية المسلمين للاستعمار في شتى أشكاله ومختلف ألوانه.. ومن ثم ينعمون بخيرات بلادنا الإسلامية.. ويتمتعون بثرواتها الطبيعية.

٤- محاربة اللغة العربية ومناهضتها.

٥- نشـــر الاتجـــاه العلمانـــي.. وربـــط حـــركة التغريب بالتقدم الحضاري.

تاريخ بدء الاستشراق:

هـناك اتفاق علي أن الحركة الاستشراقية قد بدأت في القرن السابع الهجـري فـي الأندلس.. حينما اشتدت الحملة الصليبية الإسبانية علي المسـلمين فـي ديارهم- الأندلس- فدعا ملك قشتالة- ميشيل سكوت- لـيقوم بالبحث في علوم المسلمين وحضارتهم.. يجمع سكوت عددا من الرهـبان في بعض الأديرة بالقرب من طليلة.. وبدأوا يترجمون بعض الكتب العربية إلي اللغة الأجنبية.. ثم قدمت هذه الكتب إلي الملك فأمر باستنسـاخها.. وإرسال نسخها إلي جامعة باريس.. ومن أوائل الرهبان الذيـن درسـوا في الأندلس علي يد العرب: الراهب الفرنسي جربرت الذي انتخب بابا لكنيسة روما عام ٩٩٩م.

وقـد تطـور الاستشراق في الأسلوب وفي المنهج.. كما تطورت طرق التبشير من قبل.. فعمد المستشرقون منذ مطلع القرن الثالث عشر الهجري.. أواخر القرن الثامن عشر الميلادي- إلي الدعوة لإنشاء كليات لتدريس اللغات الشـرقية فـي عواصم البلاد الأوربية.. وفعلاً أنشئت كليات لتدريس اللغات الشرقية في لندن وباريس وبرلين وبطرسبرج وغيرها.. واشتملت علي أقسام خاصـة لدراسة اللغة العربية وبعض اللغات الإسلامية.. كالفارسية والتركية والأردية.. وكانت تهدف من وراء ذلك تزويد السلطات الاستعمارية بخبراء فـي الشـئون الإسـلامية.. ثـم أخذ الطلاب المسلمون يؤمون هذه الكليات الأوربية للدراسة فيها.. وبذلك تأثر الفكر الإسلامي بما يمليه المستشرق في أذهـان الطلـبة المبعوثيـن من أبناء المسلمين.. وكانت المؤسسات الدينية والسياسية والاقتصادية في الغرب تقدم الأموال الطائلة للمستشرقين من أجل القـيام بمهمـتهم.. وقـد أنشـئت عدة مؤسسات في البلاد الإسلامية لخدمة الاستشراق.. وللتآزر مع الاستعمار والتبشير الكاثوليكي والبروتستانتي.

والواقــع أننا لا نستطيع أن نفصل بين أهداف الاستشراق والتبشير والاســتعمار إلا مـــن حيث الأهداف الغريبة أو الهيئة الظاهرية.. أما الغــرض البعــيد لهـــا جمـــيعاً فواحد.. غير متعدد.. ومن أبرز هذه المؤسســـات التعليمية: الفرانـ ـكان والجامعة الأمريكية.. وقد انتشرت في كل الأقطار الإسلامية.

مواضع الخطر في الاستشراق:

خطة الاستشراق تتلخص في: إنصاف جانب من الإسلام في سبيل هدم جانب آخر.. وكل منهم يتخذ وجهته في هدم شيء معين.. ولكن واحــداً منهم لا يهدم كل شيء.. وهم إلي هذا يختلفون حتى لا يتهموا بالاتفـــاق علي رأي.. والمسألة الواحدة يقال فيها رأي ويقال فيها ضده مـــن مستشـــرق آخـــر.. ولكـــن الهـــدف الأكبر هو: إحداث عوامل الاضطراب الفكري والبلبلة التي تكون قد تحققت.

وأهم ما استهدفت كتابات المستشرقين: تشويه الثقافة العربية الإسلامية.. للحـــط من شأن العرب والمسلمين في نفوسهم.. وقد اتجهت هذه الأعمال في مظهرها لا إلي الدعوى إلي دين معين أو فكر معين.. ولكن لتشويه كل دين أساساً.. وللحط من شأن الفكر العربي الإسلامي.. بمقارنته بالفكر الغربي.. واخـــتلافه معه في بعض الجوانب واتخاذ فترات الضعف التي مر بها العالم الإســـلامي حجة علي التخلف.. ومحاولة اعتبار فكرها وصورة الحياة فيها هي الإسلام أو الفكر الإسلامي نفسه.

يقول لورنس براون:

إن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وعقيدته وفي قدرته علي الـــتحرك والتوســـع والإخضاع.. إنه الجدار الوحيد في وجه الغرب..

وعلي ذلك فإن الأهداف من الاستشراق قد رسمت مسبقاً.. ولا أدل علي ذلك من قول ليوبولد فابس.. كما ذكره محمد كامل عياد في كتابه- التاريخ والآثار.

أصبح احتقار الإسلام جزءاً أساسياً من الفكر الأوربي.. ومن هنا كان اتجاه الفرنسيين إلي العمل علي تشكيك المسلمين في دينهم وتحقيره في نفوسهم.. وتحميله تبعة صنيعهم.. وقد ولوا في ذلك إلي نتائج أكثر مما كانوا يتوقعون.. وذلك عن طريق تسميم عقول المسلمين بما يقولونه عن الإسلام.. وتاريخ الإسلام باسم البحث العلمي.

إن تحامل المستشرقين علي الإسلام.. غزيرة موروثة وخاصة طبيعية.. تقوم علي المؤثرات التي خلفتها الحروب الصليبية.. وكره الأوربيين للإسلام كره عميق الجذور.. يقوم في الأكثر علي التعصب الشديد.. وهو ليس كرهاً عقلياً فحسب.. وإنما يصطبغ بصبغة عاطفية قوية.. وقد لا تتقبل أوروبا البوذية أو الهندوكية ولكنها تحتفظ أمامها بموقف عقلي متزن.. إلا أنها حين تتجه إلي الإسلام يختلف التوازن.. ويأخذ الميل العاطفي للتسرب.

وقد ظهر من بحوثهم كأن الإسلام متهم.. يقف أمام قضاته.. وأن ما يبدو في سير الحكم من عدالة.. فإنما للتعمية والتضليل.. وإن طريقة الاستفزاز والاستنتاج التي يتبعها أكثر المستشرقين.. تذكرنا بوقائع ديوان التفتيش هذه الدواوين التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها في العصور الوسطي.. أي أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبداً إن نظرت في القرائن التاريخية.. بتجرد.. ولكنها كانت في كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل.. وقد أملاه الغضب.

بالإضافة إلي ذلك فإن أعمال المستشرقين قد انصرفت عن مباحث النهضة العربية الحديثة.. واتجهت إلي التاريخ الإسلامي وركزت علي الفتن الأهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسخ.. مع الاهتمام بالعوامل الخارجية التي كان لها بعض التأثير في نشأة الإسلام والحضارة الإسلامية.. في حين تهمل مظاهر التطور والتجديد والابتكار عند المسلمين في عموم مراحل التاريخ.

وقد ركز المستشرقون علي القرآن باعتباره دستور العقيدة الإسلامية.. وتعرض من جراء ذلك لحملة من أعنف الحملات.. وأثيرت حوله شبهات متعددة.. كانت تهدف في مجموعها إلي القول إن القرآن من نظم النبي محمد صلي الله عليه وسلم.. وأنه موضوع.. وليس منزلا من عند الله.

فهذا رينولد نيكسون.. يقرر أن مؤلف القرآن مضطرب غير متماسك في معالجة كبار المعضلات.. وأنه نفسه لم يكن عالماً بوجود هذا الاضطراب والتعارض.. وأن الفرق الإسلامية قامت بسبب التعارض الذي يحتويه القرآن.

ويقول هنري جونستون: القرآن ليس سوى مجموعة أقوال مقتبسة من التوراة والإنجيل.. وبعض تعاليم المجوس.. وأنه يحتقر المرأة.. وقد اشتهر الإسلام بكونه غير قابل للتكيف لما يطابق أحوال الزمان والمكان.

ولا شك أن مصدر هذه الحملة الشعواء التي ركز عليها المستشرقون أساساً هو الإيمان الأكيد بأن القرآن هو المصدر الأول.. والأساس لمقومات الفكر العربي والإسلامي.. وأن إثارة الشبهات حوله.. إنما هو هدف كبير في سبيل القضاء علي هذه المقومات.. وقد

بـــدأ ذلـــك واضحاً في عبارات جلادستون رئيس الوزارة البريطانية.. الذي حمل المصحف أمام أعضاء مجلس العموم وقال:

ما دام هذا الكتاب باقياً في الأرض.. فلا أمل لإخضاع المسلمين.. ويتصـــل هذا بما ذكره كرومر من اتهامات للقرآن من أنه هو المصدر الأول لتأخر المسلمين.

الشعوذة العلمية:

الخطـــر الأكـــبر في نظر المستشرقين هو وصول مفاهيم الإسلام الصـــحيحة إلـــي عـــالم الغرب نفسه.. ولمنع ذلك لجاءوا إلي الشعوذة العلمـــية باســـم البحـــث العلمي والاستنتاج التحليلي.. بعمل دراسات.. نذكر منها.

أولا: يجمع المستشرقون الشبهات المختلفة ويؤلفون بينها لإعطائها صـــورة كاملـــة.. مثال ذلك ما قام به المستشرق الألماني- ولهلم هو ربـــناخ- الأســـتاذ في جامعة بون.. من جمع قطع وشذرات من كتاب الإصـــابة للحفـــاظ بـــن حجر.. ثم ينشرها علي أنها كتاب الردة لابن حجـــر.. الـــذي ألفه أبو زيد بن الفرات المتوفي عام ٢٣٧ هـــ.. ولا يقوم بمثل هذا العمل إلا مغرض.. صاحب هوى.. لأنه مخالف للبحث العلمي السليم.

وشبيه بهذا ما أورده المستشرقون من الزعم: بأن العرب كانوا قبل البعـــثة النـــبوية.. أصحاب حضارة ونهضة وأن دور النبي صلي الله علـــيه وســـلم.. لـــم يزد علي أنه نهض بهم فنهضوا.. مع أن الحقيقة الواضـــحة.. أن العـــرب في جاهليتهم كانوا قبائل متفرقة متصارعة.. وأن الإســـلام هـــو الـــذي وحدهـــم في أمة واحدة.. ودفعهم إلي آفاق

النهوض والتوسع.. كما قال تعالي: "**لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم**". سورة الأنفعال- ٦٣.

كان العرب في الجاهلية بينهم من الثارات والدماء والمنازعات ما يستحيل معه الالتئام.. فضلاً علي هذا الإخاء الذي لم تعرف له الأرض نظيراً.. ولقد وقعت المعجزة التي لا يقدر عليها إلا الله.. والتي لا نضعها إلا هذه العقيدة.. فاستحالت هذه القلوب النافرة وهذه الطباع الحادة إلي هذه الكتلة المتراصة.. المتآخية الذلول بعضها لبعض.

ثانيا: قيام المستشرقين بإحياء التراث الباطني المجوسي.. مستهدفين تحطيم أصالة الفكر الإسلامي.. ويبدو هذا واضحاً في تركيزهم علي إحياء كل المخطوطات التي تحمل هذه السموم.. وخاصة ما يتصل بالإلحاد والإباحية.. ولا ريب أن خطر آثار الاستشراق هو اعتبار كتب المستشرقين وبحوثهم مراجع أساسية في التاريخ واللغة والسيرة والفقه والعقائد.. وغير ذلك وخاصة في الجامعات والمعاهد العالية.. أو في دراسات المبعوثين إلي الجامعات الغربية في أوروبا وأمريكا.. والذين يقعون دائماً تحت سيطرة الاستشراق والأساتذة اليهود والصليبيين ثم يعودون إلي بلادهم.. فيحتلون مناصب التوجيه الثقافي والتعليمي.. ويفرضون ما تلقوا من الغرب من سموم.. باسم التجديد وحرية البحث.

وقد عمل المستشرقون علي نشر الموسوعات- دوائر المعارف- والقواميس.. لتكون مراجع سهلة للباحثين.. وملؤها بالسموم والشبهات والافتراءات.

مثل:

١- دائرة المعارف الإسلامية.

٢- المنجد في اللغة والعلوم والآداب.

٣- الموسوعة العربية الميسرة.

ثالـــثا: يعمـــل المستشـــرقون علي إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضـــونها.. حســـب أهوائهم والتحكم فيما يرفضونه.. أو يقبلونه من النصوص.. وكثيراً ما يحرفون النص تحريفاً مقصوداً.. كما يتحكمون فـــي المصادر التي يختارونها.. فهم ينقلون من كتب الأدب ما يحكون بـــه فـــي تاريخ الحديث النبوي.. ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه.

بـــل يتعدي ذلك إلي الطعن علانية في العقيدة.. حسب أهوائهم كما فعـــل جولـــد تسير في كتابه العقيدة والشريعة إذ يقول: إن البحث في التناقضـــات الظاهرة في القرآن.. وأصبح موضع حديث بين المؤمنين أنفسهم.

وهـــذا لم يحدث في القرآن.. ولكنه اعتبر التشابه تناقضاً.. وفسره حســـب رأيـــه هـــو.. ولـــم نسمع نحن المسلمين ببحث في تناقضات القرآن.. لا لشيء إلا لأنها غير موجودة.

يقـــول تعالـــي: **"ولـــو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا"**. سورة النساء- ٨٢.

التغريب كوسيلة من وسائل تحديات الإسلام:

التغريـــب هـــو حـــركة موجهـــة لصـــبغ الإسلام بصبغة غربية.. وإخـــراجه عن طابعه الخالص.. واحتوائه علي النحو الذي يجعله يفقد ذاتيته.. وكيانه.. ويذوب فيما يسمي بـــ العالمية.. أو الفكر الأممي.

ويعتبر عزيزي القارئ هذا المخطط من أقسي ما يواجهه الإسلام في العصور المختلفة.. لأنه وليد الاستعمار وربيب الاستشراق وابن التبشير.. وهو فوق ذلك مؤامرة الصهيونية مع الصليبية ضد الإسلام والمسلمين.. والتغريب حركة كاملة البناء.. له نظمه ووسائله وأهدافه.. وقادته ودعاته.. وهو يعتمد علي وسائل الإعلام من راديو وتليفزيون وقنوات فضائية وكمبيوتر ونت وصحافة وكتب.. كما يعتمد علي دور الثقافة والمدارس.

وتهدف حركة التغريب إلي إثارة الخلافات والخصومات بين العرب والمسلمين.. وتحاول أن ترد التراث الإسلامي إلي الغرس والهنود واليونان.. لذا نجد أن التغريب يهتم بدراسة عالم ما قبل الإسلام وإحيائه في صور شتي.. كصورة الفرعونية والجاهلية والوثنية والفارسية والمجوسية القديمة.. وإثارة دعوات حديثة كالبهائية والقاديانية.. كما يسعي لتمزيق وحدة الفكر العربي الإسلامي.. بعزل الأخلاق عن التربية.. والدين عن الأدب.. والسياسة عن الدولة.. كما يعمل جاهداً لنشر الإلحاد والإباحية والدعاية لهما.. لأن الإنسان إنما يكون له وجوده وشخصيته: بمبدئه الذي يعتقده وبقيمه التي يؤمن بها.. فإذا ضاعت المبادئ والقيم.. إنهار الإنسان الذي هو نواة المجتمع.

وقد استعملت حركة التغريب أساليب مختلفة.. لتحقيق أغراضها المنكرة.. وكان أهمها:

١- الحركة العلمانية.

٢- الحركة القومية.

أولا: العلمانية:

هي نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض كل صورة من صور الإيمان الديني والعبادة الدينية.. وقيام الدولة علي دعائم الدين.. كما يرفض كل نظام أو قيمة تنسب إلي الدين من قريب أو من بعيد.. وهي دعوة صارخة لفصل الدين عن الدولة.. وأن يكون ماله لله وما لقيصر لقيصر.. هذه صيحتها التي قصدت من ورائها عزل الدين عن مناهج الحياة.. وعن السياسة والحكم والقضاء.

والعلماني: هو ذلك الشخص الذي يأخذ كل ما يتعلق بشئون الدنيا وأنظمتها.. بعيداً كل البعد عن التعاليم الدينية.

والعلمانية بهذه الدعوى قد أوجدت حكماً ثنائياً.. وحركة ثنائية.. وتعليماً ثنائياً وإعلاما ثنائياً.. ومنهاجاً ثنائياً.. فهناك سلطة الدولة التي تعمل باستقلال وانعزال كاملين عن الدين.. وهناك رجال الدين الذين يحكون في المعبد.. ويديرون شئون دون أن تكون لهم كلمة في شئون الحكم والسياسة والاقتصاد.. أو في إدارة الدولة.. وهناك مدارس مدنية.. ومدارس دينية.. وهناك تعليم لا ديني وتعليم ديني.. وكلاهما منفصل ومستقل عن الآخر.. وهناك حياة دنيوية متغيرة ومتطورة.. وهناك حياة دينية في منأى عن التغير والتطور.

هذه الثنائية تبرز بصورة مريعة حينما يقع الطرفان في نزاع.. كل منهما يحاول أن يخضع الآخر.. وكل منهما يريد أن يتحكم في الآخر.. هذه الثنائية ظهرت بصورة شديدة وعنيفة في أوروبا.. إذ كانت الكنيسة هي المسيطرة علي الحياة في مختلف مجالاتها طوال القرون الوسطي.. وكانت تحد كثيراً من نشاط العلماء.. بل كانت تعطي لنفسها الحق في بيع صكوك الغفران لأصحاب الذنوب.. وبيع

مســاكن في الجنة.. قصور وفيلات وشقق كبيرة أو صغيرة مفروشة.. تبيعها بالنقد والتقسيط.

العلمانية.. وموقف الإسلام منها:

يتلخص الموقف الإسلامي ن الحركة العلمانية في:

١- إن التديــن جزء من الطبيعة البشرية.. ولا يستطيع الإنسان أن يعــيش مــن غير دين.. ولقد عجزت المذاهب جميعها والأيديولوجيات علــي اخــتلافها أن تقــدم له بديلاً عن الديني.. يشفي روجه.. ويملأ حياته.. ولقد حرر الإسلام الإنسان من عبودية المجتمع.. ومن عبودية الأفراد ليتجه إلي الله وحده.

٢- حــرر الإســلام الفكــر مــن الظــنون والفروض والأساطير والخــرافات والأوهام والأهواء.. ودعا إلي التمسك بالمنابع الإسلامية الأصــلية.. وفــي مقدمتها.. القرآن الكريم وسنة رسول الله صلي الله علــيه وسلم.. ومن هنا كان التحرك الفكري للمسلمين.. إنما يجري في إطارهــا.. فــإذا خــرج عنهما وقع الحرج والضيق والتمزق والشتات الذي لا يزول إلا بالرجوع إليهما.

٣- أن حاضر الفكر الإسلامي والأدب العربي.. والثقافة العربية.. لا تنفصــل عــن ماضــيها الممتد.. المتصل.. المتفاعل خلال مراحل الــتاريخ المختلفة دون توقف.. وإن الفكر الإسلامي الحديث هو ثمرة للفكر الإسلامي الذي بناه القرآن الكريم.

٤- إن الحــرية فــي الإســلام تعني تحرير العقل البشري من قيد الوثنــية.. مهمــا اختلفت أسماؤها ومن الجهل مهما تباينت تواريخها..

ومن الخرافة والتقليد مهما لبست من مسوح.. كما تعني تحرير الإنسان من قيد العبودية وسلطان الاستبداد والطغيان.

٥- إن الأخلاق في الإسلام ثابتة لا تختلف باختلاف المجتمعات ولا تتطور بتطور الأزمان.. ولا تتبدل بتبدل الأجيال.. وإنها مرتبطة بالإنسان.. وإن الحق واحد لا يتعدد.

٦- إن الإسلام وحدة كاملة لا تقبل الانفصام ولا التجزئة ولا التفتيت.. وكل فرع فيه يقوم علي أصول ثابتة.. فالأخلاق لا تنفصل عن العبادة ولا تنفصل عن السياسة.. كما أن العبادة لا تنفصل عن المعاملة.

٧- لقد ربط الإسلام في حياة الفرد بين عقيد التي يؤمن بها ويدين لها.. وبين العمل والنشاط الذي يصدر عنه.. وقرن بين العلم والعمل.. فلا يطلب العلم ليبقي في حيز النظريات.. إنما يطلب ليطبق ويستفاد منه في تحسين وسائل الحياة الإنسانية.

٨- لا يري الإسلام أن ثمة تعارضاً قائماً بين مفهوم الإيمان ومفهوم المعرفة والعلم.. ولا تقتصر المعرفة والعلم في الإسلام علي الوسائل الحسية والبراهين التجريبية.. وإنما يضاف إليها التسليم بعلم الوحي.. الذي أفاد الإنسان فائدة كبرى.. وكفاه مؤنة البحث فيما وراء الطبيعة.. والبحث عن اليوم الآخر.. وقدم له وصفاً كاملاً للحياة بعد الموت.. هذا الوصف الذي يرضي الأشواق النفسية للإنسان ويدخل في قلبه الطمأنينة والسكينة.

وهكذا..

يتضح لنا أنه لا يوجد منفذ واحد تدخل منه العلمانية إلي الإسلام وفكره وعالمه ومجتمعه.. ذلك لأن البيئة التي وجدت فيها العلمانية

وهـــي: الغـــرب.. تخـــتلف كلـــياً عن البيئة العربية الإسلامية.. وإن الظـــروف الأوربية التي أتاحت لظهور العلمانية لم توجد.. ولن توجد ظـــروف مماثلة لها في البلاد الإسلامية.. ولو كان الإسلام منتشرا في أوروبـــا وحكاماً لحياتها لما نشأت العلمانية في الفكر الأوروبي.. ولما وصـــل تفكير بعض الأوربيين إلي التطرف في النزعة المادية.. لحل بعض المشكلات الاجتماعية.

يقول أحد العلماء الغربيين:

إن الغربي لا يصير عالماً إلا إذا ترك دينه.. بخلاف المسلم.. فإنه لا يترك دينه إلا إذا صار جاهلاً.

العلمانية والإعلام:

وقـــد فطـــن العـــدو الماكر إلي أهمية الإعلام فاستغله علي أوسع نطـــاق.. ويلاحـــظ المستشـــرق- جب- أن النشاط الإعلامي والثقافي والتعليمـــي التغريبـــي.. وقد ترك في المسلمين أثراً جعلهم يبدون في مظهـــرها العام لا دينين إلي حد بعيد.. ثم يعقب علي ذلك بقوله: وذلك خاصـــة هـــو اللب المثمر في ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي علي حضارته من آثار.. ثم يقول: الواقع أن الإسلام بوصفه عقـــيدة لم يفقد إلا قليلاً من قوته وسلطانه.. ولكن الإسلام بوصفه قوة مســـيطرة علي الحياة الاجتماعية قد فقد مكانته.. فهناك مؤثرات أخرى تعمـــل إلـــي جانـــبه.. وهي في كثير من الأحيان تتعارض مع تقاليده وتعاليمه تعارضا صريحاً.. ولكنها تشق طريقها.. بالرغم من ذلك إلي المجتمع الإسلامي في قوة وعزم.

ويقول جب موضحاً:

لقد أصبح الرجل من عامة المسلمين يري أن الشريعة الإسلامية لم تعد هي الفيصل فيما يعرض له من مشاكل.. ولكنه مرتبط في المجتمع الذي يحيا فيه بقوانين مدنية.. قد لا يعرف أصولها ومصادرها.. ولكنه يعرف علي كل حال أنها ليست مأخوذة من القرآن.. وبذلك لم تعد التعاليم الدينية القديمة صالحة لإمداده في حاجاته الروحية.. فضلا عن حاجاته الاجتماعية الأساسية.. بينما أصبحت مصالحه المدنية وحاجاته الدنيوية هي أكثر ما يسترعي انتباهه.. وبذلك فقد الإسلام سيطرته علي حياة المسلمين الاجتماعية.. وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً.. حتى انحصرت في طقوس محددة.

وقد تم معظم هذا التطور تدريجياً عن غير وعي وانتباه.. وكان الذين أدركوا هذا التطور قلة من المثقفين.. وكان الذين مضوا فيه عن وعي.. وتابعوا طريقهم فيه عن اقتناع قلة أقل.. وقد مضي هذا التطور الآن إلي مدى بعيد.. ولم يعد من الممكن الرجوع فيه.. وقد يبدو الآن من المستحيل مع تزايد الحاجة إلي التعليم.. ومع تزايد الحاجة إلي الاقتباس من الغرب أن يصد هذا التيار.. أو يعاد الإسلام إلي مكانته الأولى من السيطرة التامة التي لا تناقش علي الحياة السياسية والاجتماعية.

القومية:

اتخذت القومية في القرن التاسع عشر مفهوماً خاصاً.. يدل علي تفضيل أصرة القوم علي غيرها من الأواصر.. ولكن جوهر هذا المعني كان معروفاً منذ العصور القديمة.. فقد عرف اليونان والرومان والهنود- القومية- وكانت تعني عندهم انتساب الفرد إلي قوم أو جنس معين.

وللقومية أركان خمسة عليها يرتفع بينان هذا المفهوم:

١- وحدة الجنس.. بمعني الانتساب إلي أصل واحد.

٢- وحدة الوطن.

٣- وحدة التاريخ.

٤- وحدة اللغة.

٥- العوامل الاقتصادية.

جاء الإسلام فوجد الناس يتجمعون علي آصرة النسب أو يجتمعون علـــي آصرة الجنس.. أو يتجمعون علي آصرة الأرض.. أو يتجمعون علـــي آصرة المصالح والمنافع القريبة.. وكلها عصبيات لا علاقة لها بجوهــر الإنســان.. إنمــا هـــي أعراض طارئة علي جوهر الإنسان الكـــريم.. وقـــال الإسلام كلمته الحاسمة في هذا الأمر الخطير.. الذي يحدد علاقات الناس بعضهم ببعض تحديداً أخيراً.

إنـــه لا لـــون ولا جنس ولا نسب ولا أرض ولا مصالح ولا منافع هـــي التـــي تجمع بين الناس أو تفرق.. إنما هي العقيدة.. هذه الرابطة جديـــرة لأن يـــناط بها إنشاء أمة.. وتجمع إنسانية.. وتقيم دولة.. فهي وحدهـــا قـــادرة علي أن تؤلف بين قلوب البشر علي اختلاف ديارهم وأجناســـهم ولغـــاتهم واقتصـــادهم.. وهي وحدها قادرة علي أن تجمع العالميـــن فـــي دائـــرة واحـــدة.. وأن تمدهم بقيم واحدة.. وأن تنظمهم بأنظمـــة واحـــدة.. وبشـــريعة واحدة.. ومن هذا كله تنبع مشاعرهم.. وتتحد آمالهم وغاياتهم واتجاهاتهم.

سقوط البلاد الإسلامية في براثن القومية:

يحدثنا التاريخ أن فكرة القومية قد دخلت إلي البلاد الإسلامية عن طريق جماعة الاتحاد والترقي وجمعية تركيا الفتاة.. وكانا حزبين يتعاونان مع اليهود.. ويعملان علي تنفيذ خططهم الماكرة الحاقدة.. وقد تأكد لدى المسلمين أن قادة الاتحاد والترقي جميعاً من اليهود من غير استثناء.. وإن أعضاء هذا الحزب كلهم من يهود سالونيك.. وعلي هذا فإن اليهود هم الذين سعوا جادين لإثارة النزعة القومية.. والدعوى لها بشتى الوسائل والعمل علي إحياء التاريخ الجاهل المفضل علي التاريخ الإسلامي.. والأدب القومي.

جاء في منشور لإحدى الجمعيات التركية الطورانية: "إن هذه البدعة الخيالية المخيفة التي يسمونها الأمة الإسلامية.. التي ظلت إلي أمد طويل سداً يحول دون التقدم بوجه عام .. ودون تحقيق الوحدة الطورانية بوجه خاص.. وهي في طريقها الآن إلي التفكك والزوال.

وكانت الدولة العثمانية تجمع قوميات متعددة مؤتلفة معها بسبب عقيدة التوحيد.. فإذا أبعد الدين الإسلامي.. وظهرت النزعة التركية العلمانية.. وأبعدت لغة القرآن الكريم عن المكاتبات الحكومية.. لم يبق رباط جامع يربط بين تلك القوميات المتعددة.. وبين القومية التركية.. لأن العقيدة وحدها هي التي توحد بين صفوف المسلمين.. فإذا فقدت العقيدة زالت معالم التجمع الإسلامي.

ومن سرت عدوى القوميات إلي كل الأجناس الخاضعة للحكم العثماني.. وطالبت بالانفصال عن الأم.. إذ لم تخضع لها إلا من أجل العقيدة والشريعة التي يدين بها كل مسلم.. وقد أبعدت عنها الإسلام.. فلم يبق ما يدعو للاستمرار في الخضوع لحكم علماني غير إسلامي..

أو للإنصــهار فــي بوتقة الدين.. وعلي هذا دعت كل جماعة لإحياء قوميتها.. إذ كل فئة لا تريد أن تذوب في جنسية غيرها.. لأن الجنسية خاصــة وليســت عامــة.. وهــذا هــو الفرق الجوهري بين القومية والإســلام.. وعلــي أثــر ذلك نادي الأكراد بقوميتهم.. ونادي العرب بقوميــتهم.. وطــبعاً عزيــزي القارئ لا يخفي عليك التعاون الصليبي الــيهودي فــي إثــارة هذه الفتن.. وفي تفتيت الأمة الإسلامية.. وفي التخطيط للاستيلاء علي أملاك المسلمين.

أمــا القومية العربية فقد شجع علي ظهورها في صورتها العلمانية: عــدد مــن الدول التي كانت تطمع في احتلال الشرق الإسلامي وعلي رأســها بريطانيا.. وفي مذكرات أغاخان.. فصل عن ضابط بريطانيا السياســيين.. الذيــن شجعوا الحركة القومية العربية للوقوف أمام فكرة الدولــة الإسلامية.. أما- لورنس- المسمي نفسه لورنس العرب.. وهو من أكبر منفذي سياسة بريطانيا آنذاك.. فيقول مصوراً ذلك الهدف في كتابه- أعمدة الحكمة-:

وأخــذت طــول الطريق أفكر في سوريا وفي الحج.. وأتساءل هل تغلــب القومــية ذات يــوم علي النزعة الدينية.. وهل يغلب الاعتقاد الوطني الاعتقاد الديني.. وبمعني أوضح هل تحل المثل العليا السياسية محــل الوحــي والإلهــام.. وتستبدل سوريا مثلها الأعلي الديني بمثلها الأعلي الوطني.. هذا ما كان يجول في خاطري طوال الطريق.

ومعلــوم أن الــثورة علــي الأتراك قامت بتأييد بريطانيا ودعمها الأدبي والمادي.. ودعم حليفتها فرنسا.. وقد ثبت أن عدداً من الزعماء الأتراك كانوا متصلين بالقنصليات الأجنبية لتلقي هذا الدعم.

وأخيراً.

لا أجد عزيزي القارئ للمسلمين بعد هذا كله عذراً.. يعتذرون به.. لتمهيد الطريق أمام دعوة القومية.. أو إثارة هذه النزعة التي من شأنها تفتيت كيان الأمة.. وتمزيق وحدتها.. وجعلها دويلات ضعيفة يسهل علي العدو التآمر عليها وغزوها في عقر دارها.. وتملك ينابيع ثروتها وتشتيت أبنائها.. وكما يفعل اليوم في فلسطين والأفغان والعراق.

الوثنيات الوضعية كتحد عقائدي:

ما هي الوثنية:

الوثنية كلمة تطلق علي مختلف العقائد التي لا تفرد الله سبحانه وتعالي بالتوحيد.. وتنسب الوثنية إلي الوثن وهي عبادة الأحجار والأصنام.. وقد وصف اليونان القدماء بالوثنية.. كما وصف بها أهل الجزيرة العربية علي اختلاف المدى والفهم.

وكانت الوثنية اليونانية عريقة ذات أيديولوجية كاملة.. ولها فلاسفتها أمثال: أفلاطون وأرسطو.. وشعراء أمثال أخسيلوس وسوفوكليس.

والعقائد الوثنية متعددة.. منها تألية الطبيعة أو جزء منها كالشمس والقمر أو بعض أنواع الحيوان.. أو تألية البشر فرداً أو أسرة أو جماعة.. وذلك كعبادة الملوك والأسر الحاكمة عند بعض الأمم القديمة: كالمصريين القدماء.. أو الحديثة كاليابان والهنود.. وكعبادة الأبطال والقديسين والأولياء.. لذلك فقد حرص الإسلام علي الاختصار في أي نوع من أنواع المبالغة في تكريم الأبطال والصالحين حتى لا يتحول ذلك مع الزمن إلي مثل هذا النوع من العبادة.

ومن العقائد الوثنية الاعتقاد بألوهية بعض الكائنات الخفية وعباداتها كالملائكة والجن والشياطين والأرواح وهناك العقائد السلبية والإلحادية القائمة علي إنكار الله ومحوه وإنكار الحياة الآخرة وقد استهدفت هذه المذاهب الدعاية إلي إحياء ما قبل الإسلام.

وقد استشرت هذه الوثنيات وعادت إلي التشكل في صور مهرجات واحتفالات وأعياد ومواسم سائدة مع ما تشكله من اختلافات عن العقيدة الإسلامية وقيمها ومناهجها.. فضلا عما تخلفه من تحديات بإحيائها طقوساً لا يعرفها الإسلام ولا يقرها.. وهو الذي حرر منها البشرية.

الوثنيات الوضعية:

١- المجوسية: وهي عبادة قائمة علي التناقضات بين عديد من مذاهب العبادة: الشمس والنار والماء.

فالفرس يقدسون الماء قبل كل شيء إلي حد أنهم لا يغسلون به وجوههم.. ولا يلمسونه إلا أن يكون ذلك للشرب أو ري الزرع.. أما مكانة النار فهو شيء لا حد له.. فهي النار المقدسة التي أقيمت لها المعابد في كل مكان.. ولعل أبرز مظاهرها: النظام العبودي حيث تقف طبقة الفلاحين والصناع.. موقف الاحتقار.. وتقوم الأرستقراطية الإقطاعية مقصورة علي أفراد الأسر السبع العظيمة.. وحيث يورث الأشراف.. وتورث العبودية.

وقد تطورت المجوسية بعد زرادشت مرتين.. بظهور ما في عام ٢١٦م ومزدك عام ٤٨٧م.. أما المانوية فقد خلطت بين الزرادشتية والنظرية في مذهب جديد.. وهي تدعو إلي: ترك العمل والزهد في ملاذ الحياة.. واستعجال الفناء.. أما المزدكية فقد أحلت النساء

والأمـــوال.. وجعلت الناس شركاء فيهما.. وأخطر ما في هذه الوثنيات أنهـــا تنظر إلي ملوكها.. كأنهم آلهة.. اصطفاهم الله لحكم الناس.. ولا شـــك أن العقـــيدة الإســـلامية.. قد قضت عن هذه النظرية.. وحطمت نظـــرية العـــبودية.. وأطفـــأت بيوت النار.. ودمرت الدولة الساسانية وأزالتها من الوجود.

وقـــد ظلـــت طـــوال عصور الإسلام مخبوءة تحت الرماد.. حتى وجـــدت لها متنفساً بعد هذه العصور.. وبرزت كمنافس متحدياً للعقيدة الإسلامية.. وهذه العقائد علي ضعفها بمقارنتها بالعقيدة الإسلامية.. قد اعتـــنقها الـــبعض كمـــا هـــي الحال.. ووجدت مروجين لها.. لا بل اســـتنفرت مـــن يدافـــع عـــنها.. ووجدت في المجتمعات من يحبذها.. وانخـــدع الـــناس حتى أصبحت تحديات في وجه المجتمع الإسلامي.. تحـــيط به جوانب شتى.. وتفرض عليه نوعاً من التعامل معها بصفتها تحديات عقائدية.

البرهمية:

وتقـــول البرهمـــية بـــثالوث الهـــند براهما- فشنو- سينا.. ويعتقد معـــتقدها بالتناســـخ.. الـــذي لا تطهر النفس من آثامها إلا به.. ومن شعارها الانتحار.. والخلاف بين البرهمية والبوذية.. أن البرهمية تقوم علـــي نظـــام الطـــبقات.. للكهان فيها من الامتيازات ما يعلو بها عن مرتـــبة البشر.. أما البوذية فجاءت كاسرة لهذا القيد.. وظلت البرهمية تفتقد قوتها.. ويزداد التذمر منها في المجتمع الهندي.. وألتماس البديل عـــنها فـــي شـــخص بوذا في القرن السادس قبل الميلاد.. حيث ظهر بفكـــرة جديدة تقوم علي تجريد النفس وقمع الشهوات.. وانتشرت هذه الفكـــرة بسرعة.. وشملت شرق آسيا كله.. وهي بهذا ليست ديانة لأنها

لا تحمــل فكــرة أو عقــيدة.. ولكــن مـــا لبثت أن هاجمتها الطقوس والأوثان..حتى غدت ديانة وثنية.

وهكـــذا بقيت البرهمية منكسرة أمام البوذية التي تغلبت عليها.. حتى جاء- ســتكرأجارية- فـــي القـــرن المسيحي وقام بنشاط في محاربة البوذية ونشـــر البرهمية.. حتى تمكن من إجلاء الديانة البوذية عن الهند.. ثم جـــاءت الهندوســـية المتجددة بعد البرهمية.. فخلقت مجتمعاً يقوم علي مفاهـــيم الزهد المفرط والصوم وأرق الليل وتعذيب النفس.. وهي في مجملهـــا تقدس البقر وتخضع للنظام الطبقي الذي هو ركن من أركان العقـــيدة.. فالـــبراهمة سادة والباقي عبيد.. وامتدتهم النصوص المقدسة التي تقول: إن الله خلق الطبقات علي هذا الوضع.. ومن ثم فالتقسيم لا سبيل لإزالته.

وهكـــذا تكشف هذه الديانات الوضعية عن ظلم كبير للنفس البشرية فـــي علاقاتهـــا بالحـــياة.. وعلاقتها بالمجتمع من حيث الانحراف عن مفهـــوم الدين الحق.. بالإضافة إلي السلبيات الخطيرة في مجال الحياة مـــن الحرمان بالصوم الدائم.. وتعذيب النفس.. والإذلال البشع في تلك العبودية الطبقية بحرمان الزوجة إذا مات زوجها من الزواج.. وحرق جـــثمان الميت وتقديم القرابين.. وهي من الأشياء التي واجهتها العقيدة الإســـلامية القرابين.. وهي من الأشياء التي واجهتها العقيدة الإسلامية عند ظهورها.. وحررت منها كثيراً من تلك المجتمعات.

ولكـــن القلة الباقية من هذه الوثنيات هي التي جعلت تناوئ العقيدة الإســـلامية العـــداء.. وتناصـــبها فـــي الترصد لتصبح تحدياً معاصرة للمجتمع الإسلامي.. علي ما فيها من الوضعية والسقوط..

عزيزي القارئ:

إليـك مثال عملي من الواقع المعاش.. يوضح لك لماذا تصر القوى الغربية علي إضعاف العقيدة الإسلامية؟

الدولـة اليهودية التي تقوم علي قيم ومبادئ وعقيدة الدين اليهودي- وهـي دولـة دينـية- يحيط بها أربعة دولة عربية.. إسلامية- مصر وسـوريا .. الأردن ولبـنان.. الدولـة الأربعة أعلنوا صراحة.. أنهم يـريدون السلام والتخلي عن الحرب.. وبالفعل عقدت مصر والأردن اتفاقيتـي سلام مع الدولة اليهودية.. وخرجنا تماماً من حلبة الصراع- العربـي الإسرائيلي- سوريا ولبنان تريدان السلام ولكن الظروف غير مواتـية.. فسـوريا لا تستطيع- وإن كان نظامها يرغب ويتمني- لأن هضـبة الجولان محتلة.. والدولة اليهودية تشترط تنازل سوري مقابل السـلام.. ولبـنان وإن كـان الجانب المسيحي يرغب في السلام مع إسـرائيل.. ولكـنه لا يسـتطيع لأن الجانـب المسلم وخاصة الشيعة يرفضون.

الـدول الأربعـة علمانـية التوجه.. وقد تخلت منذ زمن بعيد عن الاحـتكام إلي عقيدة الإسلام.. ولكي يرضي الغرب عنها ويضعها في مصـاف الدول المتحضرة.. قامت بفصل الدين عن الدولة.. بل راحت تتعقـب الإسلاميين وتتهمهم بالإرهاب تارة.. وبالعمالة تارة والشعوذة تارة.

وحيـنما تخلـت هـذه الدول عن عقيدة الإسلام أصبحت حسابتها دنـيوية محضـة.. لـذا فهي تحسب موازيين القوة بالمنطق البشري- ولـيس بالمنطق الإلهي- فإسرائيل من الناحية العسكرية تستطيع علي المستوى النظري.. محاربة العالم العربي مجتمعاً وهزيمته.. بفضل ما

قدمـــته الصـــليبية العالمية من أسلحة وصناعة أسلحة غاية في التقدم.. بالإضافة إلي ما تملكه من الرادع النووي.

الضعف والعجز هو ما أعلنته الدول الأربعة..

مـــن الذي تصدي لاعتداءات وافتراءات الدول اليهودية علي جنوب لبـــنان باحـــتلال أجـــزاء منه.. وعلي سوريا بالعربدة وانتهاك حرمة أجوائها؟ أقول.. من الذي تصدي..؟

المقاومـــة اللبنانية.. المتمثلة في فصيل حزب الله.. وهي مجموعة مـــن المســـلمين اتخـــذت من العقيدة الإسلامية لواء لها في حربها مع الدولة اليهودية.

ماذا كانت النتيجة..؟

- انسحاب الدولة اليهودية من الجنوب اللبناني.
- والاعـــتراف بالهـــزيمة.. وتشكيل لجنة لمعرفة أسباب الهزيمة والانحدار أمام فصيل حزب الله.

وخلصت اللجنة إلي:

أنـــه بالإضافة إلي الأخطاء العسكرية للقادة الميدانيين.. فالهزيمة لم تكـــن لهـــا يملكه فصيل حزب الله من أسلحة متقدمة وقدرة مخابراتية فائقـــة.. وإنمـــا لأنـــه يتمثل عقيدة الإسلام في كل مناحي الحياة.. أنه يســـتلهم القـــوة الإلهية في قتاله.. إنه فصيل شديد الإيمان بالله.. شديد الإيمان بنصره.

لـــذا فأنـــا أصنف نصر حزب الله.. بالنصر العقائدي.. لماذا؟ لأن أحدهمـــا عقـــيدته نابعة من الدين الإسلامي.. وهو دين حق.. والآخر عقيدته نابعة من الدين اليهودي المحرف.. وهو دين زائف.

مثال آخر..

المقاومة العراقية..

مجموعة من الناس اتخذت موقفاً من الغزو الصليبي الأمريكي- الإنجليزي للعراق.. رافضين المجازر المعتقلات.. الإهانات وأساليب السخرية والاستهزاء التي توجه إلي العراقيين.. ورافضين أيضاً استباحة أرض العراق.. وثروات العراق.. ومستقبل العراق.

هذه المجموعة أدركت بما تتحلي به من عقيدة الإسلام.. ورغم قلتهم وضعف ما في أيديهم من سلاح.. أنهم قادرون علي إلحاق الأذي بالعدو.

وهذا ما حدث.. فلا يمر يوم إلا ويعترف العدو بقتلي ومصابين في صفوفه.. لدرجة أن الشريك الصليبي الأصفر أعلن انسحابه من البصرة.. لعدم قدرته علي حماية جنوده من المقاومة.

أما الشريك الصليبي الأكبر.. أمسى يعلن أن انسحابه أصبح قريباً.. وأما الشريك الثالث الصهيوني والمتمثل في الموساد والذي يعيث فساداً في العراق.. ويزرع الفتن بين الشيعة والسنة.. ويقتل علماء العراق من أساتذة جماعات وأطباء ومهندسين ليفرغ العراق من مستقبله.. هذا الشريك الذي يسلح أكراد الشمال ويزين لهم الانسلاخ.. وتكوين دولة مستقلة.. هذا الشريك فقد في الأيام الأخيرة أكثر من عميل بيد المقاومة.

هل أدركت عزيزي القارئ لماذا يصر الغرب علي إضعاف العقيدة الإسلامية عند المسلمين..؟ ..؟

في أحد قاعات فندق شيراتون- عقدت الجلسة الافتتاحية للمؤتمر العالمي: "حقوق الإنسان في الإسلام".

وهناك التقيت مسيو: شارل سايمون.. ولكنه لم يكن كما عهدته.. فلم يستقبلني بابتسامته الآخذة.. ولا بكلمات التشوق.

استفسرت منه عن حاله.. قال وهو يضغط حروف كلماته..

- بخير.. ولكنني في الآونة الأخيرة.. تفرغت لأعيد ترتيب أوراقي.. فقد اكتشفت مثلاً.. أنني لم أقرأ القرآن ولو مرة واحدة باللغة العربية التي أجيدها كما يجيدها أبناءها.. دائماً.. دائماً كنت أقرأ القرآن مترجماً.. كما نصحني أصدقائي المستشرقين والمبشرين.

فقلت منبهراً..

- وهل قرأته باللغة العربية..؟

قال ولم يزل يضغط حروف كلماته..

- نعم.. وأدركت أنني لم أكن منصفاً.. إنما كنت متجنيا.

قلت بصوت خفيض..

- فليسامحك الله.. وليغفر لك.

وفي الطريق الصحراوي الذي يربط بين القاهرة والإسكندرية.. كنت لا أفعل شيء.. سوى النظر إلي السماء وأنا أردد:

- الحمد لله الذي هدانا للإسلام.. وأنه لدين الحق.

ثم قلت وكل خلية في جسدي تردد معي.. بل كل ما يحيط بي من حبات الرمل والشجر والهواء والطريق والسماء والسيارة:

- حقاً: "إن الدين عند الله الإسلام.." سورة آل عمران- ١٩.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

قائمة المراجع..

١- أربيروجي- الدين في الشرق الأوسط- لندن ١٩٢٨م.

٢- أنــور الجــندي- الإســلام نظــام مجتمع ومنهج حياة- دار الاعتصام- القاهرة ١٩٧٩م.

٣- الشــبهات المطــروحة في أفق الفكر الإسلامي- دار الكتاب- بيروت ١٩٨٠م.

٤- التبشير الغربي- دار الاعتصام- القاهرة ١٩٨٠م.

٥- الإسلام والعالم المعاصر- دار الكتاب- بيروت ١٩٧٣م.

٦- الإسلام في وجه التغريب- دار الكتاب- بيروت ١٩٨٢م.

٧- سقوط العلمانية- دار الكتاب- بيروت ١٩٨٠م.

٨- شبهات حول الإسلام- دار الشروق- القاهرة ١٩٧٥م.

٩- علــي عــبد الله الدفــاع- إسهام المسلمين في العلوم- مطابع الشروق- بيروت ١٩٨١م.

١٠- علي منصور- شريعة الله وشريعة الإنسان- دار المعارف- القاهرة ١٩٨٤م.

١١- غازي التوبة- الفكر الإسلامي المعاصر- دار القلم- بيروت ١٩٧٧م.

١٢- عبد السميع المهراوي- الصهيونية بين الدين والسياسة- دار النشر- بيروت ١٩٧٨م.

١٣- فتحي إبياري- الصهيونية- دار المعارف- القاهرة ١٩٧٦م.

١٤- محمـــد أســـد- الإســـلام علـــي مفترق الطرق- دار الجاد- الكويت ١٩٨١م.
١٥- محمد علي جريشة- أساليب الغزو الفكري- دار الاعتصام- القاهرة ١٩٨٠م.
١٦- محمـــد فـــريد بـــك- تاريخ الدولة العثمانية- دار النفائسي- بيروت ١٩٨١م.

المراجع الأجنبية..

1- Margoliouth: D. S.

Mohammad and the Rise of Islam.

"London- 1932"

2- Dermenghem: Emile.

Lavie de Mohomet.

"Paris, 1930"

3- Hell- Joseph

Arab cvilization.

"Combridze 1920"

4- Muir: sir William Tampel.

The live of Mohammed.

"Edinburzh- 1932"

5- Arnold: sir thomarw.

The Preaching of Islam 3 d- edition.

"London- 1935"

6- Lewiz; Bernord

The origins of Islam ilism .

"Cambridge 1970"

7- Milme: Grdflon.

History of Egypt under Rome Rule.

"London 1913"

الفهـــــرس

الفهــــــرس

الفهـــــرس

الفهـــــرس

الفهـــــرس